أسس الحوار فى القرآن الكريم

دراسة فى

علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية

تأليف : هيربرت بوسه

ترجمة : أحمد محمود هويدى

مراجعة : عمر صابر عبد الجليل

تصدير : محمد خليفة حسن

906

المشروع القومى للترجمة

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

أسس الحوار فى « القرآن الكريم »

دراسة فى
علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية

تأليف : هيربرت بوسه

ترجمة : أحمد محمود هويدى

مراجعة : عمر صابر عبد الجليل

تصدير : محمد خليفة حسن

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٩٠٦
- أسس الحوار فى القرآن الكريم
- هيربرت بوسه
- أحمد محمود هويدى
- عمر صابر عبد الجليل
- محمد خليفة حسن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

Die Theologischen
Beziehungen des Islam Zu
Judentum und Christentum

Grundlagen des Dialogs im Koran und die gegenwärtige Situation

Heribert Busse

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تصدير بقلم محمد خليفة حسن أحمد 7

تقديم المترجم 11

مقدمة 31

الفصل الأول : الوضع الدينى فى شبه الجزيرة العربية حتى عصر النبى محمد ﷺ

أولاً : الحياة السياسية والدينية 39

ثانيًا : رحلات المكيين التجارية 44

ثالثًا : العلاقات مع اليهود 48

رابعًا : الكعبة المشرفة 50

خامسًا : الحنيفية 53

سادسًا : القرآن الكريم 55

الفصل الثانى : أهل الكتاب

أولاً : الوحدة والتنوع فى الدين 63

ثانيًا : اليهود والنصارى 69

ثالثًا : آثام اليهود 76

رابعًا : الحكم على النصارى 82

خامسًا : الانفصال عن أهل الكتاب 87

سادسًا : دين إبراهيم 91

الفصل الثالث : روايات العهد القديم

أولاً : رؤية عامة 99

ثانيًا : خلق الإنسان ، الجنة، عصيان آدم 101

ثالثًا : قابيل وهابيل 103

رابعًا : الطوفان وعقوبات أخرى 106

خامسًا : إبراهيم 114

سادسًا : يوسف 124

سابعًا : موسى وبنو إسرائيل 128

ثامنًا : ملوك بنى إسرائيل 139

تاسعًا : نهاية بنى إسرائيل 145

الفصل الرابع : روايات العهد الجديد

أولاً : رؤية عامة 149

ثانيًا : يسوع (عيسى) فى تاريخ الخلاص (سورة آل عمران : ٣٣-٥٧) 150

ثالثًا : عيسى يخلص أمه 157

رابعًا : رفض عيسى وتكذيب الرسالة 160

خامسًا : وعظ عيسى 164

سادسًا : الصلب (سورة المائدة : ١٥٦-١٥٧) 167

الفصل الخامس : الوضع الراهن وأسسه فى التاريخ

أولاً : ملاحظات تمهيدية 175

ثانيًا : الفتوحات، المسلمون وغير المسلمين 177

ثالثًا : وضع اليهود والنصارى فى الدولة الإسلامية 179

رابعًا : الإسلام فى أوروبا، الدعوة الإسلامية 190

خامسًا : الحوار مقابل الدعوة والتنصير 196

سادسًا : شروط الحوار وموضوعاته 206

تصدير

يعتبر المستشرق هربرت بوسه من أهم المستشرقين الألمان المعاصرين ، ويعتبر كتابه " علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية " من أبرز الدراسات التى حددت علاقة الديانات التوحيدية ببعضها البعض ، وبخاصة تحديد علاقة الإسلام بالديانتين التوحيديتين السابقتين عليه . ويعتمد المستشرق بوسه فى كتابه هذا على النتائج العلمية التى تم التوصل إليها من خلال عدة علوم حديثة من أهمها علم تاريخ الأديان ، وعلم مقارنة الأديان وعلم نقد العهد القديم والعهد الجديد ، ونتائج علمى التاريخ والآثار ، بالإضافة إلى استفادته من مناهج علم الاجتماع الدينى ، وعلم أنثروبولوجيا الدين ، وعلم النفس الدينى .

وقد أتت رؤية هربرت بوسه للإسلام رؤية موضوعية إلى حد كبير ، ابتعد فيها عن كثير من شبهات الاستشراق التقليدى ، وتمكن إلى حد جيد من النظر إلى الإسلام على أنه دين مستقل عن اليهودية والمسيحية على الرغم من العلاقات الدينية القوية الرابطة بينه وبين ديانات التوحيد السابقة عليه .

ومن الأدلة الجيدة التى يسوقها بوسه ضعف الوجود اليهودى والمسيحى فى وسط شبه الجزيرة العربية وفى الحجاز ، وابتعادهما عن مجالات التأثير اليهودى المسيحى بسبب عزلتهما عن العالم الخارجى ، كما أكد على حقيقة أن الكتاب المقدس لم يترجم إلا فى القرن السابع / الثامن الميلادى ، ولم تعرف العربية ترجمة للكتاب المقدس قبل هذا التاريخ . ودليله الثالث انتشار فئة الحنفاء في شبه الجزيرة العربية وبخاصة فى الحجاز ، الأمر الذى يعنى عدم وجود تأثير خارجى فيما يتعلق بفكرة التوحيد .

ويشير هربرت بوسه بوضوح إلى التأكيد القرآنى على وحدة الدين المستمدة من وحدة الإله ووحدة النص المقدس ، ووحدة الأمة المؤمنة بالتوحيد ، وظهور التعدد بسبب اختلاف البشر والخروج على هذه الوحدة الدينية ، ووجود التشابه مرده إلى وحدة المصدر الذى يعود إليه أيضا التشابه الملحوظ فى القصص الدينى وبخاصة قصص الأنبياء .

ويهتم المستشرق بالنظر فى العلاقات التاريخية التى نشأت بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، ووضعهم فى الدولة الإسلامية ، ووضع الإسلام فى أوروبا ، ويقارن بين معاملة المسلمين للمسيحيين ومعاملة المسيحيين للمسلمين ، موضحا تسامح الدولة الإسلامية تجاه أهل الكتاب فيها مقابل عدم تسامح المسيحيين تجاه الرعايا المسلمين .

وقد انتهى المستشرق من دراسته إلى مناقشة الوضع الحالى للعلاقات الإسلامية المسيحية ، وأكد على ضرورة الحوار الإسلامى المسيحى مع وضع شروط لنجاح الحوار بين المسلمين والمسيحيين ، مفضلا الابتعاد عن مناقشة المسائل المرتبطة بالعقيدة والتركيز على المسائل الأخلاقية والإنسانية .

والكتاب بشكل عام كتاب جيد ومختلف عن كتابات المستشرقين التقليدية حول الإسلام والعالم الإسلامى ، حيث حاول مؤلفه الالتزام بخطوط منهجية واضحة وبمعالجة موضوعية تؤكد استقلالية الإسلام كدين عن اليهودية والمسيحية ، ولا شك فى أن ترجمة هذا الكتاب تعد إضافة إلى المكتبة العربية . والشكر واجب لمترجم الكتاب الأستاذ الدكتور أحمد محمود هويدى الذى قدم ترجمة طيبة حافظ فيها على لغة المؤلف وأسلوبه ، والتزم بالأمانة العلمية فى الترجمة ، وقدم للترجمة بمقدمة ضافية عرف فيها بالمستشرق ومنهجه وموقفه من الإسلام ، كما وضح بعض الشبهات التى وردت فى الكتاب والتى لا تقلل أبدا من قيمة هذا العمل وأهمية ترجمته إلى اللغة العربية حيث يعتبر هربرت بوسه حلقة فى سلسلة بعض المستشرقين الألمان الذين أنصفوا الإسلام وحضارته - مثل سابقيه آن مارى شيمل والمستشرق زيجفريد هونكه -

وهم يمثلون اتجاها إيجابيا وموضوعيا داخل الاستشراق الألمانى المعروف بمنهجه العلمى الأكاديمى ، وبصفته ممثلا لأهم مدارس الاستشراق الأوروبى على مستوى الأكاديمية العلمية ، وعلى مستوى الموضوعية اللازمة فى الدراسات الشرقية .

ولا يفوتنا توجيه الشكر إلى المجلس الأعلى للثقافة ولأمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور على هذا الاهتمام بنشر هذه الترجمة ضمن ترجمات المشروع القومى للترجمة .

والله ولى التوفيق

محمد خليفة حسن

تقديم المترجم

أولا : المؤلف والكتاب :

هربرت بوسه مستشرق ألمانى معاصر ، ولد عام ستة وعشرين وتسعمائة وألف درس الدراسات الإسلامية فى ماينس ولندن ، ثم عمل بالتدريس والبحث فى التاريخ والحضارة الإسلامية فى كل من : هامبورج وبوخم وبيروت والقدس ، وعمل منذ عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف وحتى تقاعده مديرا لمعهد الدراسات الشرقية فى كيل . وقد نشر العديد من الدراسات حول التاريخ والحضارة الإسلامية . واهتم بوجه خاص بتاريخ القدس فقدم دراستين ، الأولى حول الموروثات المقدسة لمدينة القدس فى عصر المسيحية المبكر والعصر الإسلامى ، والثانية حول إسراء النبى محمد إلى القدس وصعوده إلى السماء .

ويعد كتابه "علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية " من أبرز وأخطر أعماله التى قام بنشرها، وصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٨ ، ثم أعيد طبعه طبعة ثانية عام ١٩٩١ ، ونظرا لخطورة الكتاب وأهميته تمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية ، لأنها اللغة الاستشراقية الأكثر انتشارا بين اللغات الأوروبية . والكتاب يمثل حلقة من حلقات الصراع الفكرى بين الغرب والشرق ؛ فالكتاب يعرض لقضية قديمة جديدة لا تزال تشغل بال الكثير من المستشرقين وهى قضية التأثير والتأثر ، وإسقاط مناهج نقد العهدين القديم والجديد على نص القرآن الكريم .

والكتاب يشمل مقدمة وخمسة فصول . تناول المؤلف فى المقدمة عرضا لأهم الدراسات التى تناولت علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية موضحا أن القضية الرئيسية فى الدوائر الاستشراقية هى قضية مصدر القرآن الكريم ، بالإضافة إلى شخصية

عيسى - عليه السلام - ودور ذلك فى الجدل والحوار المسيحى الإسلامى . وقد تبنى المؤلف نظرية أن نص القرآن الكريم يعود إلى عصر النبى محمد - ﷺ - وأنه جُمع فى عصر عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ثالث الخلفاء الراشدين . أما الفصل الأول فقد تناول فيه قضية الوضع الدينى فى شبه الجزيرة العربية فى عصر ما قبل ظهور الإسلام . وأكد فى هذا الفصل على انتشار المسيحية فى أطراف شبه الجزيرة العربية ، بالإضافة إلى وجود اليهود فى يثرب (المدينة)، وكذلك وجود جماعات دينية أخرى مثل طائفة المعمدان المانوية والغنوصية ؛ مما أدى إلى تأثر الأطراف بهذه الديانات . أما وسط شبه الجزيرة العربية والحجاز فابتعدا عن مجال التأثير الخارجى لانعزالهما عن العالم الخارجى ، مؤكدا عدم ظهور أو وجود جماعات يهودية فى مكة ، وموضحا أيضا أن النصرانية لم تتمكن من تثبيت قدمها فى الحجاز. كما أشار إلى أن الزهاد النصارى وجدوا فى بلاد العرب بسبب معارضتهم لكنائسهم عقديا وسلوكيا ؛ وهذا يعنى نفى شبهة أن النبى قد تعلم أو عرف اليهودية من خلال وسيط نصرانى كما يدعى المؤلف ، وهذا التناقض عند المؤلف واحد من التناقضات العديدة التى يقع فيها كثير من المستشرقين . وهذا التناقض يؤكد عدم وجود أدلة يقينية تؤكد اعتماد النبى - عليه الصلاة والسلام - على مصادر يهودية أو مسيحية أو غيرهما ، ولم تكن له أى علاقات مع أصحاب هاتين الديانتين قبل بعثته ؛ مما يؤكد فى الوقت نفسه على إلهية نص القرآن الكريم.

ثم تناول المؤلف بعد ذلك رحلات تجار مكة وأثرها فى التعرف على الديانات وخاصة الديانة المسيحية . غير أنه عاد وأكد أن الكتاب المقدس لم يترجم إلا فى القرن السابع / الثامن الميلادى . فكيف – بناءً على ذلك – قدم المسيحيون دينهم إلى عرب شبه الجزيرة العربية ؟!!.

ومن الموضوعات المهمة التى عرضها موضوع الحنفاء وانتشار عقيدتهم بين عرب شبه الجزيرة العربية وخاصة عرب الحجاز ، وهذا يؤكد عدم وجود تأثير يهودى أو مسيحى لدى عرب الحجاز . إن اتباع بعض أهل الحجاز للحنيفية وعدم اتباعهم

اليهودية أو المسيحية يؤكد أيضا ليس فقط رفض هاتين الديانتين فحسب ، بل يؤكد أيضا عدم ابتعادهم عن الفطرة الأساسية التى تتصف بها الحنيفية .

ثم عرض بعد ذلك لقضية مصدر القرآن الكريم ، وهى القضية الرئيسية التى تناولها كثير من المستشرقين قدماؤهم ومحدثوهم ومعاصروهم . ورغم ادعاء المستشرق أن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أفاد من مادة العهدين القديم والجديد ، فإنه قد أكد وجود علاقة بين كتابات الوحى اليهودية والنصرانية من جانب والقرآن الكريم من جانب آخر ، والسؤال الآن : إذا كان يعتقد فى وجود وحى فى اليهودية والمسيحية ، ووجود علاقة بينهما وبين الإسلام ، فلماذا الادعاء بأن محمدا أخذ عن اليهودية أو المسيحية ؟!!! . فالمؤكد إذن هو أن النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تلقى وحيا إلهيا ، وأن التشابه فى القصص يؤكد وحدة المصدر وليس التأثير والتأثر. والاختلاف يعنى بُعد أحد المصادر عن النص الأصلى ، وغالبا ما يكون الأقدم لأن الأحدث يأتى دائما لتصحيح الأقدم . وقد أشار المؤلف نفسه إلى أن مصدر كتب ديانات الوحى واحد .

أما الفصل الثانى فعرض فيه قضية أهل الكتاب وموقف القرآن الكريم منهم . وأوضح أن هناك وحدة فى الدين ، وأن القرآن الكريم يمثل نموذجا للوحدة الدينية ، حيث يشير إلى إله واحد ونص أصلى أخذت عنه كل كتابات الوحى ، وأمة واحدة ونبى صاحب رسالة ، وكانت هذه الوحدة موجودة فى ديانة بنى إسرائيل وفى المسيحية ، لكن البشرية هى التى أدت إلى التعدد حيث آمن البعض ورفض البعض الآخر ، أو أن التعدد ناجم عن الإرادة الإلهية ويستدل على ذلك بالآية القرآنية ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن (قسمكم إلى جماعات مختلفة) لِيَبْلُوَكُمْ (من الوحى) فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ . وذلك يعنى ـ كما يقول المؤلف ـ احترام التنوع فى الدين ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ . ثم تناول بعد ذلك الحديث عن اليهود والنصارى موضحا آثام كل منهما وحكم القرآن الكريم عليهما والأسباب التى أدت إلى انفصال النبى عن أهل الكتاب .

أما الفصلان الثالث والرابع فتناول فيهما القصص الواردة فى القرآن الكريم وما يماثلها من قصص العهدين القديم والجديد ، وقد حاول فى هذين الفصلين رد القصص فى القرآن الكريم إلى ما يشابهها فى العهدين القديم والجديد وخاصة قصص الأنبياء إبراهيم ويوسف وموسى والخروج من مصر ، وداود وسليمان - عليهم السلام - وقصة المسيح - عليه السلام - وذلك بالإضافة إلى قصتى الخلق والطوفان ، وقصة قابيل وهابيل . وقد أشار إلى أن التشابه بين قصص القرآن وما يماثلها فى العهدين القديم والجديد ناتج من أن النبى - عليه الصلاة والسلام - استمدها من كتب العهدين وتفاسيرهما المختلفة ، متناسيا ما قد أشار إليه فى الفصل السابق وذكرناه من أن مصدر هذه الكتابات جميعها مصدر إلهى . فالتشابه بين القصص أو الأحكام الدينية يعود إلى وحدة المصدر كما قال المؤلف نفسه ، وليس إلى تأثير أو تأثر أو نقل من الكتب السابقة كما يدعى . وقد أثبتت الدراسات النقدية فى الغرب حول العهدين القديم والجديد تعدد مصادرهما وبعدهما عن نص الوحى لعدم تدوينهما فى عصر نزولهما ، بخلاف نص القرآن الكريم الذى نزل ودون فى عصر النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد أكد ذلك المؤلف نفسه فى تقديمه للكتاب وأشرنا إليه من قبل .

أما الفصل الخامس فإنه يمثل رؤية علمية واضحة عن العلاقات الإسلامية اليهودية المسيحية عبر العصور وإن ذكرها موجزة ومختصرة ؛ فقد تناول فى هذا الفصل شرحا للوضع الراهن مقدما له بعرض تاريخى عن الفتوحات الإسلامية ووضع اليهود والمسيحيين فى الدول الإسلامية ، ثم وضح وضع الإسلام فى أوروبا وانتشار الدعوة الإسلامية فيها ، ووضح أيضا كيف كان المسلمون أكثر تسامحا فى موقفهم من اليهود والنصارى ، مؤكدا أن موقف النصارى كان مخالفا دائما وأبدا للموقف الإسلامى حيث القهر والظلم وإعادة الكثلكة . وبين فى غير موضع الترحيب الذى كان يقابل به المسلمون أثناء الفتوحات من أهل الديانات الأخرى سواء من قبل النصارى الذين كانوا تحت الحكم الفارسى أو الحكم البيزنطى ،.وكذلك اليهود فى المشرق والمغرب ، وأشار إلى بعض التجاوزات التى حدثت من قبل بعض الحكام المسلمين تجاه بعض أهل الكتاب ، والحقيقة أنها استثناءات حدثت فى تاريخ المسلمين وليست هى

القاعدة ، والدليل على هذا ، ذلك التعاون البناء بين اليهود والمسلمين فى الأندلس ، وكذلك تولى بعض أهل الكتاب بعض المناصب المهمة سواء فى الشرق أو الغرب الإسلامى ، وكذلك احترام مقدساتهم وحمايتها . وتناول أيضا أهمية وجود الحوار بين الأديان عامة ، والمسيحية والإسلام خاصة ، وكيف يخطط له الغرب من أوائل القرن الماضى ، موضحا أهمية الحوار بدلا من نشر الدعوة عند المسلمين أو التنصير عند المسيحيين ، موضحا شروط الحوار والموضوعات التى يجب التحاور حولها، مؤكدا البعد عن النقاش حول الأمور العقدية ، موضحا أن يكون الحوار قائمًا على المبادئ الأخلاقية والإنسانية العامة .

ثانيا : منهج المؤلف :

موضوع علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية موضوع قديم جديد ، ظهرت بداية دعواته فى عصر النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما ادعى مشركو مكة أنه استمد مادته من اليهود والنصارى فرد القرآن الكريم على هذه الشبهة بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل ١٠٣) . وقد كثرت فى العصر الوسيط كتابات الجدل بين أتباع ديانات الوحى ، اتسم معظمها بالدفاع أمام الديانات الأخرى ، ويظهر لنا كتاب شتاينشنيدر " الكتابات المؤلفة باللغة العربية فى المناظرات والدفاع الدينى بين المسلمين والمسيحيين واليهود " (١٨٧٧) أسماء المؤلفين والكتب فى هذا الموضوع وما طبع منها وما هو مخطوط ، وأماكن وجودها وأرقامها فى المكتبات المختلفة . ومما لاشك فيه أن كتاب الشهرستانى "الملل والنحل" يعد من أفضل الكتب فى أدب الجدل والمناظرة ؛ حيث قدم الديانات والملل تقديما علميا موضوعيا حسب اعتقاد أصحاب كل دين وملة ، وأكد بوسه هذا المعنى ، وقد أكد أن المسلمين لم يكونوا متحيزين عند دراساتهم لليهودية والمسيحية ، وهذا بخلاف اليهود والنصارى عند دراستهم للإسلام .

ولاشك أن العلمية والموضوعية أساسية وضرورية فى دراسة الأديان ، وقد انتهج المسلمون فى كتاباتهم عن المسيحية واليهودية نهج القرآن الكريم ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت ٤٦) ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ﴾ (آل عمران ٦٤) . وليس هذا فحسب ، بل يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى الإيمان بالأنبياء السابقين والكتب التى أنزلت عليهم ، لأن هذه الكتب والقرآن الكريم أصلها واحد هو الوحى .

بدأ اتجاه علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية يقوى من جديد فى العصر الحديث بعد ظهور علم اللغات الجزيرية (السامية) المقارن . وأول كتاب فى هذا الاتجاه كتاب المستشرق الألمانى اليهودى أبراهام جايجر " ماذا أخذ محمد من اليهودية ؟ "، وتوالت بعد ذلك أعمال المستشرقين مثل ريتشارد بيل وتور أندريه وكارل آرنس وشارل كولتر تورى ويوسف هوروفيتس ، وقد استخدم هؤلاء المستشرقون منهج المطابقة والمماثلة ، وكذلك منهج التأثير والتأثر ، وأن الأحدث تأثر بالأقدم ، بالإضافة إلى المناهج العلمية الأخرى كالمنهج التاريخى والمنهج الوصفى . ولم يخرج مؤلفنا عن هذه المناهج ، فاستخدم المنهج التاريخى الوصفى فى عرضه للحياة السياسية والدينية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، واعتمد بدرجة أساسية على سيرة النبى لابن هشام فى ترجمتها الإنجليزية بالإضافة إلى بعض المصادر الاستشراقية الحديثة والمعاصرة . أما فى الفصل الثانى فاعتمد اعتمادا أساسيا على المنهج التحليلى ، وكانت مادته الأساسية فى هذا الفصل نص القرآن الكريم ، حيث كان يعرض النصوص ويحللها ويطوعها لوجهة نظرة . أما الفصلان الثالث والرابع فاعتمد فيهما على منهج المطابقة والمماثلة ومنهج التأثير والتأثر ؛ حيث كان يجمع المادة القرآنية حول قصة ما من القصص ويقابلها بما ورد فى العهد القديم أو العهد الجديد ، ليخلص إلى هدفه وهو أن النبى تأثر بهذه الكتب . أما الفصل الأخير فاعتمد على المنهج التاريخى حيث قدم عرضا عن تاريخ العلاقات الإسلامية اليهودية المسيحية ،

وتاريخ الفتوحات الإسلامية ، واصفا وضع الأقليات الدينية وخاصة اليهود تحت حكم المسلمين مقدما عرضا تاريخيا لنشأة الحوار بين الأديان والشروط الواجب توافرها لكى يكون الحوار ناجحا .

ثالثا : بعض الشبهات وتفنيدها :

يجب عند الرد على الشبهات التى يثيرها المستشرقون أن نكون منصفين نقول ما لهم وما عليهم . ويجب علينا ألا نتوقع منهم أن تكون كتاباتهم موضوعية دون تحيز منهم ، بمعنى أن أكثر المستشرقين اعتدالا من الضرورى أن يكون متأثرا بخلفيته الفكرية والثقافية ، فالمستشرق الذى درس التاريخ يتأثر فى دراسته بمناهج علم التاريخ عند عرضه للإسلام وما يرتبط به من موضوعات ، والمستشرق صاحب الخلفية اللاهوتية يتأثر فى كتاباته بالآراء اللاهوتيّة ومناهج نقد "الكتاب المقدس" ويطبقها على نص القرآن الكريم ، بمعنى أن كل مستشرق يتأثر بمنهج دراسته . لذلك يجب عند الحديث عن إيجابياتهم أن نكون حذرين جدا من التعامل مع النصوص الاستشراقية ، لأن إيجابياتهم إيجابيات يشوبها الكثير من المخاطر والتفاسير غير الموضوعية .

وهذا الكتاب يشمل العديد من الجوانب الإيجابية ، وسوف نقدم نماذج منها ، وذلك على سبيل المثال فقط وليس على سبيل الحصر . فمن الجوانب الإيجابية التى ذكرها المؤلف عرضه للحياة السياسية والدينية لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وتاريخ الكعبة المشرفة واستشهاده بالنصوص القرآنية وعرضها عرضا علميا موضوعيا ، وكذلك حديثه عن الحنيفية وانتشارها فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام . كما عرض أيضا ما يرتبط بالوحدة والتنوع فى الدين عرضا علميا موضوعيا ، وكيف أن جميع ديانات الوحى تعود إلى مصدر واحد ، هو الله . وتظهر موضوعيته أيضا فى حديثه عن آثام اليهود ، كما وردت فى القرآن الكريم ، وإن أقحم بعض العبارات الاستشراقية ، لذا يجب أن نكون حذرين فى التعامل مع نصوص المستشرق لمعرفة الغث من السمين فى العمل الاستشراقى .

ومن الجوانب الإيجابية التى أشار إليها المستشرق تأكيده أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى وضع أسسا للحياة المشتركة مع أهل الديانات الأخرى ، وكيف عاش أهل الكتاب فى الدول الإسلامية معيشة ضمنت لهم حرية العبادة والمشاركة الفاعلة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وذلك مقابل حالات الاضطهاد والظلم التى عاناها المسلمون فى البيئات المسيحية . وأوضح المستشرق أن أخبار الجدل فى القرآن الكريم ، ووجود اليهود والمسيحيين فى نطاق الدول الإسلامية هى التى دفعت المسلمين للاهتمام بهاتين الديانتين ، مؤكدا أن المسلمين استطاعوا عمل ذلك بدون تحيز إلى حد كبير نسبيا . وأشار فى هذا الجانب إلى عملى ابن حزم والشهرستانى ، ووصف عمل الأول بأنه يتسم بالدفاع والهجوم ، أما الثانى فأشار إلى أنه عمل وصفى . ولم يركز على أحد من علماء العصر الحديث إلا على رحمة الله الهندى ، ولم يشر إلى جهود كثير من الباحثين فى العصر الحديث والمعاصر ، الذين درسوا المسيحية واليهودية من وجهة نظر علمية موضوعية ، مستخدمين المناهج النقدية الغربية مع وجود البعد الإسلامى فى هذه الدراسات ، ونذكر من هذه الأعمال على سبيل المثال كتاب الإمام محمد أبو زهرة " محاضرات فى النصرانية " ، وكتاب " الفكر الدينى الإسرائيلى : أطواره ومذاهبه " للدكتور حسن ظاظا ، وكتاب "اليهودية" للدكتور "محمد بحر عبد المجيد"، ومؤلفات الدكتور "محمد خليفة حسن" وبخاصة "تاريخ الأديان – دراسة وصفية مقارنة" ، و" تاريخ الديانة اليهودية " ، و" تاريخ النبوة الإسرائيلية " ، و" علاقة الإسلام باليهودية : رؤية إسلامية فى ضوء نظرية مصادر التوراة الحالية " . ولمترجم هذا الكتاب العديد من المقالات النقدية حول نقد العهد القديم بناءً على علم نقد العهد القديم فى الغرب، ومن هذه الدراسات "روايتا الخلق والطوفان : رؤية نقدية فى ضوء نظرية مصادر التوراة الحالية " ، و " تاريخ الآباء وديانتهم : رؤية نقدية فى ضوء نظرية مصادر التوراة " ، و " هدف ومنهج مدرسة النقد النصى "... إلخ .

ومقابل الموقف غير المتحيز للمسلمين يؤكد المستشرق أن اليهود والنصارى نظروا إلى الإسلام على أنه لا حاجة إليه من البداية ، مؤكدا أن الحكم من قبل السلطات المسيحية كان مسيئا للغاية ومعدا بخبث لا حياد فيه ، وموضحا أيضا أن الحكم

المسيحى على الإسلام كان مشوشا طوال العصر الوسيط ، ثم وضح كيف بدأت الصورة تتغير فى الغرب عن الإسلام والمسلمين فى العصر الحديث .

ولا شك فى أنه بدأ بالفعل التخلص من بعض الصور القاتمة التى رسمت عن الإسلام والمسلمين فى الغرب بفضل تطور الظاهرة الاستشراقية ، غير أن المتابع للدراسات الاستشراقية وبخاصة المرتبطة بالإسلام دينًا وعقيدة لا يلحظ تطورا ملحوظا ومؤثرا فى العقلية الأوروبية . ونحن لا ننكر وجود أصوات عاقلة فى الغرب تتفهم وضع الإسلام دينًا والمسلمين شعوبًا لها خصوصياتها ، غير أن التفهم شيء والواقع وما يكتب شيء آخر . والتحول الملحوظ فى الدراسات المرتبطة بالإسلام فى الغرب ينصب حول جانب واحد فقط، وهو الجانب الحضارى ومدى إسهام المسلمين فى الفكر الإنسانى بصفة عامة ، أما عند الحديث عن الإسلام عقيدة أو عن شخصية الرسول وسنته لا نجد موضوعية ، وإن وجدت فإنها توجد على استحياء وتلميحا وليس علانية ، والذى يقرأ كتابات المستشرقين فى النصف الثانى من القرن الماضى مثل كتابات مونتجمرى وات ، وبرنارد لويس ، وورودى بارت ، وفان آس ، وغيرهم كثير ، لا يلحظ تحولا ملحوظا كما يرى مؤلف هذا الكتاب ، بل إن مؤلف الكتاب رغم وجود بعض الجوانب الإيجابية ورغم موضوعيته التى يدعيها فإنها موضوعية مشوبة بالحذر ، والكتاب به الكثير من الشبهات .

وإذا كان الكتاب يحمل بعض الإيجابيات ، فإنه يشمل سلبيات وشبهات كثيرة . ونحن فى هذه المقدمة لا يمكننا سرد كل الشبهات والرد عليها ، بل نقدم بعضا من هذه الشبهات ونقوم بتفنيدها ، وهدفنا من ذلك أن يكون القارئ على علم بما فى الكتاب وبأننا إذ نترجم هذا الكتاب لا يعنى أننا نوافق المؤلف فى كل آرائه ، بل أردنا أن نقدم نموذجا من الكتابات الغربية المعاصرة عن الإسلام ، وسوف يكون منهجنا فى تفنيد هذه الشبهات من خلال كتابات المستشرقين أنفسهم . والسبب الرئيسى فى اتباع هذا المنهج - من وجهة نظرى - هو أنه إذا كانت كتابات المستشرقين هى التى تثير هذه الشبهات فإن أفضل أسلوب للرد عليها كتابات المستشرقين أنفسهم لتشابه

البيئة والخلفية الفكرية والثقافية وتشابه المناهج التى يتبعها المستشرقون ، ولأن الرد عليها من خلال كتابات علماء المسلمين أو من خلال النصوص الدينية الإسلامية لا يقنع العقلية الأوروبية التى ترفض الردود المبنية على أسس دفاعية أو أسس إيمانية ، لأنهم لا يعترفون أصلا - فى معظمهم - بالوحى الإلهى لنص القرآن الكريم ، كما أنهم يشككون فى كثير من كتابات العلماء المسلمين.

فمن أبرز الشبهات التى أشار إليها المؤلف ، تلك القضية الرئيسية التى تحتل مكان الصدارة فى الدراسات الإسلامية فى الغرب ، ألا وهى قضية مصدر القرآن الكريم . وهذه القضية من القضايا المهمة فى البحث الاستشراقى قديما وحديثا . وقد اختلف المستشرقون حول مصدر القرآن الكريم ، فالبعض نادى بأن المسيحية نشأت تمهيدا لظهور الإسلام ، ومن أنصار هذا الرأى فيلهلم ردولف وريتشارد بيل وتور أندريه ، وادعوا أن القرآن استمد مادته من الكتب المسيحية . وفى مقابل هذا الفريق نجد تشارلز كولتر تورى وهينرش سباير وهوروفيتس تبنوا الأصل اليهودى للقرآن الكريم ، أما مؤلف هذا الكتاب فلم يذكر صراحة موقفه من هذه القضية ، لكنه يشير فى عبارات عامة وغامضة إلى أن القرآن استمد بعض مادته من العهد القديم والكتابات المقدسة اليهودية الأخرى ، وأحيانًا يدعى أن محمدا عرف القصص اليهودى عبر وسيط نصرانى .

وقد اعتمد المستشرقون فى ادعائهم هذه الشبهة على منهجى المطابقة والموازنة والتأثير والتأثر ، وأن الأحدث قد تأثر بالأقدم طبقا لقانون التطور التاريخى . وللرد على المستشرقين حول قضية مصدر القرآن الكريم والمناهج التى اتبعوها فإننا نشير هنا - بل نؤكد - إلى أن اليهودية والمسيحية هما اللتان تأثرتا بالإسلام وليس العكس . وأقصد بالتأثر هنا فى مجالى العقيدة والشعائر فقط وليس فى مجالات أخرى . وسأقدم هنا بعض الأدلة التى تؤكد تأثر هاتين الديانتين ، وهى أدلة قدمها المستشرقون المهتمون بدراسة هاتين الديانتين . فها هو المستشرق اليهودى نفتالى فيدر يكتب كتابا باللغة العبرية يتناول فيه تأثير الإسلام فى العبادات اليهودية ، وعنوان

الكتاب باللغة الإنجليزية : "Islamic Influences on the Jewish Worship" وصدر الكتاب فى أكسفورد (١٩٤٧) وترجم الدكتور / محمد سالم الجرح هذا الكتاب عن اللغة العبرية ونشر لأول مرة باللغة العربية بعنوان " التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية " ، ثم أعيد طبعه مرة ثانية ضمن سلسلة فضل الإسلام على اليهودية التى يصدرها مركز اللغات الشرقية بجامعة القاهرة . يقول مؤلف الكتاب فى مقدمته : " ... والمعروف من الجانب الآخر أن الديانة اليهودية تأثرت تأثرًا عظيما بالبيئة الإسلامية ؛ فقد أدت التيارات الروحية - التى غمرت هذه البيئة مئات من السنين - إلى ثورة فى الحياة الروحية لليهود المقيمين فى الأصقاع العربية ؛ إذ إن المسائل الدينية التى قتلتها المدارس الإسلامية بحثا عرفت طريقها إلى مدارس أحياء اليهود ، وقد عظم هذا التأثير أولا وقبل كل شىء فى ميدان الفكر الدينى والنظر الفلسفى ..." (١) . ثم يضيف بعد ذلك ويؤكد أن التأثير الإسلامى فى العبادات اليهودية ظهر بطريقتين : أولا - باستيعاب عادات تختص بالعبادة لا أساس لها فى التقاليد اليهودية . وثانيا - بإحياء عادات قديمة اندثرت من عند اليهود تحت تأثير أسباب معينة " (٢) . ثم يعلق على هذه النقطة بقوله : " وهنا يجدر بنا أن نشير على وجه الخصوص إلى ظاهرة مهمة وهى أن العادات التى هجرها اليهود بدافع العزلة والابتعاد عن النصرانية ارتدت ثانية إلى اليهود بتأثير من الدين الإسلامى " (٣) . ويفهم من الطريقتين اللتين أشار إليهما فيدر أن الإسلام جاء بأمور تعبدية جديدة لم تكن موجودة فى الديانة اليهودية وتبناها اليهود ، كما أن قوله بوجود عادات يهودية واندثارها ثم عودتها مرة ثانية لليهودية بتأثير من الدين الإسلامى يعنى أساسا العودة إلى الأصول التى فقدت عبر تاريخ اليهودية بابتعادها عن الوحى ، وعندما ظهر الإسلام أعلن هذه الأمور مرة ثانية من جديد فاعتنقها اليهود . وهذا يعنى كما قال مؤلف هذا الكتاب وحدة مصدر ديانات الوحى (اليهودية والمسيحية والإسلام) . وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فى غير موضع ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ و ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾. غير أن التاريخ يؤكد ابتعاد أهل الديانتين عن كتب الوحى وإقحام مادة إنسانية فيها ،

وهو ما يعرف فى الغرب باسم "نظرية مصادر الكتاب المقدس "، والتى تم تطبيقها علميا على نصى التوراة والإنجيل . ويقصد بهذه النظرية أن الكتاب المقدس لا يعود إلى مصدر واحد بل يعود إلى مصادر مختلفة ومتنوعة ، تعود إلى فترات تاريخية متنوعة ، وكتاب متعددين .

وعلى أية حال يركز كتاب فيدر بشكل أساسى على الصلاة فى اليهودية وكيف تأثرت بالصلاة عند المسلمين وبخاصة فى مجالى الحركات والاغتسال ، مثل السجود واستقبال القبلة والاصطفاف وبسط اليدين ، وغسل الرجلين واغتسال الأجناب (٤) .

وعلى المستوى العقدى نجد موسى بن ميمون عند وضعه أركان الإيمان اليهودية تأثر تأثرا واضحا فى معظمها بأركان الإيمان عند المسلمين . فاليهودية حتى عصر موسى بن ميمون لم تكن قد عرفت بناءً دينيا عقديا مرتبا ومنسقا كما عند المسلمين ، لذلك كان أول بناء عقدى متكامل منسق ومرتب وضعه ابن ميمون فيما يعرف باسم أركان الإيمان الثلاثة عشر ، والتى يظهر فيها الأثر الإسلامى بوضوح شديد (٥) . فالأصل الأول عند ابن ميمون يقول فيه " أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق تبارك اسمه ، هو الموجد والمدبر لكل المخلوقات . وهو وحده الصانع لكل شيء فيما مضى وفى الوقت الحالى وفيما سيأتى ". فهذا الركن يتنافى مع ما ورد فى التوراة من أنه " فى البدء خلق الله السموات والأرض ... " . التى لا يفهم منها بأن الله اختص بقدرة الخلق منذ الأزل وإلى أبد الآبدين ، وهذا ما أقره ابن ميمون ، وهو فى هذا الركن متأثر بما جاء فى القرآن الكريم ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ ، و ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ . ويؤكد ابن ميمون فى الركنين الثالث والرابع على أن الله لا يشبهه أحد فى وحدانيته وأنه هو الإله منذ الأزل وسيكون إلى الأبد ، وهو ليس جسما ولا تحده حدود الجسم ، وليس له شبيه . فموسى بن ميمون يخالف فى هذين الركنين ما ورد فى التوراة ، فالإله فى التوراة إله بنى إسرائيل فقط ، ولبقية الأمم والشعوب آلهتها ، وهو إله يفرح ويغضب ، والإله فى التوراة مجسد . أما ابن ميمون فيعلن هنا فى صراحة ووضوح عن وحدانية لا شبيه لها على الإطلاق وأن هذا الإله لا تحده حدود الزمان أو المكان ،

ولا شك فى أن ابن ميمون متأثر بما جاء فى القرآن الكريم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وأما المسيحية فقد تأثرت أيضا بالإسلام ، ونشير هنا إلى مثال واحد فقط حدث فى العصر الحديث ، حيث نلحظ أن المذهب البروتستانتى قد تأثر فى عقيدته وأفكاره بالدين الإسلامى تأثرا كبيرا . فالمذهب البروتستانتى ينكر استحالة العشاء الربانى ، أى استحالة تحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دم المسيح وحلولهما فى جسم المشترك فى العشاء الربانى . ومن عقائد هذا المذهب أيضا إنكار حق الكنيسة فى منح الغفران واعتبار الغفران مرتبطا بعمل الإنسان وعفو الإله وتوبة العاصى وإنكار الرهبنة لتحريمها ما هو طبيعى وحلال ، وكذلك تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها (٦) . فهذه العقائد وغيرها جذورها إسلامية . ومن ذلك : كل إنسان مسئول عن عمله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، والرهبنة بدعة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ ، وأنهم - الرهبان - كانوا يأكلون مال الناس بالباطل ليحلوا لهم ما أرادوا ويحرموا ما أرادوا ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ ، وأنهم أيضا خلعوا على أنفسهم صفات الربوبية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

ولا نقتصر فى تفنيد الشبهة السابقة - أى أخذ القرآن الكريم مادة من العهدين القديم والجديد - على أن الديانتين هما اللتان تأثرتا بالإسلام ، بل يجب علينا الإشارة أيضا إلى أن قضية البحث عن مصدر لمادة القرآن الكريم سواء كان البحث عن هذه المصادر يهوديا أو مسيحيا أو من البيئة العربية قبل الإسلام قد نشأ فى أعقاب البحث عن مصادر التوراة . وقد بدأ البحث عن مصادر التوراة بعد أن أعلن باروخ سبينوزا وقرر أن موسى لم يكتب التوراة ، لكن كتبها شخص آخر عاش بعده بمئات السنين ، ودعم هذا الرأى الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز وأضاف اللاهوتى الفرنسى إسحاق دى بريير أن التوراة لم تكن عملا واحدا كاملا ، بل إنها عمل مركب ومؤلف

من أجزاء مختلفة [٧] . ومنذ ذلك العصر بدأ الاعتقاد يتزايد بأن التوراة الحالية لا تعود إلى عصر واحد أو مؤلف واحد ، مما دعا الطبيب الفرنسى اليهودى جاك أستروك إلى إثبات أن موسى هو كاتب التوراة ، فاعترف أن موسى وجد أمامه - فى أثناء كتابة سفر التكوين - مادة مكونة من مصدرين أساسيين بالإضافة إلى عشرة مصادر ثانوية أخرى قام موسى بجمعها معًا . وكان هدف أستروك التأكيد على أن موسى هو مؤلف التوراة ، لكن هذه النظرية تطورت فيما بعد وأدت إلى عكس الاتجاه الذى تبناه [٨] . ووصلت هذه النظرية إلى ذروة تقدمها فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على يد عالم اللاهوت الإنجيلى يوليوس فلهاوزن ، الذى بلور هذه النظرية وحدد مادة كل مصدر وزمن كل مصدر من مصادر التوراة الأربعة [٩] .

لذلك يجب علينا أن نربط قضية البحث عن مصادر القرآن الكريم ـ كما يروج لها المستشرقون ـ فى العصر الحديث بهذا الاتجاه فى بحث التوراة ، فقد حاول المستشرقون تطبيق نظرية مصادر العهد القديم على نص القرآن الكريم . وفى ضوء هذه النظرية نفسها يمكننا أن نفند آراء المستشرقين حول مصدر القرآن الكريم على النحو التالى :

أولا ـ نلاحظ أن علماء العهد القديم المتدينين والعلمانيين فى الغرب قد توصلوا إلى أن التوراة فى صورتها الحالية تعود إلى أربعة مصادر رئيسية هى : اليهوى والإلوهيمى والتثنوى والكهنوتى . مقابل ذلك نجد المستشرقين المهتمين بدراسة مصادر القرآن الكريم لم يتفقوا حتى الآن حول المصادر التى أخذ منها القرآن الكريم ، فاختلافهم حول المصدر الذى أخذ عنه القرآن الكريم مقابل اتفاقهم حول تعدد مصادر التوراة ، يؤكد قدسية النص القرآنى ، وأنه نص وحى وليس نصا بشريا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

ثانيا ـ إن اختلاف علماء نظرية مصادر التوراة فى تحديد زمن كل مصدر من هذه المصادر مقابل تأكيدهم أن القرآن دون فى عصر النبى ، دليل آخر على قدسية نص القرآن الكريم ، وأنه نص وحى .

ثالثا ـ إن نظرية مصادر التوراة قامت أساسا على الاختلافات اللغوية والأسلوبية واختلاف الرؤى الدينية والتاريخية والفكرية ، وأن هذه الاختلافات تعبر عن رؤى مذهبية مختلفة فى الزمان والمكان حول الحدث الدينى أو التاريخى الواحد . وهذا ما لم يستطع المستشرقون إثباته فى نص القرآن الكريم ، وهذا دليل أيضا على قدسية النص القرآنى.

رابعا ـ إن فلهاوزن رائد علم نقد العهد القديم فى العصر الحديث كان عالم دراسات يهودية ومسيحية وإسلامية ، فبلورته لنظرية مصادر التوراة . وصمته المطبق على قضية أصل القرآن الكريم ، يعد دليلا استشراقيا على رفض ادعاءات المستشرقين الآخرين .

خامسا ـ إن مؤلف هذا الكتاب قد أكد أن النصرانية لم تكن قد تمكنت من تثبيت قدمها فى الحجاز ، ولم يحدث فيها أى أعمال نشر للمسيحية ، كما أكد أيضا عدم وجود أى يهودى فى مكة ، وأن يهود يثرب / المدينة المنورة كما أشار إسرائيل ولفنسون كان وضعهم الثقافى والدينى ضئيلاً جدا ، بل يكاد يكون منعدما . وكل هذا يؤكد أن القرآن الكريم نص مقدس ولم تدخله مصادر بشرية .

سادسا ـ يؤكد بوسه أن وجود تطابق بين الكتب المقدسة ـ اليهودية والمسيحية والإسلامية ـ نابع من افتراض وجود نص سماوى أصلى ، ومن هذا النص السماوى نقلت الكتب المقدسة للجماعات الدينية والشعوب المختلفة . ونضيف إلى رأى بوسه أن الفرق بين التوراة والقرآن الكريم ، أن التوراة اختلطت فيها الشروح البشرية بالنص الدينى ، خاصة أنها ظلت تتناقل شفويا من عصر موسى عليه السلام وحتى عصر عزرا الكاتب (منتصف القرن السادس قبل الميلاد) ثم كان عمل الكتبة (من عصر عزرا الكاتب حتى ٥٠٠ م) ـ فأبعد النص عن أصله السماوى ، وهذا ما لا نلاحظه فى نص القرآن الكريم حيث نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تدوين أى شىء بجانب نص القرآن الكريم .

أما الشبهة الثانية التى نعرض لها فهى شبهة الحديث عن الموازنات والمطابقات بين القصص فى القرآن الكريم ومثيلاتها فى العهدين القديم والجديد . ومن هذه القصص قصة الخلق والطوفان وإبراهيم ويوسف وموسى وداود وميلاد المسيح وصلبه . فالملاحظ أن بوسه فى عرضه لهذه القصص كان يجمع كل ما ورد فى القرآن الكريم عن كل قصة من القصص ويحاول أن يربط بينها ، ويعطى التبريرات والتعليلات التى أدت إلى ذكر هذه القصص ، ثم يدعى أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) قد عرفها من مصادرها الأساسية - اليهودية أو المسيحية - ثم يشير إلى أن الاختلاف بين القرآن الكريم وكتب اليهود والمسيحيين إما أن يكون ناتجاً عن عدم فهم النبى لنصوص اليهود أو المسيحيين ، وإما أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم قام بتحوير أو تعديل الروايات لتناسب رؤيته .

وللرد على هذه الشبهة نعتمد على أقوال المؤلف نفسه ، ثم أقوال أقرانه من المستشرقين ، وأخيرا علم نقد الكتاب المقدس .

أولا - أشار بوسه فى غير موضع إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبى ، فلماذا إذن يبعد عنه صفة تلقى الوحى ؟ وهل الوحى كان قاصرا على أنبياء العهد القديم وعيسى ، ثم انقطع ؟ . إن هذه الفكرة نابعة من العنصرية الأوروبية التى تستمد جذورها من عنصرية العهد القديم أحد مكونات الثقافة الغربية .

ثانيا - أشار بوسه إلى أن هناك مصدرا أصليا لكتابات الوحى ، فلماذا إذن يأخذ النبى ويحور ويعدل فى روايته ؟ ولماذا لا يكون ما ذكره النبى معبرا تعبيرا أصيلا وصادقا عن النص الأصلى ؟ أو أن كتبهم هى المعبرة عن النص الأصلى ، وما عاداها مأخوذ مقتبس منها ؟!!! .

ثالثا - من نصدق من المستشرقين : أنصدق بوسه الذى يرى أن النبى عرف ما ورد فى العهد القديم من خلال وسيط نصرانى ، وركز فى دراسته على الموازنات والمطابقات مع نص العهد القديم فقط ؟ أم نصدق جايجر وكاتش اللذين يضمان إلى العهد القديم مصادر يهودية أخرى كالمدراشيم وأقوال التلمود ؟ أم نصدق العلماء

المسيحيين الذين يرون أن القصص القرآنى مستمد من الكتب المسيحية ؟ والسؤال الآن : هل كانت المصادر اليهودية والمسيحية مترجمة إلى اللغة العربية ؟ وهل استطاع النبى أن يقرأ كل هذه المصادر ليعدل ويحور ؟!!! إن هذا الاختلاف بين المستشرقين يؤكد وحدة النص القرآنى ، وأن هذا المصدر هو الوحى الإلهى .

رابعا - إن قصص العهد القديم لا تنتمى إلى مصدر واحد من مصادر التوراة ، فمثلا روايتا الخلق والطوفان تنتميان إلى مصدرين مختلفين هما المصدر الكهنوتى والمصدر اليهوى ، كما أن الروايات من إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام (أى روايات سفرى التكوين والخروج) تنتمى إلى ثلاثة من مصادر التوراة هى المصدر اليهوى والمصدر الإلوهيمى والمصدر الكهنوتى ، والروايات من عصر يشوع وحتى داود وسليمان عليهما السلام (من سفر يشوع وحتى سفر الملوك) يغلب عليها الطابع التثنوى مع وجود بعض التأثيرات اليهوية والإلوهيمية . كما أن الأناجيل الأربعة هى الأخرى تنتمى إلى مصادر وأزمنة مختلفة . فالسؤال الآن : أى مصدر من هذه المصادر يمكن أن نقارنه بقصص القرآن الكريم ؟ فكثير من قصص العهد القديم والعهد الجديد تنتمى إلى أكثر من مصدر ، وبين المصادر اختلافات فكرية ودينية ولاهوتية وأسلوبية ، كما أنها تعود إلى أزمنة مختلفة . المقارنة هنا إذن غير موضوعية أو غير علمية لأننا نتحدث عن قصص وروايات متعددة فى العهد القديم والعهد الجديد تعود إلى أكثر من مؤلف . والخطأ بين المستشرقين المهتمين بعمل الموازنات والمطابقات أنهم يتجاهلون عن عمد وقصد جهد زملائهم المشتغلين بنقد الكتاب المقدس الذين استطاعوا أن يميزوا بين مصادر العهدين القديم والجديد .

ونحن لا نشك فى وجود تشابه بين قصص وبعض عقائد العهد القديم ، وهذا التشابه ناتج - فى رأينا - عن وحدة المصدر ، وهو الوحى ، وليس ناتجا عن أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أخذ عن أحد ، وقد فندنا شبه الأخذ من قبل . لكن يجب أن أؤكد هنا أنه - عند الحديث عن وجود تشابه - يجب أولا فصل قصص العهدين القديم والجديد وردها إلى مصادرها الأصلية ، ثم مقارنة مادة كل مصدر من هذه المصادر

بما ورد فى القـرآن الكـريم ، والمصدر الذى يتفق مع نص القرآن الكريم لفظا ومعنى أو لفظا فقط أو معنى فحسب هو من بقايا الوحى فى العهد القديم أو العهد الجديد ، أى أننا نهدف فى هذه الحالة إلى التعرف على بقايا الوحى فى العهد القديم والعهد الجديد بعد أن اختلطت المادة الدينية ـ مادة الوحى ـ بالمادة البشرية فيهما . وكلما كان المصدر بعيدا عن النص القرآنى كان ذلك دليلا على أنه ليس من بقايا الوحى ، بل من عمل مدونى العهدين القديم والجديد . وقد رسم لنا ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشهور :" إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ، ولكن قولوا ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

بالإضافة إلى ما سبق تجب الإشارة أيضا إلى أنه كما أن علماء الغرب لا يزالون مختلفين حول أصل اللغات العربية (السامية) مع ترجيحهم بأن اللغة العربية هى أقرب اللغات إلى اللغة الأم ؛ كذلك فإن اختلافهم حول مصدر القرآن الكريم مع اعتقادهم فى تعدد مصادر العهدين القديم والجديد لهو دليل على صدق نص القرآن الكريم ، وأنه النص الأصلى الذى لم تدخله أية إضافات أو تغييرات أو تعديلات ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

وقبل أن أنهى هذا التقديم ، أود أن أشير إلى عدة نقاط :

١ - أننى فضلت ترجمة عنوان الكتاب " أسس الحوار فى القرآن الكريم : دراسة فى علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية " بدلا من ترجمته " علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية : أسس الحوار فى القرآن والوضع الراهن "، وذلك لأن علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية طبقًا لنص القرآن الكريم قائمة على أساس الحوار ، وأن الحوار هو الذى يؤدى إلى معرفة العلاقة بين الإسلام واليهودية والمسيحية ، وليس العكس ، وأن ما ينادى به الغرب حاليًا من حوار بين الأديان جذوره إسلامية موجودة فى القرآن ، أما اليهودية والمسيحية ، فلا يوجد فى كتبهما ما يدعو إلى الحوار أو الاعتراف بالآخر ، وذلك على عكس القرآن الكريم الذى يأمرنا بتصديق الأنبياء السابقين على ظهور النبى محمد والإيمان بكتبهم ، رغم ابتعادها عن مصدرها الإلهى .

٢ ـ أن ما وضع بين قوسين ( ) فى أثناء ذكر الآيات القرآنية هو من عمل المؤلف ، وأردت المحافظة عليه ، كما أننى كثيرا ما وضعت ـ كما يذكر القرآن ، أو يشير ، أو يخبر ـ بمثابة جملة اعتراضية بعد استخدام المؤلف عبارة يقول محمد .

٣ ـ أن الذى دفعنى لترجمة هذا الكتاب سببان ، الأول : تفنيد ادعاء المستشرقين الموضوعية والعلمية فى الكتابة عن الإسلام ، ونوضح أن كتابات العصر الوسيط عن الإسلام لا تزال سائدة فى كتابات المستشرقين ، لكن تنوعت الأساليب والمناهج فقط ، أما الهدف فلا يزال هو نفسه ، أى محاربة الإسلام ، وهذا الكتاب نموذج من النماذج الاستشراقية التى لا تزال تمتلئ بخرافات وأساطير الماضى حول الإسلام ونبيه، ولم يستطع المؤلف التخلص من شبهات المستشرقين القدامى رغم موضوعيته التى حاول أن يبرزها ، ولكنها موضوعية على استحياء. والسبب الثانى : الرد على المنبهرين بالاستشراق والمستشرقين ومناهجهم والسير فى ركابهم ونقل أفكارهم وتكرارها.

وأود أن أغتنم هذه الفرصة لأعرب عن شكرى وتقديرى لأستاذى وأخى الكريم الأستاذ الدكتور عمر صابر عبد الجليل ، الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، على تفضله بمراجعة هذا الكتاب وملاحظاته القيمة التى أفدت منها كثيرا .

وأخيرا ـ وليس آخرا ـ أتقدم بكل الشكر والتقدير لأستاذى العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن على ملاحظاته وآرائه التى كان لها كبير الأثر فى ظهور هذه الترجمة . كما أشكر المجلس الأعلى للثقافة على نشره هذا الكتاب . وأسأل الله أن يهدينا ويرشدنا إلى الصواب .

والله ولى التوفيق

أحمد محمود هويدى

الهوامش

(١) نفتالى فيدر : التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية ، ترجمة : محمد سالم الجرح ، سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية ، (ع ١) ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة (٢٠٠٠)، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١١ ـ ١٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٢ .

(٤) المصدر السابق : ص٢١ ، ٢٤ ، ٣٨ – ٣٩ .

(٥) محمد خليفة حسن : تاريخ الديانة اليهودية ، دار الثقافة العربية ، ص ٢٠١ .

حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه ، مكتبة سعيد رأفت ، ص ١٥٩ – ١٦٤ .

(٦) الإمام محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ، مكتبة وهبه ، ص ٢٠٥ .

محمد خليفة حسن : تاريخ الأديان ؛ دراسة وصفية مقارنة ، القاهرة – ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٦ .

(٧) زالمان شازار : تاريخ نقد العهد القديم منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، ترجمة : أحمد محمود هويدى ، مراجعة : محمد خليفة حسن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ٩٣ – ١٠١ .

(٨) المصدر السابق : ص ١٠٥ – ١٠٧ .

(٩) المصدر السابق : ص ١٤٢ – ١٤٥ .

مقدمة

انتصر الإسلام على الوثنية العربية . ومنذ البدء كانت له صلة وثيقة باليهودية والمسيحية، ومن ثم اضطر إلى الدخول فى جدل مع هاتين الديانتين، وكنتاج لمسيرة طويلة مثبتة من التطور استمرت أكثر من عقدين ، استطاع النبى محمد (ﷺ) أن يرسى دينا أبديا، وأن يحدد موقفه تجاه اليهود نظريا وتطبيقيا. وفى "القرآن الكريم" أدلة على ذلك بأساليب متنوعة : بعضها أخبار تتصل بقضايا عقدية ، وبعضها الآخر روايات لها صلة بالعهدين القديم والجديد ، أو ذات صلة بمعارف هذين الكتابين . وقد ظهرت لتعرض تاريخ الوحى الإلهى ، أو شرح تعاليم خاصة عن طريق أمثلة من التاريخ المقدس. وعلاوة على ذلك يوجد فى "القرآن الكريم" أخبار عن الوضع الشرعى لليهود والنصارى ، وقواعد الحياة المشتركة للمسلمين مع أهل العقائد الأخرى . وعلى هذا الأساس تم رسم الشرائع ، وتطورت أنماط السلوك النموذجية ، وعلى أساسها عامل المسلمون اليهود والنصارى فى مجال سلطانهم ، وتشكلت بذلك علاقاتهم بالدول المسيحية ، وذلك بعد أن صار المسلمون أصحاب دولة . وكل ذلك لايزال قائما حتى اليوم من الناحية النظرية . أما فى الواقع فقد حدثت بعض التغيرات بتأثير الفكر المعاصر. أما فى نطاق إعادة نشر الدعوة الإسلامية ، فالمسلمون أكثر استعدادا للعودة إلى النموذج القديم ، أى العودة إلى المبادئ الأصلية المناسبة .

ولم يتسامح المسلمون مع اليهود والنصارى الموجودين تحت سلطانهم فقط، بل تم الاعتراف رسميا بالشرائع المطبوعة بطابع الوحى ، على الرغم من أن العلاقات المتبادلة بين دول العالم النصرانى والعالم الإسلامى طبعت بطابع الصراع العسكرى لقرون طويلة . ونظر المسلمون إلى الحرب ضد الكفار على أنها واجب مقدس [جهاد] .

وروج النصارى بأسلوب مشابه للصراع ضد السلطات الإسلامية على أنه - وحتى العصر الحاضر - مطلب ديني . علاوة على ذلك دارت مساع من الجانبين لمحاربة الخصم بسلاح الفكر . فمن ناحية النصارى اعتُقد لفترة طويلة أنه يمكن التغلب على المسلمين عن طريق الأنشطة التنصيرية . ولكن مع تزايد معرفة كل طرف بالآخر تطور إدراك الأسس والمطالب المشتركة . وهكذا انتهى الطريق بعد المواجهات العسكرية والجدل الديني إلى التنصير وأخيرا إلى الحوار. وقد كان الحوار أولا بين المسلمين والنصارى ، وفيما بعد بين النصارى واليهود. ويعد الحوار الثلاثي المرحلة النهائية المنطقية ، وكذلك محادثات الصداقة ، ومخاطبة كل واحد من الأديان الثلاثة على حدة للدينين الآخرين.

وقد أثارت الأخبار القرآنية ووجود اليهود والنصارى في هذا النطاق اهتمام المسلمين الدائم بالديانتين . وتمكن المسلمون من عمل ذلك بدون تحيز نسبيا لأنهم نظروا إلى الإسلام على أنه يمثل ختام الوحي ونهايته ، بينما نظر اليهود والنصارى معًا إلى الإسلام على أنه لا حاجة له من البداية، وكان الحكم مسيئا للغاية ومعدا بخبث لا حياد فيه . وكان الحكم النصراني على الإسلام مشوها طوال العصر الوسيط ، وحتى بداية العصر الحديث ، وكثيرا ما كان بأسلوب مشوش للغاية (١) . وفي بداية عصر النهضة بدأ تحول في صورة الإسلام . ففي القرن التاسع عشر نشأ ، كثمرة للاهتمام الأساسي الدائر حول علم "الكتاب المقدس"، اهتمام بالشرق واللغات الشرقية والدراسات الإسلامية باعتبار أنها تمثل تخصصا أكاديميا ثابتا . وساهم ذلك في تمهيد الطريق للحوار بين الأديان بصورة جوهرية ، حتى وإن شاب ذلك في الماضي بعض الأخطاء وسوء الفهم . وأسهم علم "الدراسات اليهودية" الذي ازدهر في ألمانيا بدور تمهيدي مشابه بغية الحوار بين اليهودية والنصرانية ثم الحوار مع الإسلام. وفي ضوء الرؤية التاريخية السائدة في العلوم الإنسانية برزت في الصدارة قضية مصادر "القرآن الكريم" والإسلام. واعتُقد أنه من أجل فهم أفضل للإسلام ينبغي بحثه في نطاق صلته بديانات الوحي الأقدم منه. فاهتم علماء مثل يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٤) (Julius Wellhausen) وتيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠) (Th.Noeldeke) ، بفتح

الطريق للاهتمام بـ : تاريخ صدر الإسلام . وقدم فلهاوزن قدم أبحاثا لا تزال صالحة حتى الآن حول الوثنية العربية القديمة ، والمدينة قبل الإسلام ، وتنظيم محمد (ﷺ) للأمة فى المدينة، وعلاقاته بالسلطات الخارجية . أما نولدكه فقد نجح فى وضع أسس التأريخ للقرآن الكريم (٢) .

وترجع نشأة فلهاوزن إلى اللاهوت الإنجيلى ، وكان متحفظا فى الرد على قضية أصل الإسلام . وغالبا ما توصل علماء يهود إلى نتيجة مفادها : النظر إلى الإسلام باعتبار أنه بقايا مشوهة لليهودية (٣) . كما أشار أدولف فون هرنك (Adolf von Harnac) معترفا بأن الإسلام فرقة نصرانية . وبعد الحرب العالمية الأولى نادى العديد من العلماء النصارى بنظرية أن النصرانية نشأت تمهيدا للإسلام . ومن أهم هؤلاء العلماء : فيلهلم ردولف (Wilhelm Rudolf) (٤) ، وريتشارد بل (Richard Bell) (٥) ، وتور أندريه (Tor Andrae) (٦) ، وكارل آهرنس (Karl Ahrnes) (٧) . وعارض هذه المجموعة: تشارلز كولتر تورى (Charles Culter Torrey) (٨) ، الذى تبنى فى هذا المضمار نظرية الأصل اليهودى الخالص للإسلام ، وذلك رغم أنه لم يكن يهوديا . ووُجِد من بين هؤلاء أيضا فى الفترة نفسها علماء سعوا إلى الإنصاف ، ومن هؤلاء ى. هوروفيتس (J.Horovitz) (٩) ، وهينرش سباير (H.Speyer) (١٠) .

وقد كتبت العديد من سير النبى محمد (ﷺ) مقارنة بالمحاولات التى اهتمت بمعرفة مصدر "القرآن الكريم" . ونختار هنا الأعمال التى حظيت بشهرة ، وهى أعمال : فرانتز بول (Frantz Buhl) (١١) ، وتور أندريه (١٢) ، ورودى بارت (Rudi Paret) (١٣) .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغيرت الصورة كلية إذ طرأ على الفور اهتمام بالحوار مع الإسلام ، وذلك بتأثير الاستعدادات الشخصية فى الثلاثينيات، فى الدوائر اللاهوتية الكنسية . وقد توارت تماما أفكار التنصير وفكرة تغيير الدين. وأصدر مجمع الفاتيكان الثانى عام (١٩٦٥)، بيانا حول العلاقات بالديانات غير النصرانية "Nostra Aetate" وأبدى هذا البيان الاحترام التام للإسلام وحدد من جديد موقف الكنيسة من اليهودية . وعبرت عن ذلك كنائس أخرى فى بيانات رسمية بأساليب مشابهة ، وعقدت

اجتماعات ومؤتمرات وحلقات دراسية على مستويات مختلفة لتحقيق الحوار. وطرح علماء اللاهوت وعلماء الدراسات الإسلامية قضية الحوار باشتراك الديانتين أو الديانات الثلاث . وبادر بذلك يوزف هيننجر (Joseph Henninger) بسلسلة من المقالات التى تراوحت بين الأعمال المختصرة والأعمال المسهبة ، التى صدرت فى كتاب بعنوان: "حقائق العقائد المسيحية فى الإسلام "(١٩٥١) . ومن حيث الذيوع والشهرة تعد أعمال كل من دينس ماسون (Denise Masson) (١٤) وى. يومير (J.Jomir) (١٥) ويواكيم مبارك (Youakim Moubarac) (١٦) ، ولودفج هجمان (Ludwig Hegmann) (١٧) الأكثر شهرة . وينبغى لنا أن نشير هنا أيضا إلى فالتر بيلتس (Walter Beltz) (١٨) . وعن قضية الحوار وإمكانيته بين الديانات الثلاث برزت أعمال ف. أ. بيتر (F.E.Peter) (١٩) ، و ف. شترولس (F.Strolz) (٢٠) . وإذا أردنا الإحصاء فالقائمة طويلة حول هذا الموضوع .

وبرزت دائما شخصية عيسى (عليه السلام) فى بؤرة المناظرات والحوارات. وعدد المؤلفات والأعمال المعالجة لهذا الموضوع كثيرة . والببليوجرافيا التى صدرت حديثا لـ : دوم فيسمر (Dom Wismer) (٢١) أحصت المؤلفات التى صدرت منذ عام (١٦٥٠) باللغتين الإنجليزية والفرنسية فقط (بعضها لمسلمين) ترجمت من اللغات الشرقية بلغت أكثر من (٦٢٧) مؤلفا باستثناء ترجمات "القرآن الكريم" . وكتاب آخر مهم صدر فى السنوات العشر الأخيرة لعالم العهد الجديد الفينلندى هيكى ريزينن (Heikki Rae-saenen) (٢٢) يقف فيه موقف الشك، وهو يستفسر من "القرآن الكريم" عن تحريم المأثور الإسلامى ما قاله محمد (ﷺ) حول عيسى عليه السلام وماذا قصد بذلك ؟ ولماذا قال هذا ؟ ولماذا لم يقل ذلك ؟ وهو يعرض حياة عيسى عليه السلام فى ضوء "القرآن الكريم" ، ويعالج سلسلة من الموضوعات الخاصة مثل : (تعاليم وتقوى المسيح، مسحه ورفعه ... إلخ) ويختتم مؤلفه بوصف الجدل العقدى كما وصل فى "القرآن الكريم" حول طبيعة وبعثة المسيح ، ويقتصر المؤلف تماما على التفسير الباطنى لنص "القرآن الكريم" (٢٣) .

واستكمالا لهذه الرؤية السريعة ينبغى لنا أن نتناول النظرية التى وضعها باتريكا كرونى (Patricia Crone) وميشائيل كوك (Michael Cook) [٢٤] إذ اعتمادا على مصادر يهودية ونصرانية ، احتل تاريخ هرقل الذى كتبه الأسقف سبيوس (Sebeos) بعد عام (٦٦١) بفترة قصيرة مكانة بارزة من بين تلك المصادر ، فرسمت صورة جديدة تماما . وهذه الصورة هى : أن الإسلام ظهر كحلقة اتصال لحركة تبشير يهودية مع العرب أحفاد إبراهيم عليه السلام من هاجر . وهدف "دين إبراهيم" إلى ربط العرب أو الهاجريين باليهود. وكان المسلمون فى بادئ الأمر معادين مغالين للنصرانية ، ولكنهم فيما بعد اتخذوا موقفا وديا مع النصرانية ، لأنهم حاولوا الانفصال عن اليهود وتحقيق الاستقلال الذاتى. و"القرآن الكريم" فى شكله الحالى لم يتكون قبل نهاية القرن السابع الميلادى . وهكذا انحاز المؤلفان للنظرية التى وضعها جون فانسبروج (John Wansbroug) [٢٥] : وهى أن "القرآن الكريم" لم يجمع فى عصر الخليفة عثمان (رضى الله عنه) (حكم ٦٤٤- ٦٥٦) كما هو متفق عليه الآن وباستمرار فى البحث الغربى على أثر التراث الإسلامى ، ولكن النص الماثل بين أيدينا الآن جمع من أجزاء متناثرة متأخرة عن ذلك الوقت بكثير . الأمر الذى أتاح لهم تصور أن "القرآن الكريم" ورد متطورا ، وأنه نتاج تفسير متأخر.

نحن نتخلى بهدوء عن نظرية فانسبروج ونقبل النظرية القائلة بأن "القرآن الكريم" قد أكمل فى عصر محمد (ﷺ) ، وأنه أخذ الصورة التى هو عليها الآن بعد حوالى عقد ونصف من وفاته . والترجمة هنا مقتبسة من ترجمة رودى بارت [٢٦] . وبالإضافة إلى "القرآن الكريم" يُعد التراث الإسلامى حول حياة محمد (ﷺ) ذا أهمية كبيرة بالنسبة لنا وأن المادة العربية نجدها فى ترجمة إيطالية للمؤلف التذكارى لليون كيتانى (Leone Caetani) [٢٧] . وأن سيرة النبى لابن إسحاق التى وصلت إلينا بمعالجة ابن هشام (ت. ٨٣٠ م) [٢٨] تشمل أخبارا جوهرية ومهمة حول موقف محمد (ﷺ) من اليهود والنصارى ، وتزودنا بمواقف خاصة ترتبط بترتيب آيات قرآنية خاصة وبمواقف ملموسة محددة فى حياة النبى (ﷺ) . وإن هذا العمل قد تمت كتابته فى ضوء صورة النبى محمد (ﷺ) التاريخية ، وذلك فى ضوء مقارنتها بصورة المسيح فى الأناجيل [٢٩] .

الهوامش

(١) قارن Norman Daniel : Islam and the West , Edinburg 1960(3.Auf. 1966) ورؤية عامة حول الدراسات الإسلامية فى الغرب من بدايتها وحتى الآن قدمها مونتجمرى وات فى : Der Islam 1 شتوتجارت / برلين / كولونيا ، ماينس ، ١٩٨٠، (فى أديان البشرية Die Religionen der Menschheit) المجلد ٢٥/ ١ ص. ١٧-٣٨ .

(٢) انظر (Geschichte des Qrans) تاريخ "القرآن الكريم" ، جوتنجن ١٨٦٠ . وتم تنقيح العمل وأعاد ترتيبه فى ثلاثة مجلدات فريدرش شفاللى تلميذ نولدكه هى : (Ueber den Ursprung des Qorans)، ليبتسج ١٩٠٩ ؛ (Die Sammlung des Qorans) ، ليبتسج ١٩١٩ ؛ (Die Geschichte des Korantextes) (بالاشتراك مع أوتو بريتسل) ، ليبتسج ١٩٣٨ .

(٣) نذكر من بين هؤلاء : أبراهام جايجر ، فى دراسته (Was hat Mohammed aus dem Judentum aufgenommen ?) ، ليبتسج ١٩٠٢؛ و أبراهام كاتش فى دراسته : (Judaism in Islam . Biblical and Talmudic Backgrounds of the Koran and its Commentaries , Suras 11and 111 نيويورك ١٩٥٤، أعيد طبعه عام ١٩٦٢ بعنوان: (Judaism and the Koran) .

(٤) (Wilhelm Rudoplph : Die Abhaengigkeit des Qorans von Judentum und Christentum ، شتوتجارت ١٩٦٢ . (يجب ألا ينخدع المرء من العنوان ، حيث يبرز رودولف تبعية "القرآن الكريم" للنصرانية) .

(٥) Richard Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, ، لندن ١٩٢٦، أعيد طبعه ١٩٦٨ .

(٦) Tor Andrae : Der Ursprung des Islams und das Christentum أوبسالا، ستوكهولم ١٩٢٦ .

(٧) Karl Ahrens : Christliches im Qoran ، فى: مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية ، عدد٨٤ (١٩٣٠) ، ص. ١٥-٦٨، ١٤٨-١٩٠ .

(٨) Charles Cutler Torry ، ١٩٣٣ (أعيد طبعه ومقدمة من فرانتز روزنتال ، نيويورك ١٩٦٧).

(٩) Joseph Horovitz : Koranische Untersuchungen ، برلين / ليبتسج ١٩٢٩ .

(١٠) Heinrich Speyer : Die biblischen Erzaehlungen im Qoran ، رسالة دكتوراه ، فرانكفورت على الماينس ١٩٢١ (الطبعة الثالثة غير معدلة هيلدسهايم ١٩٧١).

(١١) Frants Buhl: Das Leben Muhammeds ، النسخة الألمانية ترجمة هـ . هـ. شيدر ، ليبتسج ١٩٣٠ (أعيد طبعها هايدلبرج ١٩٥٥).

(١٢) Tor Andrae : Mohammed sein Leben und sein Glaube ، جوتنجن ١٩٣٢ .

(١٣) Rudi Paret : Mohammed und der Koran . Geschichte und Verkuendigung des arabischen Propheten ، الطبعة الخامسة معدلة ، شتوتجارت , ١٩٨٠ ويشمل عمل مونتجمرى وات (Muhammad at Mecca) أكسفورد ١٩٥٣، وكذلك عمله (Muhammad at Medina) ، أكسفورد ١٩٥٦ . مادة ببليوجرافية غنية ، وتم نقد مادة تلك المصادر نقدا شديدا على سبيل المثال أقوال محمد بتحريم قتل الأطفال ، انظر : (Muhammad at Medina) ص ٢٧٠ وما بعدها . ويقدم ماكسيم رودنسون رؤية فى قراءة متأنية حول تاريخ بحث حياة محمد فى دراسته : (Maxime Rodinson : Bilan des e`tudes mohammadiennes , in: Revue historique 229 (1963) S. 169-220

(١٤) Denise Masson : Le Coran et la revelation judeo-chretienne, etudes comparees مجلدان باريس ١٩٥٨ .

(١٥) Jacques Jomier : Biblel und Koran, hrsg. Vom Klosterneuburger Bibelapostolat كلوسترنيبورج ١٩٦٢ .

(١٦) Youakim Moubarac: Pentalogie islamo- chretienne .

(١٧) Ludwig Hagemann : Propheten - Zeugen des Glaubens. Koranische und biblische Deutungen , Graz/Wien/Koeln 1985.

(١٨) Walter Beltz: Die Mythen des Korans , der Schluessel zum Islam , Berlin/ Weimar 1979.

(١٩) F.E. Peters: Chlidren of Abraham. Judaism, Christianity, Islam, Princeton UP 1982.

(٢٠) Walter Strolz : Heilswege der Weltreligionen, Bd.1: Christliche Begegnung mit Judentum und Islam , Freiburg/Basel/ Wien 1984.

(٢١) Don Wismer(Hrsg), The Islamic Jesus. An Annotated Bibliography of Sources in English and French , New York / London 1977.

(٢٢) Heikki Raeisaenen , Das koranische Jesusbild . Ein Beitrag zur Theologie des Korans, Helsinki1971

(٢٣) ...., The Portrait of Jesus in thr Qur'an : Reflections of a Biblical Scholar, in : The Muslim World 70 (1980), S. 122-133.

(٢٤) Patricia Crone u. Michael Cook, Hagarism. The Making of Islamic World, Cambridge UP1977.

(٢٥) John Wansbrough, Quranic Studies. Sources and Methods of Scriptural Interpretation, Oxford1977.

(٢٦) Der Koran .Uebersetzung von Rudi Paret , Stuttgart/Berlin/ Koeln/Mainz 1962 . وانظر Ueberarbeitete Taschenbuchausgabe, Stuttgart/Berlin/Koeln/Mainz1979, للمؤلف نفسه / Der Koran . Kommentar und Konkordanz, 2.Auflage, Stuttgart/Berlin Koeln/Mainz1977.

(٢٧) Leon Caetani, Annali dell'Islam,10Bde.Mailand 1905

(٢٨) Ibn Ishaq, The Life of Muhammad . A translation of Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah, مزودة بمقدمة وملاحظات من .A.Guillaume, Oxford UP1955 (5.Auflage 1978) الترجمة الألمانية لـ Ferdinand Wuestenfeld, Das Leben Muhmmad's, 2in 3Bbd., Goettingen 1858-1860 (Neudruck 1961). ثم ترجمة مختارة لـ : Ibn Ishaq . Das Leben des Pro- pheten. Aus dem Arabischen uebertragen und bearbeitet von Gernot Rotter, Tuebingen / Basel 1976 (Bibliothek Arabischer Klassiker, Erster Band)

(٢٩) انظر تحليل أدبي وتاريخي شامل في : Rudolf Stellheim ; Prophet , Chalif und Geschich- te . Die Muhammed - Biographie des Ibn Ishaq, in ; Oriens 18-19(1967) S. 33-91.

الوضع الدينى فى شبه الجزيرة العربية حتى عصر النبى محمد (ﷺ)

أولا - البيئة السياسية والدينية

عندما بدأ النبى محمد (ﷺ) - المولود وفقا للمأثور بعد سنة (٥٧٠م) فى مكة والمتوفى فى المدينة (٦٣٢) - الدعوة الإسلامية ، وضع شبه جزيرة العرب فى مجال تأثير تيارات دينية ذات أنماط مختلفة وقوية . وكانت النصرانية هى الديانة السائدة فى منطقة حوض البحر المتوسط ، وانتشرت من هناك إلى : شرق أفريقيا ، وبلاد النهرين ، وفارس ، والهند . ويلى النصرانية الزرادشتية التى ازدهرت طويلا بعد عصر محمد (ﷺ) . وكانت قد لاقت فى الواقع نهضة فى العصر الساسانى حتى إنها صارت الدين الرسمى للفرس . وبغزو الفرس سوريا ومصر (٦٥١) نجحوا فى اختراق البحر المتوسط ، وقبل فتح محمد (ﷺ) مكة بعامين تسبب القيصر هرقل (٦٢٨) فى إحداث تغير باستعادة المناطق التى فُقدت عن طريق الغزو ، ووصل إلى بلاد النهرين . وهذه الصراعات التى تطاحنت فيها الإمبراطوريتان أدت إلى تمهيد الطريق للعرب . والزرادشتية لم تكن ديانة تبشير، لذلك ارتبطت بإيران القديمة وارتضت عدم الاهتمام بموقف الدفاع عن زوال الإمبراطورية الساسانية ، وانحسر التطور فى فارس واستمر حتى القرن العاشر . وصارت اليهودية فى موقف حرج فى الإمبراطورية الرومانية بعد أن تحولت إلى النصرانية. وربما كانت أقل خطرا تحت حكم الساسانيين . وبقيت اليهودية قوية ويعمل لها حساب فى المناطق المتطرفة حيث لم تكن قد تغلبت النصرانية بعد .

وبالإضافة إلى الطوائف الدينية الكبرى وُجدت مجموعات وطوائف طُبعت بطابع الغنوصية التى انتشرت إلى حد كبير ، واستطاعت أن تعتمد بين فترة وأخرى على أنصار كثيرين . ويدخل فى ذلك المانوية المتفقة معها فى عناصر متنوعة الأسلوب والتى اتصفت دائما بقدرة تبشيرية كبيرة . وكانت لا تزال توجد آنذاك فى بلاد النهرين عبادة وثنية متفرقة. وعاشت فى جنوب بلاد النهرين طائفة المعمدان المانوية فى حماية السهول الخصبة من هجوم النصرانية والزرادشتية . وأثرت كل هذه القوى فى شبه الجزيرة العربية ، وكان لها تأثيرات مختلفة هناك . واصطدمت بالسكان الذين كانوا لا يزالون فى الوثنية ، فى حين أوشكت شريعة دينية جديدة على الظهور . وكانت المناطق الجنوبية من بلاد العرب مضطربة للغاية . وفى أقل من قرنين من الزمان وعلى أثر تلك التغيرات السياسية والاقتصادية شملت المناطق الجنوبية من بلاد العرب موجات نصرانية ويهودية وزرادشتية استمرت حتى انتشار الإسلام .

وخضع شمال شبه الجزيرة العربية بحسب الموقع لمجال التأثير الفارسى والبيزنطى . أما الوسط والحجاز فيبتعدان عن ذلك ، لانعزالهما عن العالم الخارجى كلية . وتقع مكة على الطريق التجارى الموازى لشاطئ البحر الأحمر الذى يربط جنوب بلاد العرب بشرقى الأردن وسوريا . ومر تفريع من البتراء حتى غزة على البحر المتوسط . وقامت اتصالات بحرية بين موانئ جنوب بلاد العرب وبين كل من الهند وشرق إفريقيا . وكما وصفه بطليموس فقد كان " طريق البخور " التجارى الأكثر شهرة . وكانت نجران (على حدود شمال اليمن حاليا) نقطة التقاء مهمة فى الجنوب. ومن هناك يتفرع الطريق الذى يعبر جبال طويق الواقعة فى اتجاه الشمال الشرقى (عبر الرياض حاليا) حتى شط العرب . وكان فى هذه الناحية - شط العرب - طائفة مسيحية مشهورة . أما فى المدن الواقعة فى القسم الشمالى لطريق البخور فوُجدت جماعات يهودية لا يعرف عن بدايتها إلا القليل أو لا يعرف عنها شيئًا البتة [١] . والمدن الأكثر شهرة من الشمال حتى الجنوب هى : تيماء وخيبر ويثرب/ المدينة . وكانت الجماعات اليهودية فى المدينة مقسمة إلى "عشائر" ، ولعبت ثلاث جماعات منها دورا خاصا فى حياة النبى وهم : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . ولم يُعرف الكثير

حول الحياة الداخلية لهذه الجماعات اليهودية (٢) ، ولا يعرف إذا ما كانت قد وُجدت فى أعقاب عصر التلمود إذ لم تمر عليهم فترة طويلة هناك عندما وصل تحرير التلمود البابلى إلى نهايته . أما فى مكة فلا يظهر مطلقا أى وجود لجماعة يهودية ، لكن من الطبيعى أن يشارك اليهود فى الأسواق التى أقيمت فى مكة وما جاورها ، والمرتبطة بموسم الحج ، ولا يمكن تقرير أن محمدا (ﷺ) اعتنق الأفكار اليهودية عندما علم أن إبراهيم قد بنى الكعبة .

وارتبط الوضع الدينى فى جنوب بلاد العرب ، كما أشير سلفا ، بالاضطرابات السياسية والاقتصادية التى حدثت فى القرون الأخيرة قبل ظهور الإسلام . ففى بداية القرن الرابع وصل نفوذ الإثيوبيين إلى جنوب بلاد العرب ، وساعد ذلك على انتشار النصرانية . و يُذكر فى المقام الأول جماعة نجران المشار إليها من قبل كجماعة نصرانية مشهورة . ووفقا للمصادر اليونانية والسريانية فإن تلك الجماعة كانت مطبوعة بطابع المحبة من جميع البلدان والشعوب ، وكانت متألفة من قوميات وجماعات مختلفة من اليونانيين والسريان والإثيوبيين والنسطوريين (٣) . ووفقا للمصادر العربية فقد شيدت كتدرائية فى صنعاء (٤) . وكانت اليهودية منافسا قويا للنصرانية فى جنوب بلاد العرب . وكانت اليهودية تُؤْثِر الفرس عن التحالف مع الأثيوبيين وانعكس ذلك على الصراع بين الفرس والبيزنطيين . وفى بداية القرن السادس اعتنق الحاكم الحميرى أشعر ذو نواس اليهودية تحت اسم يوسف ، وثار على أتباع النصرانية وبخاصة الموجودين فى نجران الأمر الذى أدى إلى تواصل الهجوم الإثيوبى (٥) . وحكمت مناطق جنوب بلاد العرب حتى (٥٧٥) من قبل حاكم إثيوبى . وفيما بعد بدأ حزب الصداقة الفارسى مفاوضات مع الساسانيين ، وصارت البلاد بذلك على الأقل فارسية اسما حتى ضُمت عام (٦٢٨) إلى سلطان الإسلام . وفى أعقاب الفتح الفارسى نجحت الزرادشتية فى الدخول إلى جنوب بلاد العرب ، ولكن انحسرت فى محيط ضيق يشمل الموظفين الفرس أو التجار .

وحُرِم جيران الحدود الشمالية أى الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية من التأثير السياسى المباشر فى العرب ، إذ لم يكونا فى الوضع الذى يسمح لهما بذلك بسبب المنافسة الدائمة بينهما . وشكل السكان اليونانيون فى سوريا وفلسطين المنتمون إلى كنيسة الإمبراطورية طائفة ضعيفة. وانتمى السكان الوطنيون إلى الكنيسة اليعقوبية وكانوا موحدين (من أصحاب الطبيعة الواحدة). وَوُجِدَ اليعاقبة كذلك فى شمال بلاد النهرين ، وكانت تكريت مركز كنيستهم حيث أقام الكاهن الأعلى المختص باليعاقبة الخاضعين للحكم الفارسى . وأما جنوبى بلاد النهرين فقد اصطبغ بالنصرانية النسطورية . وكان مقرها الرئيسى (Seleukia-Ktesiphon) (حاليا المدائن حوالى ٦٠ كم جنوبى بغداد) عاصمة الساسانيين . وأسست القوتان حاميات فى المواجهة ، وقام رؤساء العشائر العربية بدور العيون السياسية فى الحدود الصحراوية ، وصاروا جندا للملك أو القيصر الكبير. فمثل الغساسنة الحامية البيزنطية بسبب سيطرتهم على شرقى الأردن من دمشق حتى البحر الأحمر، وكانوا من أصحاب الطبيعة الواحدة . وقام اللخميون ، بالإضافة إلى وسط الحيرة التى بالقرب من النقب الحالية ، بخدمة الساسانيين . ولم يكونوا نصارى لكنهم ساعدوا النساطرة ، وزال سلطانهم قبل (٦٠٢) بقليل . وَوُجِدَت فى إيلات - على البحر الأحمر - ودومة الجندل (الجوف التى تقع على خط العرض الجغرافى نفسه لإيلات ٥٠ كم للشرق منها) وتيماء جماعات نصرانية منظمة لها أساقفة ، وليس من الواضح كلية أى ملة اتبعوا . لكن من المحتمل جدا أن وجد هناك ، كما فى نجران ، نصارى من جماعات مختلفة [٦] .

وفى الحجاز موطن محمد ﷺ الحميم لم تكن النصرانية قد تمكنت من تثبيت قدمها . مع أن المصادر العربية تزعم أن الحوارى "Bartholnomus" قام بالحج إلى هناك [٧] ، ويبدو بكل تأكيد أنه لم يحدث على الإطلاق عمل تنصيرى منظم ، وإن وُجِدَ نصارى هناك فإما أنهم كانوا رهبانا وإما زهادا هجروا الناس إلى الصحراء . فالرهبنة ارتبطت من البداية ارتباطا وثيقا بالصحراء . وَوُجِدَ العديد من الزهاد فى بلاد العرب لمعارضتهم كنائسهم ، إما لأسباب عقدية أو سلوكية دفعتهم إلى الهرب إلى الصحراء . وبالإضافة إلى الرهبان والقساوسة وُجدت طوائف دينية مختلفة منتشرة ، ليسوا من

رجال الديانة النصرانية، ولكنهم تجولوا كتجار على طول الطرق التجارية وما شابه ذلك ، حيث اضطـروا لمغادرة أوطانهم إما لأسباب دينية وإما لأسباب سياسية . وقاموا جميعا بنشر الديانة النصرانية بين معاصريهم . وتذكر المصادر مجموعة كاملة من هؤلاء النصارى (٨) . فواحد منهم كان فى مكة وكان نجارا قبطيا عمل بحرفته لفترة طويلة ، وقام ببناء سقف الكعبة عندما كان محمد (ﷺ) يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما (٩) ، وقبل أن يبدأ طريق النبوة، أى حوالى عام ٦٠٥ . وتخبرنا سيرة النبى عن العبيد النصارى فى مكة ، وقد تحدث محمد (ﷺ) مع جابر أحد العبيد النصارى الشبان . وبناءً على ذلك يفترض الخصوم أن محمدا (ﷺ) استمد معلومات من هذا الجانب وأصدرها على أنها وحى. ويرد القرآن على هذه الشبهة بالآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل : ١٠٣) . وفطن عداس العبد النصرانى من نينوى بأن محمدا (ﷺ) سيكون نبيا وذلك عندما تفوه محمد (ﷺ) قبل أن يأكل من عنقود العنب قائلا " بسم الله الرحمن الرحيم " (١٠) . ومن الضرورى أخيرا الإشارة فى هذا السياق إلى بلال العبد الأثيوبى الذى كان بلا شك نصرانيا ثم صار أحد المخلصين للنبى (١١) . ولما صار محمد (ﷺ) فى قمة سلطانه انضمت نصرانية قبطية للعمل فى منزله ، وهى الأَمَة ماريا التى أرسلها المقوقس الحاكم البيزنطى فى مصر هدية له مع مفوض خاص . ورُزِقَت من محمد (ﷺ) بابن (١٢) . ويروى عن نصرانى اسمه سرجيس وقد خدم المسلمين قائدا لإحدى الحملات فى شرقى الأردن . ويتضح أنه جاب فى كل ناحية ، وعند عودته اعتنق الإسلام (١٣) .

ويضاف إلى هؤلاء النصارى المستوطنون فى الحجاز ، والذين تعرَّف منهم السكان الأصليون على ديانة عيسى ، ومن هؤلاء من جاء إلى مكة وقت الحج سنويا وارتبط بالتجارة فى شكل أسواق . وكانت هناك مجموعة كاملة من المواسم فى وقت الحج. ففى شهر شوال، قبل الحج بشهرين ، كان يُقام سوق عكاظ (٧٠ كم شرقى مكة) مع طقس مشابه لما يحدث فى مكة . فكانت هناك صخور يحج إليها، ويجرى

حولها طواف كما يجرى فى مكة . وفيما بعد ينتقل الحاج إلى المجنا (تبعد عدة أميال عن مكة) ويمكث هناك عشرين يوما من الشهر التالى أى شهر ذى القعدة . ويخرج فيما بعد إلى ذى المجاز (جنوب شرقى مكة) بالقرب من عرفات، ويمكث هناك حتى موسم الحج فى مكة الذى يبدأ فى التاسع من ذى الحجة . وتستغرق الجولة ما يقرب من عشرة أسابيع لا يدخل فى نطاقها الذهاب والعودة . ويسود الأمن بصورة عامة شهور ما قبل الحج وبعده . ولذلك يتمكن الزائر من مباشرة تجربته الدينية وأعماله فى هدوء . ويظن تور أندريه: "أن وعاظا نصارى ظهروا متجولين فى هذه الأسواق ، ربما قدموا من جنوب بلاد العرب ، وهم الذين تلقى منهم محمد (ﷺ) مصادر دعوته الرئيسية " (١٤) .

ثانيا - الرحلات التجارية لتجار مكة

عندما قام تجار مكة برحلات تجارية فى البلاد المجاورة تعرفوا على النصرانية وديانات أخرى . فهاشم بن عبد مناف والد جد محمد (ﷺ) توفى أثناء رحلة تجارية فى غزة . وتوفى كذلك أخوه هاشم فى الغربة وتوفى عبد المطلب فى جنوب بلاد العرب، ومات نوفل فى العراق . وقام العباس عم محمد (ﷺ) برحلات متكررة إلى اليمن ليشترى التوابل من هناك ، وبيعها أثناء موسم الحج فى مكة (١٥) . ومكى آخر هو النضر بن الحارث ، الذى كان فى الحيرة المقر الدائم للخمينيين بعد الفرس، قد عرف القصص الأسطورى للفرس ، كما هى موجودة فى كتاب الشاهنامه للفردوسى. وحاول بهذه المعرفة التفوق على محمد (ﷺ) عندما كان يسرد هذه القصص من الكتاب المقدس أو ما يشبهها إذ كانت لها خلفية من الكتاب المقدس (١٦) . وقام محمد (ﷺ) نفسه مع عمه ووصيه أبى طالب ، الذى تربى عنده يتيما، برحلة إلى سوريا . وتقابل أثناء ذلك مع الراهب بحيرا فى بصرى والذى أدرك أن محمدا هو (ﷺ) النبى المرتقب ، وينبغى حمايته من اليهود الراغبين فى إيذائه (١٧) . ونُمقت الرواية فيما بعد إلى حد الادعاء أن محمدا (ﷺ) تعلم من الراهب التعاليم النصرانية (١٨) . ومن وجهة النظر

الإسلامية تضمنت الهدف : " تأكيد أن دعوة محمد (ﷺ) للنبوة كانت عبر العودة للنصرانية ". وتعد قصة زيد بن عامر صورة من هذا النوع ، حيث تجول فى سوريا وبلاد النهرين للبحث عن الدين الحقيقى ، وتقابل فى شرق الأردن مع راهب أشار إلى نبى فى بلاد العرب ظهر زمانه [١٩] . وأخيرا تجب الإشارة إلى أبى بكر - أحد أتباع محمد (ﷺ) المقربين ، وكان صهر النبى ، ثم صار بعد ذلك أحد الخلفاء الراشدين الأربعة ، وكان تاجرا غنيا مشهورا وقام برحلات إلى حد ما [٢٠] .

ولا يمكن استبعاد أن محمدا (ﷺ) نفسه قد قام برحلات إلى سوريا أو الدول الأخرى المجاورة . فاشتغل محمد (ﷺ) نفسه فى التجارة - بوجه خاص - بعد زواجه من خديجة الأرملة الغنية ، وكان ذلك قبل بدء بعثته . وبغض النظر عن الرحلة التى قام بها فى شبابه فلم تشر المصادر ولو بكلمة عن رحلات متأخرة ، ولم يرد فى القرآن أى ذكر عن ذلك ، رغم أن صفاته الشخصية احتلت فيه نطاقا واسعا . والواقع أن محمدا (ﷺ) شارك فى بعض الغزوات . وهذه الغزوات لم تخرج عن حدود شبه جزيرة العرب . وكما أخبر ابن إسحاق فإن أقصى نقطة وصل إليها محمد (ﷺ) فى الشمال هى : دومة الجندل المذكورة سابقا [٢١] . وفى ذلك الوقت ، وقبله ، تمكن من اكتساب صورة محددة المعالم عن النصرانية . وهكذا فإنه لم يتعلم شيئا كثيرا ، وذلك بغض النظر كلية عن أنه لم يحدث أثناء هذه الغزوات أن التقى لقاء مباشرا مع الخصم . ولما كانت سيرته تخلو من أى أخبار عن رحلات له قبل الدعوة ، فعلة ذلك أن عصر النشأة يبقى عنده غامضا تماما كما عند كل مؤسسى الديانات الأخرى . وربما أراد هو نفسه ألا يعطى معلومات حول رحلاته فى شبابه لرغبته فى عرض الموضوع ببساطة ، وكان قد جمع معرفته عن النصرانية والكتابات المقدسة الأخرى فى الغربة . والواقع أن الاتصالات القليلة مع النصارى فى مكة والتى تحدثنا عنها سابقا، أحدثت شبهة عند المعاصرين أنه لم يقدم شيئا آخر أكثر من روايات الكتاب المقدس وقصص أخرى من الذاكرة . وللسبب نفسه سعى المأثور الإسلامى لتفسير مصطلح " النبى الأمى" بمعنى أن محمدا (ﷺ) لم يستطع القراءة ولا الكتابة ، وأن مصادر دعوته لم تكن الكتب بل الرب . أما رودى بارت فقد ترجم مصطلح "النبى الأمى"

بـ : النبى الوثنى (سورة الأعراف : ١٥٧) . ويعتمد المسلمون فى تفسيرهم السابق على موضع فى القرآن حيث يخاطب الرب محمدا (ﷺ) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٤٨) .

ويلزمنا إلقاء نظرة مرة ثانية تجاه الجنوب . فنائب الملك أبرهة الذى حكم اليمن قبل أن يصبح الفرس سادة عليها ، قد روى فى المأثور المكى أنه شيد كتدرائية فى صنعاء لتنافس الكعبة ، وكما يقال فإن ذلك حدث لتحويل تدفق الحجاج من مكة إلى هناك . وقام أحد المكيين بتدنيس الكتدرائية ، بعدها قرر أبرهة القيام بغزو مكة وهدم الكعبة . غير أنه باء بالفشل لأن أفيال الحرب التى قادها قد امتنعت عن طاعته . وقد عانى الجيش خسارة كبيرة أثناء العودة . وانعكست هذه الأحداث فى القرآن ووجدت سورة فى القرآن بعنوان " سورة الفيل " [٢٢] . وربما أخذت هذه الرواية المنمقة شكل حادثة تاريخية [٢٣] . ويرجع المأثور الإسلامى هجوم أبرهة إلى عام ٥٧٠ م ، ويطلق عليه "عام الفيل" . وادعى أن محمدا (ﷺ) ولد فى هذا العام . وعلى كل حال فقد كانت ذكرى هجوم أبرهة مناسبة للتقليل من هيبة الإثيوبيين عند المكيين ، وفيما بعد عند المسلمين . وتدور الرواية فى اتجاه أن النصارى الإثيوبيين شاهدوا محمدا (ﷺ) الطفل الرضيع عند مرضعته ، وقصدوا أخذه وجلبه إلى ملكهم لأن هذا الطفل ينتظره مستقبل عظيم . ونتيجة لذلك أعادته مرضعته إلى أمه آمنة [٢٤] . ويتفق مغزى هذه القصة مع رواية الراهب بحيرا الذى حال - كما سبقت الإشارة - دون وقوع محمد (ﷺ) وهو طفل رضيع فى أيدى اليهود . ويتضح فى الحالتين أن ديانتى الوحى السابقتين قد رأتا فى محمد (ﷺ) خطرا كبيرا عليهما وحاولتا أن ينتهج النبى المستقبلى نهج إحداهما وذلك لإفساد بعثته للدعوة الإسلامية. ورغم الصورة السلبية عن الإثيوبيين التى عرفها محمد (ﷺ) من البداية ، لكون أن سورة الفيل تعود إلى الوحى المبكر [٢٥] ، فإنه أرسل بعضا من جماعته إلى إثيوبيا عندما خشى عليهم البقاء فى مكة بسبب غضب النبلاء . ويشرح المأثور المتأخر هذا القرار على أساس أن محمدا (ﷺ) ذكر إثيوبيا بأنها أرض سلام ، وأن النجاشى ينصر المظلومين [٢٦] . والواقع

أنه قد خاب الأمل المعقود على النجاشى . وكما أورد المأثور أنه تحول عن موقفه لأن وفدا مكيا طلب منه الفارين . غير أن المسلمين اكتسبوا النجاشى فى صفهم بإثباتهم حقيقة النصرانية ، وذلك بتلاوتهم سورة مريم على سمع النجاشى ، تلك السورة التى تسرد قصة ميلاد المسيح . والواقع فإن النجاشى قد صادف فيما بعد لموقفه هذا صعوبات مع أتباعه الذين اتهموه أنه تأثر بتعاليم نصرانية خاطئة ، متأثرا فى ذلك بالمسلمين . وعلى كل حال فشل المسلمون فى أثيوبيا ، وعادوا إلى الحجاز باستثناء واحد منهم مكث فى أثيوبيا واعتنق النصرانية (٢٧) .

لا نعرف ما إذا كان إرسال المجموعات الثلاث متعاقبة إلى أثيوبيا تمهيدا لانتقال الجماعة كلية بما فيها النبى نفسه . وإذا كان هو المقصود ، فإنه يستدل عليه مما حدث فيما بعد. فقد عقد محمد (ﷺ) بعد ذلك بقليل مفاوضات مع سكان الطائف ، إحدى المدن المجاورة لمكة فى الجنوب الشرقى، لكنهم رفضوا طلبه ولم يقبلوه. وتحول بعد ذلك إلى سكان يثرب ، وبدأت المفاوضات التى انتهت بالهجرة ، أى هجرة محمد (ﷺ) وجماعته من مكة إلى المدينة ، ونقل مقره إلى المدينة . ويبدو واضحا فى ضوء هذه التطورات أنه تم التفكير فى إثيوبيا لتكون مقرا للجماعة ، وربما مع قصد العودة على الفور إلى مكة عند تغير الوضع . وعلى كل حال فاختيار إثيوبيا يبرهن على السعى إلى الاعتماد على النصارى . وقد فضل محمد (ﷺ) عام ٦١٤ النصارى عند الاختيار بين النصارى والزرادشتيين أو البيزنطيين والفرس . ويشير الموضع الشهير فى سورة الروم إلى الانتصار على الفرس الذى أدى إلى سيطرة الساسانيين على شرقى البحر المتوسط لمدة أربعة عشر عاما . وتشير الآيات إلى ذلك ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الروم ٢-٥) .

ويدل التنبؤ بالهزيمة القادمة على الفرس على بُعد النظر السياسى . وقد حدثت هزيمة البيزنطيين قبل عام من إرسال اللاجئين إلى إثيوبيا ، الأمر الذى يوضح علة بحث النبى الالتجاء إلى الجنوب وليس إلى الشمال . وقد كان الفرس مطوقين الحجاز ،

لأن جنوب بلاد العرب كان واقعا منذ عام ٥٧٠ تحت الحكم الفارسى . والقول القرآنى لصالح النصارى يشهد أيضا بثقة النبى بأن الرب يقف إلى جانب المؤمنين .

ثالثا ـ العلاقات مع اليهود

إن الحكم على البيزنطيين فى سورة الروم يعد دليلا على الشعور الطيب تجاه النصرانية . وإن كانت اليهودية قد شملتها رؤية محمد (ﷺ) حتى وإن أخفت المصادر – التى اعتنت بعرض اتصالات فى مكة مع نصارى متعددين – ذلك ، ولكن ليس مع اليهود . ويضرب بسورة الإسراء شاهدا بتوجه محمد (ﷺ) إلى اليهودية قبل التوجه إلى المدينة . ففى الآية الأولى من السورة يرد الحديث عن إسراء النبى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وقد أثبت المأثور الإسلامى أن المسجد الأقصى كان من قبل مكان الهيكل فى القدس . لكن هذا موضع خلاف (٢٨) . ويبدو أن محمدا (ﷺ) قام بالاتصالات اليومية مع اليهود لأول مرة فى المدينة . ويعرض المأثور أن أول من شاهد محمدا (ﷺ) لدى وصوله إلى المدينة كان يهوديا (٢٩) . ولا يمكننا متابعة ذلك . فمحمد (ﷺ) لم يختر المدينة هدفا للهجرة لوجود جماعة يهودية كبيرة هناك وربما أكبر مجموعة فى جزيرة العرب . ولم يكن ذلك كذلك ، بل لأنه أراد أن يحاول مع اليهود بعد أن خذله النصارى فى إثيوبيا والوثنيون فى الطائف . وكان قد أجرى قبل الهجرة مفاوضات طويلة مع سكان المدينة الذين تعرفوا عليه وعلى تعاليمه وتحالفوا لحمايته أثناء موسم الحج. وكانوا مسرورين به . وتدور الرواية حول ذلك . وهؤلاء القوم لم يكونوا قبل عودتهم يهودا بل وثنيين . وَدُعِى محمد (ﷺ) إلى المدينة بوصفه محكما لإنهاء النزاعات التى اندلعت بين مجموعات مختلفة من السكان الأصليين. وبعد وصوله وأثناء تنظيمه للجماعة تم ذكر اليهود كجماعة من جماعات عديدة صفح عنها فى تنظيمه للجماعة . ومن الطبيعى أنه سرعان ما حاول بعد وصوله ضمان مساعدة اليهود . فهو يكرر التجربة الإثيوبية بأسلوب مشابه ، ولكن تحت شروط أخرى تماما. ولم يعد حلفاؤه من النصارى بل من اليهود . وقد نقل عنهم بعض تقاليد الطقوس الدينية ،

لأنه استطاع أن ينظم الحياة الدينية للجماعة الإسلامية بدون ضغط خارجي . وكما أقر فإن المسجد الذى شيده بعد وصوله جعل قبلته تجاه القدس ، رغم أن القرآن لم يقل ذلك صراحة . وبعد سبعة عشر شهرا تغيرت القبلة مرة ثانية وحلت الكعبة فى مكة محل القدس (لم يُذكر الاسم فى القرآن) (سورة البقرة ١٤٢-١٥٠). وطبقا للنموذج اليهودى فقد أعلن لبدء الصلاة من خلال الإشارة بالبوق ، وفيما بعد حل الناقوس - الأداة النصرانية الأصل - محل البوق [٣٠] . وفى النهاية عُرِفَ الأذان كما هو مألوف فى كل العالم الإسلامى الآن .

وكان قد خطط فعلا للمقاطعة أثناء الاقتراب من اليهود فى المدينة . فتغيير اتجاه الصلاة (القبلة) بعد أقل من عام ونصف عام كانت أولى طلائع المصائب قد حلت باليهود. وكان محمد (ﷺ) قد أدرك بسرعة أن الرغبة فى دخولهم الإسلام مغامرة بلا أمل . وعلى عكس النصارى الذين ضلوا كثيرا فى شبه الجزيرة العربية أكثر من استقرارهم فيها بناء على خطة منظمة ، كما أنهم عاشوا بمنأى عن مراكز اللاهوت النصرانى ولم تكن تنشئتهم لاهوتية على الإطلاق . ففى مقابل ذلك عرف اليهود كتبهم وتدربوا على الحوار الدينى حتى وإن لم يوجد ذلك فى التعاليم التلمودية . وقد ذكر فى سيرة النبى ربانى عالم من المدينة وكان مالكا غنيا للنخيل، كما وجد فى المدينة أيضا مدرسة يهودية (إلا أنها لا تعنى معبدا) [٣١] . وتجاه جماعة مترابطة وثرية ومطلعة على تراثها صادف النبى وضعا صعبا بعد قدومه إلى المدينة لاجئا محتاجا على رأس زمرة لا ناقة لها ولا جمل ، وذلك بالإضافة إلى معرفة ضئيلة من الكتب المقدسة ، وهى معرفة ليست نابعة من المصدر الأصلى للكتابات المقدسة والمزودة بالعادات اليهودية . ويفترض المأثور الإسلامى أنه تم جمع موضوعات الجدل بين محمد (ﷺ) واليهود فى سورة البقرة (١-١٠٠) [٣٢] . وفى الصراع مع المكيين والذى نشب بعد قدوم النبى إلى المدينة مباشرة ولم يكن محمد (ﷺ) متأكدا من ولاء اليهود ، ولذلك تخلص منهم على دفعات فتم إجلاء عشيرتين منهم من المدينة ، ووقعت الثالثة فريسة للقتل . وقد تتبع محمد (ﷺ) - كما يعتقد المرء فى المأثور - اليهود حتى بعد وفاته ، فحدد وصية بألا يسمح بوجود ديانتين جنبا إلى جنب فى شبه الجزيرة العربية . وقد نفذ ثانى

الخلفاء ، الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) ، وصية النبى . فأجلى اليهود من خيبر بعد فرارهم من المدينة [٣٣] . وكما هو معروف فقد استمرت جماعات يهودية فى جنوب بلاد العرب حتى العصر الحديث . وفيما بعد حدث التحريم للنصارى ، واختفوا كلية من شبه الجزيرة العربية . وحديثا عادت النصرانية لأول مرة فى أعقاب اكتشاف البترول . ومن الطبيعى أن اقتصر ذلك على العمال الأجانب الذين يعملون هناك لفترة قصيرة .

رابعا - الكعبة المشرفة

لعبت شخصية إبراهيم (عليه السلام) وفهم وظيفته فى تاريخ الخلاص فى جدل محمد (ﷺ) مع اليهود والنصارى دورا أساسيا . ويفترض المرء أن إبراهيم احتل مكانة فى وعى محمد (ﷺ) منذ فجر الدعوة فى مكة ، وكانت الكعبة فى مكة – كما أخبر القرآن محمدا (ﷺ) – قد شيدها إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل أو طهراها من الأوثان . وعلى عكس تبنى "سنوك هرخرونية" نظرية أن محمدا (ﷺ) قد أعلن لأول مرة فى المدينة أن إبراهيم هو مشيد الكعبة لحث المسلمين على الحرب ضد أهل مكة ، فمن الضرورى أن ينطلق المرء من أن النبى قد نادى فعلا بهذه الفكرة قبل الهجرة إلى المدينة بفترة من الزمن [٣٤] . وربما يكون قد تلقى الإشارة إلى ذلك من اليهود . ففى سيرة النبى تمت الإشارة إلى الربانيين الذين قالوا : إن الكعبة معبد أبيهم إبراهيم ، ولم يتمكنوا من القيام بالصلاة هناك لأن الوثنيين وضعوا فيها صورا للأوثان وقدموا قرابين لتكريمها . وقيل فى موضع آخر فى المصدر نفسه إن العرب الوثنيين اعترفوا بأولوية الكعبة قبل مقدسات أخرى فى الجزيرة العربية لأنها كانت مسجد ومعبد أتقياء إبراهيم [٣٥] .

وبالنسبة للمسلمين تسود بينهم عقيدة أن إبراهيم جاء إلى مكة ، وبنى مع ابنه إسماعيل الكعبة أو طهراها من الأوثان . ومن الطبيعى أن نادى بهذا الرأى المؤلفون المسلمون المعاصرون الذين تناولوا تاريخ الكعبة من وجهة نظر نقدية [٣٦] . ولم تخل

محاولات المدرسة الغربية من الإشارة إلى توضيح قداسة مكة من وجهات نظر غير عربية . ففى منتصف القرن التاسع عشر ذهب "رينهرت دوزى" إلى أقصى ما يمكن الذهاب إليه . فقد اعتقد أنه يمكن البرهان على وجود علاقة بين أخبار العهد القديم والأخبار العربية حيث أُبعد سبط شمعون ونزح إلى الجزيرة العربية فى عصر صموئيل (قارن أخبار الأيام الأول ٤: ٢٤- ٤٣) ، وأسس يثرب / المدينة . ويشرح كذلك قداسة هبل فى مكة بأنه البعل ويعد تأسيسا شمعونيا . و يستند إلى فهم خاطئ بأن إبراهيم أصبح مشيد الكعبة . والاسم " مقام إبراهيم " المذكور فى القرآن (سورة البقرة : ١٢٥) والذى يرمز إلى المقدس يعنى فى الأصل " مكان العبريين " ... إلخ [٣٧] . غير أننا يمكننا التغاضى عن التفاصيل المسهبة .

وكما تزعم سلسلة من المأثورات طالب النصارى أيضا بالكعبة. والحقيقة أنه قبل دعوة محمد (ﷺ) بفترة وُجِدَ فى الكعبة حجر منقوش . وكان النقش اقتباسا من الإنجيل ، وعلى وجه التحديد تحذير من الأنبياء الكذبة المذكورين فى (متى٧: ١٦). ويدور فى الاتجاه نفسه خبر العثور على حجر بالسريانية وذلك عند إعادة تشييد الكعبة فى شباب محمد (ﷺ) [٣٨] . ويعد مهما بالنسبة لموضوعنا الوصف الداخلى للكعبة الذى نقله الأزرقى مؤرخ مكة فى سياق الخبر عن إعادة بناء الكعبة [٣٩] . فقد وُجدت على الأعمدة صور للأنبياء والملائكة والأشجار ، ووُجدت فى الكعبة صور لإبراهيم ممسكا فى يده بسهم [٤٠] ، بالإضافة إلى صور المسيح ابن مريم ، وأمه والملاك . وربما يرتبط الأمر بالإلهة الأم مع الطفل عيسى محاطا بالملائكة . وينقل الأزرقى فى نهاية هذا الخبر الشامل ليس أقل من تسعة مأثورات مختلفة حول الموضوع نفسه . ووُجدت الصور عند العمود الأوسط بالقرب من الباب، كما يعرض الوصف المكانى بدقة . وهناك أخبار مختلفة عن مصيرها بعد فتح مكة . وطبقا لبعض الروايات أن محمدا (ﷺ) قد أبعدها قبل أن يدخل الكعبة . وطبقا للبعض الآخر أنه قد أمر بإبعادها بعد أن دخل الكعبة ، لكنه استثنى منها صور المسيح وأمه . وتم غسل الصور بقطع من القماش المغموس فى بئر زمزم . ويبدو أنها ثبتت أيضا على أعمدة أو على الحائط بألوان قابلة للذوبان بسهولة .

ومن الصعب تقرير مثل هذه الأخبار . هل ينبغي وفقا لهذه القصة المُختَلقة التصديق بأنه وجدت في الكعبة صور عبادة نصرانية ، وأن النصارى تمكنوا من المشاركة في موسم الحج ؟ يعد ذلك أقل أهمية من افتراض وجود مثل هذه الصور حقيقة في الكعبة في عصر ما قبل الإسلام . وبما أن الكعبة مكان مقدس عالمي فقد انتقلت إليه طقوس عني بها في أماكن أخرى قبل ذلك . وارتبط بها باستثناء الإله هبل والآلهة الإناث الثلاث المشار إليها في القرآن ، وهي اللات والعزى ومناة (سورة الطور : ١٩-٢٠) . وقد حطم محمد (ﷺ) بيده (٣٦٠ صنماً) بعد فتح مكة [٤١] ، ويعد هذا العدد مبالغا فيه ولذلك لا يؤخذ مأخذ الجد ، ولا يمكن تقرير وجود صور أو رموز نصرانية . وبلا شك فإن الذين وضعوا هذه الصور أو قدسوا مثل هذه الصور لم يكونوا نصارى مرتبطين بكنيسة سمحت لهم بهذا وساعدت فيه . وأضيف في المأثورات المذكورة سابقا أن قريشا وضعت هذه الصور بنفسها في الكعبة .

وعلى عكس نظرية "دوزى" التي تفترض أصلا يهوديا للكعبة يقدم "جونتر ليولنج" "Guenter Lueling" ادعاءً بأن الكعبة كانت مقدسا نصرانيا في الأصل [٤٢] . ويرهن على ذلك من خلال الإشارات إلى تاريخ بناء الكعبة وأبيات من الشعر العربي القديم . ومن الطبيعي أن ذلك يناسب نظريته عن الأصل النصراني للقرآن والتي نادى بها بالفعل من قبل . وبما أن الكعبة لم تكن مطلقا قبلة نصرانية بالمعنى الذي افترضه "لولينج" فإنه لا يمكن للمرء تقرير وجود تماثيل نصرانية من هذا النوع الموصوف ، وليس من قبيل المصادفة أيضا وجود صورة للإلهة الأم . ولدينا في القرآن برهان على فهم غريب للثالوث : سأل الرب المسيح إذا كان قد قال ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ١١٦) وبالطبع نفى المسيح ذلك . والاحتمال الطبيعي أن محمدا (ﷺ) أخطأ عند إحصاء أشخاص الألوهية الثلاثة ورفض المرء الادعاء لأن الأمر يدور حول "kollyridianerinnen" عند النصارى الذين ألهوا مريم . وأشار "أبيهانيوس" (ت. ٤٠٣) مطران قبرص الفلسطيني الأصل إلى وجودها منذ زمن في جزيرة العرب (هذا يعني شرقي الأردن وشبه جزيرة سيناء). وكما كتب في كتابه " تركيب الأدوية " فإن الاسم يدل على وصف ثمانين بدعة من عمل الخبز (كوليرييس) الذي تقدمه

النساء إلى مريم على أسلوب الوثنية ، ويأكلونه فيما بعد على ما يبدو محاكاة للاحتفال النصرانى ومن المحتمل أن "Kollyridianerinnen" مماثلة لأصدقاء مريم التى أشار إليها " ليونتيوس البيزنطى" (ت. ٥٤٣-٥٤٤) الذى اهتم بصورة كبيرة بمشكلة الثالوث [٤٣] . وأقرب إلى الظن أن محمدا (ﷺ) تصور فى المواضع القرآنية المقتبسة مثل هذه المجموعات النصرانية . وعلى كل حال فإن ذلك يعد أكثر أهمية من افتراض أن النبى قدم عن جهل تام تعريفا غير منطقى للثالوث . والمحتمل أن أحد العرب قد رسم صورة مريم. وعند الأزرقى الحديث عن إحدى زائرات الكعبة من قبيلة غسان التى قالت بمجرد رؤيتها الصورة " بأبى وأمى أنت يا مريم تكونين عربية حقا " [٤٤] .

خامسا ـ الحنفاء

عند ظهور الإسلام شمل التعدد الدينى فى الجزيرة العربية أخبارا عن عناصر يهودية ونصرانية كانت تقطن منطقة الكعبة وما حولها . ولم يكن اليهود والنصارى فى الحجاز عربا ، وبالتأكيد كذلك فى جنوب بلاد العرب لم يكونوا عربا ، وهم بذلك كانوا غرباء ، ومنهم يهود المدينة الذين قطنوا جزيرة العرب لعدة قرون وتكيفوا بلغة وعادات جيرانهم العرب وسمح لهم بديانتهم . وفى مقابل ذلك فقد اعتنقت عشائر عربية فى شمال جزيرة العرب النصرانية ، ومنهم على سبيل المثال بنو تغلب. ووجد فى الحجاز البعض منهم الذين هجروا الوثنية . ويطلق المأثور الإسلامى على هؤلاء اسم "حنيف" و (الجمع حنفاء)، اعتمادا على النموذج القرآنى ، حيث أشار محمد (ﷺ) ـ كما أخبر القرآن ـ إلى إبراهيم بأنه حنيف (البقرة ١٣٥ ...) وأنه ليس يهوديا ولا نصرانيا [٤٥] . وكذلك فإن الشخصيات المشار إليها بكلمة : "حنيف " فى المأثور لا تنتمى إلى أى من ديانات الوحى الكبيرة الموجودة ، والتى كانت سائدة فى المناطق الحضارية المحيطة ، والتى رسخت أقدامها فى جزيرة العرب . ويقدم ابن إسحاق فى سيرة محمد (ﷺ) قائمة بأربعة حنفاء ، ويصف مصيرهم بإسهاب [٤٦] . وكان أشهرهم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة أولى زوجات محمد (ﷺ) ، وقد قرأ ورقة بن نوفل كتب النصارى .

وكما يقال فقد كان عارفا بحقيقة تخصيص الوحى لمحمد (ﷺ) عندما روت له خديجة عن ذلك ، وتوفى ورقة نصرانيا . وحنفيان آخران انضما إلى محمد (ﷺ) فى البداية ، وفيما بعد اعتنقا النصرانية ، أحدهما كان فى إثيوبيا ذهب مع المهاجرين هناك ، وأما الآخر فقد انخرط فى الخدمة البيزنطية ، ومن الطبيعى أنه تخلى عن الإسلام . واستمر الرابع - زيد بن عمر - حنيفيا ، وقد كان شاعرا وقام برحلات فى شرقى الأردن . وكما ذُكر من قبل فقد تعرف على الراهب الذى تنبأ ببعث نبى فى شبه جزيرة العرب قبل أن يظهر . ووُصف سلوكه الحنفى بأنه لم يقدس أى وثن ، ورفض أكل لحم المقتول والمنخنقة ، ولم يأكل لحم القرابين ورفض قتل الأطفال . وغادر مكة وأخذ يتجول للبحث عن الحنيفية ديانة إبراهيم .

وتشير قائمة المحرمات الموجودة فى كلام زيد المزعوم إلى قرار مجمع الحواريين الذى حذر النصارى من العودة إلى الوثنية باتباع قوانين الطقوس اليهودية كما ورد فى أعمال الرسل ، وفرض عليهم مثل بعض هذه الوصايا والتى عن طريقها تم إبعاد النصرانية عن طريق الوثنية (أعمال الرسل ١٥ : ٢٩) ، ويمكن للمرء التفكير فى القانون الذى أعطى لنوح الحق فى تحريم سفك الدماء والقتل (التكوين ٩ : ١-٦) . وتنعكس الحنيفية فى الحقيقة أيضا على قائمة المحرمات كما هو الحال على سبيل المثال (سورة البقرة : ١٧٣) والتى تشير إلى قائمة الأطعمة المحرمة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ . ويُلمح إلى تحريم قتل الأطفال فى (سورة الإسراء : ٣١) ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ... إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ وكما قيل فإن القصد من أن زيدا بن عامر لا يزال ينقصه الإيمان الحقيقى لذلك فإن الاعتراف بمحمد (ﷺ) كنبى مرسل من الرب يعد مصادفة . وقد كان زيد إلى حد ما "مسلما بطبيعته ".

لنترك الآن قضية إذا ما كان الناس قد هجروا الوثنية ولم تكن لهم علاقة بديانة توحيدية الأمر الذى أولاه زيد بن عامر جل اهتمامه . واللافت للنظر أن الحنيفية كانت أكثر وضوحا للنصرانية من اليهودية . وينطبق هذا على رجل يدعى أبو قيس من المدينة .

وقد كان شاعرا مثل زيد طرح تعاليمه بلغة شعرية . وفى عصر ما قبل الإسلام والذى يعرف بالعصر الجاهلى (٤٧) اعتمادا على أعمال الرسل (١٧: ٣٠) ، فقد مارس فيه أبو قيس تقوى الزهد على نمط الرهبان (٤٨) . ووصف بأنه حنيفى، وصار بعد الهجرة مسلما (٤٩) ، وقد باشر محمد (ﷺ) نفسه مثل هذه التدريبات الزهدية . وكما يروى المأثور أنه كان يهجر الناس سنويا إلى جبل حراء بالقرب من مكة ، وكان يصوم ويُطعم الفقير ، وتلقى هناك الوحى الإلهى الأول (٥٠) . وعندما تتطابق هذه الحقائق ويأخذ المرء فى الاعتبار آثار النصرانية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، يبدو واضحا إلى أى مدى انبعثت النصرانية فى الأقاليم التى استمرت حتى الآن خارج نطاق الجهود التنصيرية، وإلى أى حد سعى العرب إلى تنظيم دينى جديد.

سادسا ـ القرآن

يمكن للمرء أن يضم إلى جانب معرفة محمد (ﷺ) باليهودية والنصرانية ، أى مادة عرفها من الكتاب المقدس ، وكيف أفاد منها فى القرآن . وكما يفترض المرء فإن الروايات التى استعملت هذه المادة ترجع إلى مصادر يهودية ونصرانية. ويمكن أيضا تبنى الرأى القائل أن محمدا (ﷺ) لم يقرأ لا العهد الجديد ولا العهد القديم أو حتى تعرف عليهما مباشرة من رجال ثقة. وقد عرف محمد (ﷺ) بالاسم من أسفار العهد القديم " التوراة " "والمزامير" (الزبور)، وكان يشير إلى كتب العهد الجديد مجتمعة بـ : "الإنجيل" (٥١) . وإن الاقتباسات من العهد القديم والجديد قليلة إذا فهم المرء المصطلح بالمعنى الشامل (٥٢) . واستخدام مادة الكتاب المقدس فيما يختص بالمحتوى والمضمون، تبقى مرغوبة لأكثر من واحد . وعلى المرء أن يقبل وجود علاقة بين كتابات الوحى اليهودية والنصرانية من جانب والقرآن من جانب آخر. ويمكن للمرء البحث فقط عن طبيعة هذه العلاقة . ففيما يرتبط بالعهد القديم فإن الموضوع يرتبط بالتفاسير وفهم النص كما نعرف ذلك من الأدب الربانى (الحاخامى) والشروح النصرانية . وبالقياس ينطبق ذلك على مادة العهد الجديد . وباستثناء أسفار العهد

الجديد فقد لعبت الروايات الإنجيلية المتوافقة والشروح القديمة دورا مهما. ويرجع الفضل فى ذلك إلى أهمية تفسير الكتاب المقدس باللغة السريانية التى قدمها أفريم السريانى وعلماء لاهوت آخرون . كما يمكن ضم بعض ما كتبه الإثيوبيون والمصريون الأقباط . وقد دخلت مواد العهد القديم كما عرفها محمد (ﷺ) عن طريق وسيط نصرانى . وبصورة عامة هناك علاقة مباشرة تربط الأديان الثلاثة : الإسلام والنصرانية واليهودية مع بعضها البعض . وقد حكم محمد (ﷺ) على اليهودية مباشرة أو قام ببعض الأحكام النصرانية حول ذلك ، تماما كما استمد المادة اليهودية إما من اليهود وإما تعرف عليها فى سياق نصرانى .

وفيما يتعلق بالبحث عن مصادر محمد (ﷺ) للتعاليم النصرانية ، وربما اليهودية أيضا ، ينبغى أن تولى عناية خاصة بالطقوس الدينية . وقد قيل إنه قد تبنى طقوسا دينية من اليهود . فنصوص الطقوس الدينية للصلاة اليهودية والنصرانية كان بعضها مأخوذا من الكتاب . وقد جمع إ. جراف "E. Graef" بعض الأمثلة المرتبطة بالطقوس النصرانية على اعتبار أنها تمثل مصدرا للقرآن (٥٣) . وبعض ما يوجد فى القرآن مأخوذ من المزامير . والمزامير كتاب الصلاة عند اليهود والنصارى ، غير أنه لم يكن من السهل دائما فى كل مرة ، إلا فى حالات استثنائية (٥٤) إثبات الأصل المختص بالإشارة القرآنية لهذه المصادر . وغالبا ما يكتفى المرء بالتخمينات .

وكان كثير من مواد الكتاب المقدس شائع الاستعمال على ألسنة العامة فى شبه جزيرة العرب ، وقد استوعبها الشعراء . ولاقت العناصر النصرانية فى الشعر العربى قبل الإسلام عناية فى البحث منذ زمن بعيد (٥٥) . وتتزايد المشاكل صعوبة بسبب قضية التأريخ وصحة الشعر . وقد كان أمية بن أبى الصلت صهر عشائر قريش المكيين الذى عاش فى الطائف ، التى تعد هضبة مشابهة لمكة قد استعمل مادة الكتاب المقدس . وقد كان معاصرا لمحمد (ﷺ) وتوفى عام ٦٣٠ . وكان حنيفيا طبقا لموقفه الدينى ، فاعترف بالإله الواحد سيد العباد . ويصف فى أفكار أخروية (نهاية العالم) مشيرا إلى بيت الرب ، وحاشيته من الملائكة الخادمين ، كما أشار إلى الجنة والنار .

وكان يقص طبقا للنموذج المرتبط بالكتاب المقدس عن خلق العالم ، ويصف الفترات المهمة فى تاريخ الخلاص وهى : الطوفان وإبراهيم ولوط وموسى وفرعون ، كما كان يصف أيضا عقوبات غير مرتبطة بالكتاب المقدس مثل : قصة فناء قوم عاد وثمود الكفار المذكورة فى القرآن . وقد التزم فى شعره بالمعيار الأخلاقى فى المسئولية الذاتية لإيمان الإنسان . وبسبب تطابق شعر أمية مع القرآن نشأ جدل حاد فى البحث الغربى حول قضية الأصالة . والقضية قابلة للإجابة عنها بناءً على مطابقة البراهين برمتها فى ضوء أن أمية ومحمدا (ﷺ) استعملا مصادر متشابهة وتوفيا – أمية ومحمد (ﷺ) – عقب بعضهما فتوفى الأول قبل الثانى بعامين.

وإذا كان محمد (ﷺ) قد استعمل مادة مشابهة مثل أمية (وشعراء آخرين) فإنه يختلف فعلا عن الشعراء بسبب إدراكه بالرسالة النبوية . وهذا مكنه لأن يصبح كاتبا دينيا ، فى حين يسعى الشاعر أن يجعل رأيه للمسامرة ، وتعمد النبى أن يجعل موضوعات ومحتوى وعظه قريبة من مقام الشعراء فتظهر بذلك مساعيه بعدم الابتعاد عنه. ويختلف النبى عن الشعراء ، كما اعتقد أتباع محمد (ﷺ) ، بأنه عمل معجزات صدقت بها بعثته . ويستدل على ذلك من سورة الأنبياء (٥) . والواقع فإن القرآن قد نفى صراحة عمل المعجزات عن شخص النبى ، ودلل فى الآيات التالية على العقوبات السابقة وفناء الكفار بأنها حالات واقعة فعلا ، ويشير القرآن إلى أنه "رسول" ويرفض صراحة الإشارة إلى أنه " شاعر " أو " كاهن " (سورة الحاقة :٤٠-٤٢)، ولم يعلمه أحد الشعر (يس : ٦٩) . ويقول فى مواضع أخرى أن الشياطين توحى إلى الشعراء ، وأنهم يخطئون الطريق الصحيح (الشعراء : ٢٢٤)، وهم مجانين ولا يسرهم النظرة السامية ، وأن العرب تخلوا بسبب الشعراء عن دينهم المتوارث (الصافات : ٣٦) . ويُستدل من سورة (الطور : ٢٩) أن ولع الشاعر يقترب من الكاهن الحقيقى ، ولا يريد محمد (ﷺ) أن يعمل معهما شيئا . ويختلف محمد (ﷺ) عن الشاعر شكليا عن طريق السجع ، أى شىء بين الكلام المترابط . ويستخدم الكاهن السجع أيضا ، وقد أشار القرآن إلى الكاهن فى موضعين فقط هما : (الطور ٢٩) ، و(الحاقة : ٤٢) ويظهر غضب محمد من أن يكون كاهنا .

الهوامش

(١) Torrey : The Jewish foundation of Islam , S. 1-13 وانظر حاليا : Moshe Gil : The Origin of the Jews of Yathrib, in : Jerusalem Studies in Arabic and Islam 4 (1984), S. 203 -224.

(٢) Arent Jan Wensinck : Muhammad and the Jews of Medina , Translated and edited by Wolfgang H. Behn , 2. Auflage , Berlin 1982 .

(٣) قارن حاليا Irfan Shahid : The Martyrs of Najran. New documents, Bruessel 1971 (Subsidia Hagiographica 49).

(٤) أزيلت الكنيسة بعد منتصف القرن الثامن الميلادى ، قارن : Theodor Noeldeke : Geschichte der Araber und Perser zur Zeit der Sassaniden, aus der arabischen Chronik des Tabari uebersetzt , Leyden 1879, S. 200 ff.

(٥) قارن : M.R. al - Assouad : Dhū Nuwās , in : Encyclopaedia of Islam , 2. Auflage II 243 b -245 .

(٦) حول الكنيستين ، انظر : Bertold Spuler : Die nestrianische Kirche وانظر للمؤلف نفسه : Die westsyrische (Monophysitischel jakobitische) Kirche , in: Handbuch der Orientalistik VIII : Die Religionsgeschichte des Orients in der Zeit der Weltreligionen, Leiden/ Koeln 1961 , S. 120-216.

(٧) Ibn Ishaq / Guillaume : The Life of Muhammad , S. 653.

(٨) نحن نعلم عن تاجر نبطى من سوريا كان يبيع المواد الغذائية فى المدينة ، راجع : Ibn Ishaq / Guillaume : The Life of Muhammad , S. 84.

(٩) Ibn Ishaq / Guillaume S. 84

(١٠) Ibn Ishaq/ Guillaum , S. 193.

(١١) بسبب صوته الحسن صار المؤذن الشخصى للرسول ، وفيما بعد يبدو أنه كان المدير الشخصى لأعمال النبى . قارن . Ibn Ishaq / Guillaume : S. 235

(١٢) Watt : Muhammad at Medina : S. 396 .

(١٣) Ibn Ishaq / Guillaum : S. 668.

(١٤) Tor Andrae : Der Ursprung des Islams und das Christentum : S. 201.

(١٥) Ibn Ishaq / Guillaum : S. 58ff . Tabari I 1162(bei Ibn Ishaq/ Guillaum : S. 113) .

(١٦) Ibn Ishaq / Guillaum , S. 136 und 162 f.

(١٧) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 79 -81.

(١٨) A. Abel : Bahira, in : Encylopaedia of Islam, 2. Auflage, I 922f. وأيضا : A. Sprenger (Muhammed's Zusammenkunft mit dem Einsiedler Bahyra, in : ZDMG 12 (1958) , S. 238 -239) . وانظر أيضا : Th. Noeldeke (Hatte Muhammad christliche Lehre? In :ZDMG 12 [1958] S. 699 - 708).

(١٩) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 103 وانظر أيضا : V. Vacca : Zaid b. 'Amr , in: Enzyklopaedie des Islam IV 1233 a .

(٢٠) Ibn Ishaq / Guillaume ; S. 114.

(٢١) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 659 f.

(٢٢) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 21 ff.

(٢٣) M.J.Kister : The Campaign of Huluban . A New Light on the Expedition of Abraha , in : Le Muséon 78 (1965) S. 425 - 436 .

(٢٤) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 73.

(٢٥) قـــارن : Theodor Noeldeke : Die Geschichte des Qorans, 2. Auflage, bearbeitet von Friedrich Schwally, Erster Teil: Ueber den Ursprungdes Qorans, Leipzig 1909, S. 93

(٢٦) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 146 .

(٢٧) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 152, 154 ff. , 527.

(٢٨) لقد انتهيت من إعداد مقالة بعنوان : Jerusalem in the Story of Muhammad's Night Journey and Ascension وسوف تنشر فى Jerusalem Studies in Arabic and Islam

(٢٩) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 227f.

(٣٠) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 235 f.

(٣١) Ibn Ishaq / Guillume : S. 241, 263 .

(٣٢) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 247 - 70

(٣٣) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 523 , 525 .

(٣٤) قارن الوصف المسهب عند رودى بارت فى دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مادة "إبراهيم" III 980- 981.

(٣٥) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 9 u. 38

(٣٦) هذا يناسب الدراسة عن تاريخ بناء الحرم فى مكة التى قدمتها فوزية حسين مطر ، وصدرت فى جدة ١٩٨٢ .

(٣٧) Reinhart Dozy : Die Israeliten zu Mekka von Davids Zeit bis ins 5.Jahrhundert unserer Zeitrechnung . Ein Beitrag zur alttestamentlichen Kritik und Erforschung des Islams , aus dem Hollaendischen uebersetzt , Leipzig 1864.

(٣٨) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 85 f.

(٣٩) al - Azraqi , Ahbar Makka , hrsg. V. F. Wuestenfeld I 110-113 , Uebersetzung S. 104 f.

(٤٠) استخدم الكهنة الوثنيون الأسهم عند الكعبة للتنبؤ بإرادة الآلهة ، تشبه التميمة التى كان يستخدمها كبير الكهنة اليهودى .

(٤١) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 552.

(٤٢) Guenter Lueling : Der christlchen Kult an der vorislamischen Kaaba als Problem der Islamwissenschaft und christlichen Theologie , Erlangen 1977. تم تفنيد ذلك فى دراسة : U. Rubin بعنوان : The Ka'ba Aspects of its Ritual Functions and Position in Pre - Islamic Times , in : Jersalem Studies Studies in Arabic and Islam 8 (1986) . S. 97-131 .

(٤٣) حول المؤلفين قارن : B. Altaner und A.Stuiber : Patrologie , 8. Auflage , Freiburg / Basel / Wien 1978 , S.315-318 , 509- 511

(٤٤) al- Azraqi , I 113 Uebers. S. 106 بالإضافة : Ibn Ishaq / Guillaume , The Life of Muhammad , S. 552.

(٤٥) N.F. Faris und Harold W. Glidden : The Development of the Meaning of the Koranic Hanif , in : The Journal of the Palestine Oriental Society 19(1939/1940) , S. 1-13 الكلمة ـ حنيف ـ مشتقة من اللغة النبطية حيث يشير أحد أتباعها جزئيا إلى ديانة عربية سريانية هللينستية . وانتقلت الكلمة إلى اللغة العربية قبل الإسلام . والحنيف النبطى والحنيف فى القرآن لا يشربان الخمر وبهذا يختلفان بصورة كبيرة عن المسيحيين .

(٤٦) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 99 .

(٤٧) سورة آل عمران : ١٥٤ ، المائدة : ٥٠ ، الأحزاب : ٣٢ ، الفتح : ٢٦ .

(٤٨) لقد عاش راهبا ، وكلمة ترهب صيغة فعلية مشتقة من الفعل العربى "رهب" وطبقا لرأى سيجموند فرينكل فإن الكلمة عربية أصيلة ، انظر : Sigmund Fraenkel : Die aramaeischen Fremdwoerter im aramaeischen , Leiden 1886, S. 267f.,

(٤٩) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 236 f .

(٥٠) Ibn Ishaq / Guillaume : S. 105 .

(٥١) فى كثير من المواضع يظهر مصطلح "التوراة والإنجيل" معًا ، والذى يمكن أن يطابق العهد القديم والعهد الجديد عند المسيحيين ، قارن : آل عمران :٣و٤٨و٦٥، المائدة ٦٦ ، الأعراف ١٥٧ ، التوبة ١١١ (التوراة الإنجيل القرآن) أما المزامير (الزبور) تظهر دائما منفردة ، النساء : ١٦٣ ، الإسراء ٥٥، الأنبياء :١٠٥ .

(٥٢) حول أحد الاقتباسات ، انظر أشعيا ٦:٩، قارن : Arne A. Ambros : Hoere , ohne zu hoeren " zu Koran 4:46(48). In : ZDMG 136 (1986), S. 12-22.

(٥٣) Erwin Graef : Zu den christlichen Einfluessen im Koran , in :ZDMG III (N.F.37) 1962, S. 396-398 انظر أيضا فى : Der Koran تحرير رودى بارت ، دارمشتات ١٩٧٥ ، ص ١٨٨-١٩١ .

(٥٤) قارن : B. Camille Hechaimé : Louis Cheikho et son Livre > Le christianisme et La Littérature en Arabie avant L'Islam< , Beirut 1967 .

(٥٥) Clément Huart : Une nouvelle source du Qoran , in : Journal Asiatique 10 série 4 (1904) , S. 125 - 167, وانظر كذلك : J. Frank -Kamenetzky , Untersuchungen ueber das Verhaeltnis der dem Umaiya b. Abi;s-salt zugeschriebenen Gedichte zum Qoran , Kirchhain 1911.

أهل الكتاب

أولا - الوحدة والتنوع فى الدين

يظهر أتباع ديانات الوحى القديمة ، الذين لديهم كتب مقدسة ، فى القرآن تحت اسم " أهل الكتاب ". وكان رأى محمد (ﷺ) - كما ورد فى القرآن - أن ديانات وكتب أتباع الوحى المختلفة ومحتوياتها متشابهة فى الأساس ، وتشمل القرآن والإسلام ، وهى مختلفة فقط فى لغاتها . وقد عُرِفَ أن كتب اليهود والنصارى المقدسة كُتبت بلغات أجنبية ، ولم تُذْكر أسماء هذه اللغات . وتطابق الكتب ، رغم اختلاف اللغات ، نابع من افتراض وجود نص سماوى أصلى ، ومن هذا النص السماوى نُقلت الكتب المقدسة للجماعات الدينية والشعوب المختلفة (يعنى المصطلحان الشيء نفسه) ونقل فقط باللغة الخاصة لكل شعب . ويُطلق على النص السماوى الأصلى " اللوح المحفوظ " (البروج : ٢٢) [١] ، أو " أم الكتاب " (الرعد : ٣، الزخرف : ٤) . وقد امتثل محمد (ﷺ) لأمر الرب بدعوة العرب للعمل بمضمون النص الأصلى المحفوظ فى السماء ، وذلك باللغة العربية ليكون سهلا. وأطلق على الكتاب المقدس لأى دين سماوى اسم "الكتاب"، وإذا ما قصد بذلك النسخة المكتوبة ، فيطلق عليه التلاوة أو القراءة (قرآن) حتى يبقى مكان الصدارة للتلاوة الشفهية [٢] . وقد وضع التلاوة الأجنبية "قرآنا أعجميا " حيث يقصد بذلك اليهود والنصارى وآخرين ، مقابل التلاوة العربية " قرآنا عربيا " (يوسف : ٢ ؛ الزُمر : ٢٨ ؛ فُصلت : ٣ ؛ الشورى : ٧ ؛ الزُخرف : ٣) ، أو مقابل "حُكما عربيا" (الرعد : ٣٧). ويؤكد مرارا على أنه تلقى الوحى "بلغة عربية خالصة" وأعلنه باللغة نفسها (النحل : ١٠٣ ، الشعراء : ١٩٥ ؛ الأحقاف : ١٢).

وفى مواضع عديدة من القرآن تم إحصاء قوائم بأتباع الديانات التى اتصل بها محمد (ويشار إليهم بأنهم جميعا مؤمنون ، وهم إلى جانب المسلمين : اليهود والنصارى والصابئة (البقرة : ٦٢) . وربما يقصد بالصابئة : المندعيين أتباع طائفة المعمدان المستوطنة فى جنوب بلاد النهرين [٣] . وتغير ترتيب القائمة فى (المائدة : ٦٩) حيث تمت الإشارة إلى النصارى بعد الصابئة . وتوجد فى سورة الحج قائمة ثالثة ذكرت الصابئة والنصارى بالتتابع نفسه المذكور فى سورة المائدة ، وأُضيف إلى القائمة الثالثة جماعة المجوس وأُشير فى النهاية إلى الوثنيين . وبذلك يصل خط المنحنى من المسلمين إلى المشركين ، وأخذ أتباع ديانات الوحى القديمة وضعا وسطا بين النقيضين . وتنتهى القوائم فى سورتى البقرة والمائدة بشهادة مُرضية ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (من يوم الحساب) ﴾ . وأُقر لليهود والنصارى والصابئة (المندعيين) بأن عقيدتهم مشابهة للإسلام ، وهم مثل المسلمين مرشحون للخلاص. ويعد الوضع مخالفا فى سورة الحج ؛ فالمجموعات الست أى : المسلمون واليهود والصابئة والنصارى والزرادشتيين والوثنيين ، تعرف بأنها تمثل جماعات مؤمنة ذات ملل مختلفة ، ويكون المضمون سلبيا بصورة عامة ، وعن الاختلافات الموجودة بينهم "فإن الرب سيقررها يوم البعث" بناءً على ما قيل فى نهاية الإحصاء . وبوسعنا أن نلتفت إلى القضية من ناحية إذا ما كان المسلمون وأتباع ديانات الوحى الأخرى يمثلون مجموعة متميزة مقابل الوثنيين الذين يمثلون المجموعة الأخرى ؛ وفى هذه الحالة يصبح الحكم إيجابيا على أهل الكتاب . إلا أن هذا ليس هو المقصود كلية . ويستنتج من مقارنة الصيغة الختامية للقائمة الثالثة بالقائمتين الأخريين أن محمدا غير موقفه وتنصل من أهل الكتاب .

ويظهر أتباع الدين الموسوى فى القرآن تحت مسميين : " بنى إسرائيل "، و"اليهود" ويدعون دائما بـ :" بنى إسرائيل " فى الروايات التى تمت الاستفادة فيها من مادة توراتية . ولم يرد فى القرآن رواية التوراة عن صراع يعقوب مع الملاك فى فنئيل التى أدت إلى تغيير اسمه إلى الاسم "إسرائيل" أى "مصارع الرب" (التكوين ٣٢: ٢٥ وما بعدها) .

وقد ذكر الاسم يعقوب مرات عديدة ، أما الاسم إسرائيل فذُكِر مرة واحدة (مريم : ٥٨) . ووردت عشيرة يعقوب مرتين للدلالة على بنى إسرائيل (يوسف: ٦؛ مريم :٦) ، وذُكرت مرة واحدة ذرية يعقوب (العنكبوت : ٢٧) . وأحيانا تذكر ذرية يعقوب باسم "الأسباط" وذلك بدون تخصيص (البقرة : ١٣٦ ، آل عمران : ٨٤ ، النساء : ١٦٣) والإشارة الغالبة إليهم هى" بنو إسرائيل " بدون تحديد مباشر للدلالة على مطابقة إسرائيل ويعقوب . وهم يدعون بذلك - بنى إسرائيل - قبل أن تظهر التوراة (آل عمران : ٩٣) . وغالبا ما يظهر هذا الاسم فى الروايات عن موسى وفرعون ومنح الشريعة فى سيناء (البقرة : ٨٣ ؛ المائدة : ١٢) . وتمت أيضا الإشارة إلى اليهود بـ : بنى إسرائيل فى الروايات حول ميلاد وعمل المسيح ، كما خاطبهم المسيح بهذه التسمية (آل عمران : ٤٩ ؛ المائدة : ٧٢) . كما أن الخطاب فى سورة البقرة (٤٠-٤٤) " يا بنى إسرائيل " يمكن أن يكون المضمون المقصود هنا بناءً على وعظ عيسى رغم أنها تشير فى النهاية إلى تعاليم إسلامية أى :الصلاة والزكاة . ويجد " سباير " فى الجملة الأخيرة سمات ما ورد فى متى (٢٣ : ٣) التى يستنكر فيها المسيح نفاق الفريسيين والكتبة [٤] . وقد كانت التسمية " بنو إسرائيل " الإشارة المفضلة فى عصر ما بعد العهد القديم ، وهى تسمية غنية بالمضمون الدينى . وكثيرا ما تم استعمال هذا الاسم فى العهد الجديد ، عند الحديث عن اليهود [٥] . ودعا محمد (ﷺ) معاصريه من اليهود هكذا ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦) . ونادرا ما يدعى أتباع العقيدة الموسوية أو المعاصرين لمحمد (ﷺ) بـ : اليهود (البقرة : ١١٣ ؛ آل عمران : ٦٧ وغيرها) . فطبقا للرأى القرآنى لم يكن اليهود مختلفين عن الإسرائيليين المشركين . وأن المسيح قد توجه برسالته إلى بنى إسرائيل الذين انقسموا إلى مجموعتين : النصارى الذين آمنوا به ، والطائفة الثانية هم الذين لم يؤمنوا به ، وأُطلق عليهم دائما اليهود .

وذُكر المسيحيون فى القرآن بصفة عامة بالتسمية " نصارى " (المفرد نصرانى). ويعود الاسم إلى "nasrajé" السُريانية والتى تعود إلى اليونانية "Nazoraioi" ،

كما تمت الإشارة إلى المسيحيين فى الفارسية . وتحدث رئيس الكهنة أمام العزيز فيلكس الرومانى فى المسكونة أمام المسيحيين على أنهم "شيعة الناصريين" (٦) (أعمال الرسل : ٢٤ :٥) .

ويمثل النموذج القرآنى الوحدة الدينية : إله واحد ونص أصلى واحد أُخذت عنه كل كتابات الوحى ، وأمة واحدة ، ونبى صاحب رسالة . إلا أن العكس قد حدث فى تاريخ البشرية . وطبقا لرأى محمد (ﷺ) - كما ورد فى القرآن الكريم - فانقسام بنى إسرائيل إلى يهود ونصارى يطابق مبدأ كان فعالا فى تاريخ الخلاص . ففى الأصل وُجدت أمة مؤمنة واحدة : فآدم لم يكن الأب الأول للبشرية بل كان متلقيا لوحى إلهى وصاحب وحى إلهى ، وكان نبيا ومؤسس أمة آمنت بعقيدة الوحدانية . وينطبق الشىء نفسه بالنسبة لنوح ، الذى به بدأت مرحلة جديدة . وأدى وعظ الأنبياء إلى نتيجة مفادها أن الأمم التى أُرسلوا إليها انقسمت إلى مؤمنين ومشركين . وظهر فيما بعد أنبياء جدد ، وأُنزل على كل واحد منهم كتاب بالحقيقة ، ليحكموا به بين الناس ، فيما اختلفوا فيه (أو يختلفون فيه) . وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم (حول الكتاب أو المحتوى الحقيقى للوحى) الذى حصلوا عليه بعد أن تلقوا البراهين الواضحة (البقرة : ٢١٣) (٧) . وربما قُصد بالأدلة الواضحة المعجزات . وفى (سورة الشورى ١٣-١٤) تم عرض الأنبياء عرضا اسميا ونموذجيا وهم : نوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد (ﷺ) نفسه .ومضمون وعظهم " أقيموا (أحكام) الدين ولا تختلفوا (فى جماعات مختلفة) ... من بعد ما جاءهم العلم (يعنى الوحى) فاختلفوا فيه - بغيا بينهم - (فى جماعات مختلفة)". وبما أنه لا تزال توجد اختلافات فإنهم يستمرون بلا عقاب من الرب ، فسوف يدينهم ، وكما قيل فى نهاية الآية ١٤ من سورة الشورى فالرب أجل حسابهم فقط وسوف يوقع عليهم الحساب يوم القيامة ، وتظهر الحقيقة بعد ذلك وهى أن المؤمنين مستعدون للجزاء .

وقد تمت الإشارة إلى دعوة المسيح بالوحدانية مرات عديدة (الأنبياء : ٩٢، المؤمنون : ٤٩ ، الزخرف : ٦٣-٦٥) . ويدل اختيار الحواريين - (قارن متى ١٠ : ١-٤)

وفى القرآن ذُكـروا بــ :" أنصــار " – وبعـثـهم (لم يقـل شىء عن ذلك فى القرآن) على الانقسام ﴿ فَآمَنت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ (الصف : ١٤) . ويقف محمـد (ﷺ) موقفـا مشابهـا معلنـا الرسالة للعرب الوثنيين . وقد حذر محمد (ﷺ) ـ كمـا أشـار القـرآن الكريـم ـ المؤمنين بإلحـاح من الانقسـام إلى طـوائـف مختلفـة (آل عمران : ١٠٣) ، وفى الواقع فإن البشرية لا تزال منقسمة إلى أمم دينية مختلفة ، أما فى الإسـلام فقـد تحقق نمـوذج الوحـدة : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ (المسلمون) وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود : ١١٨ ، ١١٩).

وتدخل فى هذه الصياغة تعاليم القدر : الرب أراد أن توجد طوائف دينية مختلفة . فالمسلمون الذين رُحموا باتباعهم العقيدة الصحيحة والوحدانية ، كانت الرحمة مقدرة لهم فعلا قبل وجودهم " لذلك (أى للرحمة) خلقهم الرب " . ولذلك تم وضع نموذج آخر للتعدد الدينى وهو أن الانقسام لم يتسبب فيه البشر بل هو إرادة الرب (الأنعام : ٣٥، ١٤٩ ؛ الرعد :٢١). وإذا كانت هذه هى إرادة الرب فمن الضرورى أن يحترمها البشر ﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن (قسمكم إلى جماعات مختلفة) لِّيَبْلُوَكُمْ (من الوحى) فِي مَا آتَاكُمْ ... ﴾ (المائدة : ٤٨) . ويمكن أن تفهم الآية فى الزمن الحاضر بأن أراد مقابل تمنى أن يريد، ويقسم مقابل قَسم ... إلى آخره . وفيما بعد يوصف الوضع الدائم . وبما أن الرب يصدر عنه الخير فقط، فيجب احترام تنوع الطوائف المؤمنة . ويوجد فى الاقتباس التالى استحسان إحدى العقائد القائمة على الوحى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . ويمكن رؤية معنى التعدد الدينى على النحو التالى : إن الرب يريد أن يضع البشر تحت الاختبار . وعلى المؤمن فى التعدد الدينى أن يعرف إرادة الرب وحكمتـه ، حتى وإن كان لا يدرك هذا [٨] . وفى هذا النطاق ينبغى للمرء أن يفعل الخير كما ترسم العقيدة ، وينبغى له أن يسلك تجاه الديانات الأخرى مسلكا بسيطا . والقرار فى من يعتنق العقيدة الصحيحة هو : أن الرب سوف يخلصه عند الحساب ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة :٤٨).

فالتعددية الدينية نشأت إما عن طريق المشركين من البشر وإما أنها إرادة الرب. ويرجع النموذج الثالث لشرح هذه الظاهرة إلى فكرة التعدد العنصرى . وقد رأينا فى بداية هذا الفصل أن محمدا عُرِفَ بأنه نبى العرب ، وكما اعتقد فإنه دُعى ليعلن للعرب الرسالة بلغتهم ليتمكنوا من المشاركة فى الوحى الذى اختصت به شعوب أخرى من قبل . وبتعبير واضح تأتى قاعدة الاختصاص اللغوى فى القول التالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ (إلى أى شعب كان) إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم : ٤) . وقد قصد الشىء نفسه لأن محمدا أُرسل إلى شعب محدد ، وبما أن محمد النبى (ﷺ) رُمِز إليه بأنه أخوهم يبرز الارتباط الاثنى العرقى بين النبى والشعب . وبالمثل فقد كان هود أخا عاد (الأعراف : ٦٥) ، وصالح أخا ثمود (الأعراف : ٧٣) ، وشعيب أخا مدين (الأعراف : ٨٥) ولوط أخا سكان المدينة أى سدوم ، ولم يرد ذكر المدينة فى القرآن (الشعراء : ١٦٠) . وقياسا على ذلك يُذكر أيضا أن نوحا أخو البشر الذين أُرسل إليهم (الشعراء: ١٠٦) رغم أن الطوفان كان عقابا عالميا طبقا للتعاليم القرآنية ، وبناءً على ذلك تجب الإشارة إلى أن نوحا كان نبيا للأمة غير المنقسمة . ويعتبر الرمز " أخ " لا قيمة له هنا ولا حاجة له مطلقا والذى يفترض الارتباط الاثنى بين النبى وشعبه . ولم تُعرف فى القرآن على الإطلاق رواية بلبلة اللغات نتيجة بناء برج بابل. وقد تم شرح التعدد الاثنى مثل أشياء أخرى كثيرة ، على أنه تم بقدرة الإله الخالق (الفرقان : ٥٤).

والإشارة إلى النبى بأنه أخ تلفت النظر إلى ما ورد فى سفر التثنية (١٥:١٨) حيث أعلن الرب لموسى ببعث نبى" من بين إخوتك "، ويؤيد هذا الوعد قول ستفانوس الذى قاله قبل أن يُرجم ، ويشير إلى عيسى (أعمال الرسل ٧ : ٣٧). ويوجد فى القرآن إشارة إلى أن النبى ينسب إلى "مجموعة خاصة " وهو معنى الأخ نفسه . وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ (الوثنيين) رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ (باللغة العربية) وَيُزَكِّيهِمْ (من نجاسة الوثنيين) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (باللغة العربية) ﴾ (الجمعة : ٢ ويشبه ذلك : البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ، آل عمران : ١٦٤) .

والآن يُطرح السؤال : فى أى تسلسل يمكن رؤية النماذج الثلاثة لشرح التعددية الدينية ؟. بلا شك يُفترض أن التفسير المؤسس على التعددية الدينية هو الأقدم ، لأنه يوافق الديانات والشعوب كلية باستثناء الوثنيين . وعندما طور محمد (ﷺ) - كما ورد فى القرآن الكريم - هذه النظرية كان لا يزال مقتنعا بألا يعلن شيئا آخر عن سابقيه فيما يتعلق بوظيفة النبوة ، وأن اليهودية والنصرانية والإسلام متطابقة فيما يختص بتعاليم العقيدة ومبادئ الكتاب . ولأن هذا الاعتقاد ارتبط من ناحيته بالمعرفة الناقصة فقد سُجل هامشيا . وإلى هذه المرحلة تنسب الإحصائيتان المتضمنتان الديانات فى سورتى (البقرة : ٦٢، والمائدة: ٦٩) . وشرح التنوع نتيجة الأخطاء ورفض البعث النبوى ، قد صح فيما بعد كلية ، وحل محلها النموذج القائم على التنوع الاثنى . وفى هذه المرحلة قرر محمد (ﷺ) - كما رسم القرآن - وضع الوحدة بالقوة إن دعت الضرورة إلى ذلك . ويظهر أنه لم يتخوف من استخدام القوة أثناء تصرفاته ضد اليهود فى المدينة . وعندما صار سلطانه قويا وكبيرا ، وتوسع أفقه السياسى ، بعثه ذلك على التفكير فى موقف عملى تجاه اليهود والنصارى . ثم دخل بعد ذلك المجوس فى مجال رؤيته، كما يظهر ذلك من القائمة الشاملة للأديان الواردة فى سورة (الحج : ١٧) . وفى المرحلة الثالثة رأى السلامة فى التسامح دون أن يقدم أى امتياز عملى ولو قليل . والموقف الجديد لا يعنى شيئا آخر إلا أن يبقى تنفيذ حكم الرب وتأجيله إلى يوم القيامة .

ثانيا - اليهود والنصارى

إن التغير الذى خضع له موقف محمد (ﷺ) تجاه أهل الكتاب ، من الموافقة غير المحدودة إلى التنصل الجوهرى ، انعكس فى المصطلح العلمى . وفى بداية الأمر شمل مصطلح " أهل الكتاب " اليهود والنصارى وأصحاب الديانات الأخرى التى ثار بينها جدال ، ولكن مع تزايد المعرفة ، تم التفريق بوضوح بين اليهود والنصارى . ومع هذا التفريق أعلن فعلا الانفصال عنهما، وقد حدث الانفصال فى البداية عن اليهود

ثم عن النصارى بعد ذلك ، ثم حدث فى النهاية الانفصال الكامل . فاللوم والاتهامات التى وُجِّهَتْ لليهودية أو المسيحية أو لهما معا أصبحت سارية عليهما معًا باستخدام مصطلح " أهل الكتاب" مطلقا ، كما استعمل فى البداية . ومن الطبيعى أن هذا التطور لم ينشأ طفرة واحدة من تلقاء نفسه . حيث وجدت بين الفترات الثلاث فترات انتقال . وفى كل مرحلة منها استعمل إلى جانب المصطلح العلمى العام المصطلح العلمى الخاص وذلك يعنى تسمية كل دين باسمه الخاص .

وقد كانت **المرحلة الأولى** من عمل محمد (ﷺ) فى مكة من بداية دعوته فى عام (٦١٠) وحتى الهجرة (أى فترة اثنتى عشرة سنة فيما بعد) ، متشابهة على وجه الإجمال . وقد كان عام (٦١٤) النقطة الثابتة زمنيا بالنسبة لموقف محمد (ﷺ) الودى تجاه النصارى ، فقد وقعت فيه هزيمة البيزنطيين من الساسانيين ، كما توضح سورة الروم (٢- ٥) ، وقد كان ذلك واضحا عند محمد (ﷺ) فيما يتعلق بالنسبة لبيزنطة ، وبذلك أخذ موقفا من النصرانية . وقد أعلن الصراع مع الوثنيين فى مكة عن قبول الموقف تجاه بيزنطة . وقد تزايد فى العصر التالى ووصل إلى ذروته لأول مرة فى الرفض الذى انعكس فى سورة الكافرون وذلك بهزيمتهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ . ومع التهديد المتزايد ضد جماعته الصغيرة توجه محمد (ﷺ) إلى إثيوبيا النصرانية ، وأرسل إلى هناك مجموعة من المؤمنين . ومن غير المعروف ماذا هدف من وراء ذلك ؟ وطبقا لأى رؤية اختار الهجرة ؟ [9] . وليس هناك مجال للشك على الإطلاق فى أنه اعتمد كلية على النصارى آنذاك .

وفى أثناء الجدل مع الوثنيين سعى إلى قبول وتأييد اليهود والنصارى ، وقد توقع ذلك منهم وهو فى مكة لأن الدعوة إلى الإسلام كانت لا تزال فى مرحلة التطور ، وكانت لا تزال المعالم الواضحة غير كافية ، والقليل منها كان محايدا . وقد اضطر محمد ﷺ إلى أن يُظهر اليهود والنصارى كأنهم واحد ، مقارنة بمظهر وشعائر الوثنيين . وقد تطابقت هذه الرؤية ولو جزئيا معهم لاسيما أن النبى نفسه كان يرى أن : معرفة

الإسلام لا تختلف جوهريا عن عقيدة أتباع الوحى القديمة . وفى هذا الوضع نقرأ : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص : ٥٢-٥٣) .

وأما وجهة النظر الوثنية فتظهر أن اعتماد القرآن على الكتاب المقدس يبدو مختلفا تماما . ومن الطبيعى أن محمدا كان متلقيا للوحى ، إلا أن الوثنيين يتبنون الادعاء العكسى وهو أن القرآن ليس سوى انتحال للكتاب المقدس ولذلك يقول عنهم القرآن : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤-٥) . وتمت الإشارة من قبل إلى أمثلة أخرى من ذلك . وبدأ بالازدراء تجاه الانسجام بين المسلمين وأتباع ديانات الوحى فى نهاية الفترة المكية . فحاول اليهود والنصارى التخلص من محاولة احتضان النبى ، وأدى ذلك إلى مجادلات معهم . وكان لا يزال محمد (ﷺ) مهيأ لأن يجادل بموضوعية ، ففى القرآن ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) . وبما أنه استثنى الظالمين ، نتج من ذلك انقسام اليهود والنصارى فى علاقتهم بالمسلمين . ويظهر ذلك فى مواضع أخرى حيث يختلف حكم أهل الكتاب ، لأن بعضهم فقط يفهم الكتاب صحيحا ويقرأه صحيحا (البقرة : ١٢١) ووجد من بينهم البعض الذى يعترف بأجزاء من القرآن (الرعد ٣٦) وبعضهم يحاول أن يردكم بعد إيمانكم كافرين (آل عمران : ١٠٠) .

وبحدوث الهجرة فى سبتمبر (٦٢٢) بدأت **المرحلة الثانية** من علاقة محمد (ﷺ) بأهل الكتاب . وقد كانت له فى مكة علاقات متقطعة مع اليهود والنصارى ، أما فى المدينة فقد وجد أمامه ثلاث عشائر مترابطة من اليهود ، بينما توارى النصارى إلى حين خلف الستار . ووضع محمد (ﷺ) كل شىء فى البداية ليكسب اليهود إلى جانبه، وذلك بالاقتراب منهم ـ كما ذكرنا سابقا ـ وينطبق ذلك على قبول الطقوس الشعائرية

مثل التوجه إلى القدس أثناء الصلاة . ووصل هذا الوضع من العلاقات الإسلامية – اليهودية إلى نهايته مع توقف التوجه إلى القدس أثناء الصلاة، وذلك فى فبراير ٦٢٤ ، قبل معركة بدر بقليل وهو أول صراع كبير مع المكيين . وبما أن المجادلات آنذاك قد مورست فعليا فإنه تم وصف الوضع الجديد عن طريق استخدام القهر بصورة واضحة ، وصار ذلك واضحا لأن اليهود لم ينجحوا فى المساهمة فى الحرب ضد أهل مكة . وتم استبعاد عشيرتين من اليهود من المدينة ، هما : بنو قينقاع (٦٢٤) ، وبنو النضير (٦٢٥) وذلك بعد معركة أُحد بقليل ، والتى أضرت بالمسلمين وأدت إلى كارثة . وحدث أسوأ من ذلك لبنى قُريظة ، وذلك بعد معركة الخندق بزمن قليل والتى بدأت عام ٦٢٧ (١٠) . وتمت إبادة رجال بنى قُريظة بلا استثناء، وسُبِيَتْ النساء والأطفال ، ووُزعت الأملاك على المسلمين (١١) .

وبدأت بعد ذلك **المرحلة الثالثة** من العلاقات الإسلامية – اليهودية . وتم رسم هذه المرحلة عن طريق موقف محمد (ﷺ) المرتقب . وأعلن أن اليهود مشركون فعلا ، ولكن غض البصر عن ذلك لأسباب غير معروفة . وترك الحكم للرب ، الذى سوف يفصل يوم القيامة فى النزاع بين اليهود والمسلمين .

وفيما يتعلق بمرحلة التقارب هناك أيضا محاولة التعرف على المائدة المقدسة وأطعمة اليهود ، وذلك علاوة على التوجه فى الصلاة إلى القدس. وسُجلت شروط ذلك فى سورة المائدة . ويعد حلالا طبقا للآية الثالثة وما بعدها لحم الحيوانات التى تُذبح على وجه صحيح ، وهذا يعنى ذكر اسم الله عليها . ويُعد محرما لحم القرابين الوثنية ، والميتة ، ولحم الخنزير والدم . وبتحريم الحيوان المصطاد بالسهام ألغى طقس وثنى لعب دورا مهما فى حياة العرب (١٢) . ووُضع بوضوح ما يتصل بقانون الطعام اليهودى فى الآية الخامسة ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ ، والجملة المتصلة متشابهة ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ . وغضب اليهود لأن القرآن لم يصرح بسن قانون الطعام اليهودى . واحتل قانون الطعام اليهودى مكانة مهمة فى الجدل ضد اليهود الذى تطور فيما بعد . وربما أقحمت الآية الرابعة متأخرا فى هذا الموضع ، فهى تكرر موقف

القرآن الأصلى الذى لم يمس قانون الطعام اليهودى مطلقا . وهنا شرح كل شىء على أنه مباح ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ ، وارتبط بذلك شرح لإباحة الحيوانات البرية التى تُصطاد ، وهنا يُشار إلى الصقور كلية ، وأُحل ذلك بشرط ذكر اسم الله عليها قبل أن تُأكل ، وقد كان ذلك بغيضا بالنسبة لليهود حيث يفسر قانون الصيد بأنه غير مسموح به مطلقا . ويظهر نمرود وعيسو فى التوراة صائدين وعصاة ضد الرب . وعلاوة على ذلك يسرى على الصقور عند اليهود أنها طيور غير طاهرة . كما أن الأحكام المتضمنة فى الآية الخامسة والمرتبطة بالمحصنات لم ترض اليهود . وسُمح للمسلمين الزواج من غير النساء المؤمنات ، هذا يعنى المسلمات ﴿ والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ ، وبالفهم الدقيق للأحكام يستمر تحريم زواج النساء المسلمات من اليهود .

وقد كانت مثل هذه القواعد صالحة إذ حدثت بعد الهجرة مباشرة [١٣] ، وعرضت التوافق مع اليهود للخطر . ويسرى ذلك أيضا فيما يتعلق بتغيير قبلة الصلاة من القدس إلى مكة . ويدخل هذا الإجراء فى نطاق إعلان عقيدة أن إبراهيم كان أول المسلمين وقد شيد الكعبة (أو طهرها من الأوثان) ، وذلك فى نطاق المساعى للافتراض بوراثة الكتاب ووظيفة النبوة من إبراهيم وحتى محمد (ﷺ) . وبما أن الكتاب مُنح بالوراثة فقد تمت الإشارة إلى ذلك مرات عديدة فى القرآن وذلك دون توضيح مَنْ ورثه مِن مَنْ (الأعراف: ١٦٩، فاطر : ٣٢ ، الشورى : ١٤) . ويُقال عكس ذلك بوضوح كامل فى سورة (غافر : ٥٣) بأن بنى إسرائيل ورثوا الكتاب من موسى . فالوحى استمر فى التواصل مع وظيفة النبوة من جيل إلى جيل وبالأسلوب نفسه، وعلى سبيل المثال ورث الإسرائيليون الأرض من المصريين (الشعراء :٥٩) ، وورث سليمان داود (النمل: ١٦) . ويوجد إبراهيم فى بداية سلسلة النسب ، وكما يظهر فى سورة (آل عمران : ٣٣) فسلسلة نسب المسيح تعود إلى آدم . وبينما يُشار إلى آدم ونوح على أنهما شخصيات فردية وأنبياء فرديون، فإن الحديث عن إبراهيم يكون عن " آل إبراهيم" (بما فى ذلك أيضا " آل عمران " التى ينتسب إليها المسيح) . وآمن إبراهيم (مريم : ٤١-٤٨)، لذلك وُهب إسحاق وفيما بعد يعقوب ﴿ وَكُلاً جعلْنَا نَبِيًّا ﴾

(مريم : ٤٩) وبما أن إسحاق صار نبيا ، قيل ذلك فعلا من الملاك عند شجرة البلوط (الصافات : ١١٢) . وتخبر الآية (٢٧) من سورة العنكبوت تتابع الأمر بعد ذلك ﴿ ووَهَبْنَا لَهُ (إبراهيم) إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ ﴾ . ومن الضرورى أن يذكر إسماعيل إلى جانب إسحاق والذى يعتبره العرب أباهم الأساسى . وتم عرض قائمة الميراث فى سلسلة من الأنبياء على النحو التالى : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب (الأسباط ، ومن الطبيعى ، يقصد أبناء يعقوب الاثنى عشر أى أبو الأسباط الاثنى عشر والذين يشكلون فى مجموعهم بنى إسرائيل)، وموسى وعيسى ، وجميعهم أنبياء (البقرة : ١٣٦، آل عمران : ٨٤ ، النساء : ١٦٣ الجزء الأول) . واقتصرت القائمة فى سورة الشورى (١٣) على إبراهيم وموسى وعيسى ، ثم فى سورة الأعلى (١٩) على إبراهيم وموسى ، وذُكر فى الموضع الأخير صحف إبراهيم وموسى ، ويستنتج من هذا أن محمدا كان مقتنعا بأن إبراهيم قد تلقى وحيا [١٤] .

وينضم محمد (ﷺ) إلى قائمة الميراث التى يشرح فيها أن العرب ذرية إبراهيم . فإبراهيم ليس مشيد الكعبة (أو مطهرها) فحسب (البقرة : ١٢٥ ، ١٢٧) ، بل أمره الرب " ببناء الكعبة " لتكون مقاما (الحج : ٢٦) . وظهر إسماعيل فى التطور التالى لهذه الرواية ، فقد ساعد أباه فى أثناء بناء أو تطهير الكعبة ، واتخذ مسكنا فى مكة . وينسب محمد (ﷺ) إلى ذرية إسماعيل.

وإن أخبار البناء المشيد بصورة فائقة وما يتصل بميراث الكتاب والنبوة وبأن إسماعيل الأب الأصلى للعرب ترد أسسها فى وصف الكتاب المقدس وبخاصة طرد هاجر أم إسماعيل وحياته فى الصحراء على أنه نَبَّال (التكوين : ٢١). وعندما توفى إبراهيم تصالح إسماعيل مع إسحاق ودفنا إبراهيم معًا فى مغارة . وقُسمت ذرية إسماعيل إلى اثنى عشر سبطا لتطابق الإسرائيليين واستوطنت هذه الأسباط فى مخيمات فى الجزء الشمالى من شبه جزيرة العرب (التكوين : ٢٥) . ويُستفاد من هذه المعلومات الواردة فى الكتاب المقدس فى نظرية محمد (ﷺ) : بأن إسماعيل كان

جد العرب ، وعلى العكس من ذلك لا يوجد أى دليل فى الكتاب المقدس على أن إبراهيم (وإسماعيل) مُشيِّدا الكعبة .

ووضعت فى البحث الغربى نظريات متفاوتة حول إبراهيم فى تصور محمد، وعلاقته بالكعبة. فنادى" سنوك هرخرونية " بالرأى القائل : إن محمدا افترض رواية بناء إبراهيم للكعبة لأنه أراد أن يثير دافع المسلمين لاستعادة الكعبة وإعادة عبادة التوحيد إليها (١٥) . ويوجد فى القرآن دليل حول هذا الدافع (البقرة : ٢١٧) . ومع ذلك يجب على المرء أن يعود إلى تتبع ارتباط علاقة إبراهيم بالكعبة إلى ما قبل الهجرة . وعلاوة على ذلك فإن القرآن – فى المقام الأول – ليس مصدرا للأخطاء التى يحاول المرء أن يثبتها على محمد (ﷺ) ، وبخاصة عندما يقارن المرء أقواله مع الكتاب المقدس ، بل إن القرآن مصدر للرؤى والتعاليم التى كانت شائعة فى عصره فى شبه جزيرة العرب . ويتخذ" مبارك " موقفا عكس موقف" هرخرونية " حيث ينظر إلى وجود إبراهيم فى الحجاز بأنه حقيقة تاريخية ، ولعب دورا أساسيا عند محمد (ﷺ) فى بداية عمله ، وأما رواية بناء الكعبة من قِبَلِ إبراهيم ليست أكثر من خرافة مقصودة (١٦) . وبذلك يفترض " مبارك " مبدأ حل وسط للمسلمين فيما يتعلق بالمضمون الحقيقى التاريخى للأقوال القرآنية . وبين كلا النقيضين يتوسط "إ. بيك " فيعترف بأهمية إبراهيم فى تعاليم محمد (ﷺ) قبل الهجرة ، ولكنه يرى فى الاقتباس التاريخى الخاص بوجود البطاركة موضع تساؤل (١٧) .

وتمثل رواية إبراهيم أنه أول مسلم ومشيد الكعبة ، عنصرا واحدا فى تعاليم محمد (ﷺ) من ميراث الكتاب والنبوة . وهى تستعمل فى المقام الأول كدليل ضد يهود المدينة لأن محمدا شرعا يعد نبيا مرسلا من الرب للعرب ورثة إسماعيل من إبراهيم.

ثالثا - خطايا اليهود

لم يجد محمد (ﷺ) أى استجابة من قبل يهود المدينة . فعارضوا تعاليمه التى بدت غريبة فى آذانهم وكانوا غير مستعدين لدعمه أثناء تحقيق خططه بخصوص مكة والعرب الوثنيين . ووصل الحوار بين محمد (ﷺ) واليهود إلى القطيعة وذلك بعد الهجرة بقليل . وطُبِعَ الحوار منذ ذلك الحين بطابع العداء . وانعكس هذا الحوار فى القرآن بأساليب متنوعة . ومن الناحية الشكلية يمكن للمرء تقسيم موضوعات التأنيب المعلنة ضد اليهود إلى ثلاث مجموعات ، الأولى : روايات متناثرة من الكتاب المقدس أراد محمد (ﷺ) عن طريقها تدعيم رأيه . الثانية : وجود قوائم تم فيها إحصاء أخطاء بنى إسرائيل ومعظمها معتمد على روايات من الكتاب المقدس. الثالثة : تناول أخبار مفردة جزء منها أُخذ من روايات الكتاب المقدس ، وجزء منها يرجع إلى الأحداث المعاصرة أو تعاليم وطقوس اليهود .

والبراهين ضد اليهود بعضها نصرانى الأصل ، ويستطيع المرء أن يقرأ بعضها فى العهد الجديد فى النصوص الشعائرية وعند رجال لاهوت الكنيسة القديمة والتى تستعمل ضد اليهود.

وتوجد فى سورة البقرة (٤٩ - ٦١) قائمة بأعمال الفسق وهى مستمدة من الكتاب المقدس : فالرب يَذْكر فضله ويضع مقابل ذلك جحود بنى إسرائيل ، وسريعا ما يتبع غفران الرب الجحود ، ويتبع ذلك باستمرار نكران جديد . فالقائمة تبدأ بخلاص بنى إسرائيل من قبضة المصريين وغرقهم فى البحر فى حين راقبهم بنو إسرائيل (الآيات ٤٩- ٥٠) . وإحسان الخلاص من البحر تبعه فضل آخر ، هو: وحى الرب فى سيناء ، إلا أن بنى إسرائيل صنعوا العجل الذهبى وضلوا عن عبادة الرب (٥١- ٥٢) . ويتكرر ذلك فى الآيتين التاليتين ولكن بكلمات أخرى (٥٣- ٥٤) . وبعد ذلك طالب بنو إسرائيل موسى قائلين ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (٥٥). وهنا يفقد الحد الأول أى إحسان الرب . ولا شك فى أن يكتمل الأمر بأن موسى نزل بالألواح من الجبل وطالب بنى إسرائيل بقبول الشريعة لأنها وحى إلهى ، ثم وجهوا

إليه طلبهم المذكور آنفا . وكان عقاب ذلك الرعد وسقوط بنى إسرائيل أمواتا على الأرض ، ثم بعثهم مرة أخرى للحياة (٥٦) وهو ما يفسر استحقاق العفو . وتبع ذلك فضل الرب فى الموكب عبر الصحراء حيث الغيوم والمن والسلوى؛ فقدمت الغيوم الظل ولم تكن وظيفتها قيادة بنى إسرائيل كما يقُص الكتاب المقدس (الخروج ١٣ : ١٢ وما بعدها) بل كانت وظيفتها حمايتهم من حر الشمس مثل الخيمة . ثم تم تقديم الطعام مع توجيه ﴿ كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . إلا أن بنى إسرائيل كانوا غير شاكرين ومعاندين ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧) [١٨] ولم يُصرح هنا ممن نشأ الإثم . ربما قصد قانون الأطعمة اليهودية ، والذى تحدث عنه فى غير هذا الموضع ، والذى فرضه بنو إسرائيل على أنفسهم قبل أن يكون وحى التوراة قد أباح لهم كل الأطعمة (آل عمران ٩٣) ويعنى التوجيه المرتبط بأكل الطعام فى الصحراء مع فضائل الرب : أن قانون الأطعمة اليهودى ونظمه المعقدة لم يكن ساريا . وطُلب بعد ذلك من بنى إسرائيل ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ (٥٨) . وهذا يستند إلى أمر الرب الصادر لموسى بالاستيلاء على الأرض الموعودة (المائدة ٢٠- ٢٦) [١٩] . وأُحلت كل الأطعمة فى أرض الميعاد : ويدور ذلك حول الترخيص المشابه الذى ارتبط بالمن والسلوى التى كانت أطعمة ملائمة للصحراء . ولأن بنى إسرائيل أَبَوا فتح أرض الميعاد أُجبروا على التجوال فى الصحراء أربعين عاما (المائدة ٢٦) وقارن (اللاويين : ١٤) .

وتختم قائمة فضل الرب وآثام بنى إسرائيل فى سورة البقرة بمعجزة ماء الصحراء بيد موسى (الخروج ١٧ : ١-٧) وعدم رضا الشعب بالطعام الذى وهبه الرب إياهم (العدد: ١١: ٤-٦) . ويظهر من العتاب الموجز الوارد فى هذا الموضع أن بنى إسرائيل كانوا غير مؤمنين ، وقتلة الأنبياء ، ومعاندين ، ورافضين لوصايا الرب . وتم إيجاز العقاب الذى وقع عليهم فى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٦٠-٦١) وهذا يشير بلا شك إلى دمار الهيكل وتشرد اليهود بين الأمم.

وتوجد قائمة مشابهة فى سورة النساء (١٥٣- ١٦٢) . وكان الدافع لذلك مطالبة اليهود أن يُنَزَّل على محمد (ﷺ) كتاب من السماء ليكون برهانا لنبوته . وأجاب النبى بتوبيخ معروف من القائمة الأولى ، لأن بنى إسرائيل طلبوا من موسى أكثر من ذلك (أن يروا الله جهرة) . وبعد ذلك عبدوا العجل الذهبى لكن لم يحتسب الرب ذلك عليهم (آية ١٥٣) . وتبع ذلك قطع العهد فى سيناء ، ثم أمرهم الرب بامتلاك أرض الميعاد ، ثم أمرهم بصلاة السبت . ورغم ذلك نقض بنو إسرائيل العهد ، وكفروا ، وقتلوا الأنبياء ولم يخافوا أن يُدِينَهم الرب على آثامهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ (١٥٤- ١٥٥) [٢٠] . وأُكملت هذه القائمة بالخطايا ضد مريم والمسيح . فقدموا وشاية ضد مريم لأنها ولدت ابنا دون أن تتزوج (١٥٦) . وهنا أُتيحت الفرصة لتوضيح التوبيخ بأن بنى إسرائيل قتلة الأنبياء والبرهان على اشتراكهم فى جريمة صلب المسيح ، إلا أن هذا الاتهام لم يظهر . لأن إثم اليهود لم ينشأ من قتلهم المسيح بل الادعاء بأنهم حاولوا قتله (١٥٦ – ١٥٧) . وكما أخبر محمد ﷺ - طبقا لما ورد فى القرآن الكريم - فإن المسيح رُفع إلى السماء ليقبض أعداءه (١٥٨) . وتختم القائمة بإحصاء المعاصى التى يُسمع صداها فى العهد الجديد وهى : صدهم كثيرا عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، وخداعهم الناس بأسلوب الغش وحبهم له (١٦٠ – ١٦١) . وبالإضافة لقتلهم الأنبياء ينوه بصيحة ألم المسيح حول الكتبة والفريسيين "غلَّقوا ملكوت السموات أمام الناس ولا تدعوهم يدخلون، لأنهم يريدون الدخول ، أكل بيوت الأرامل . هم أبناء قتلة الأنبياء" (متى ٢٣:٢١-٣٣)، ونادى المسيح على أورشليم صارخا : " أورشليم أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين " (٢٣: ٣٧ ...).

وبينما قائمة عقوبة الخطايا الواردة فى سورة البقرة ناجمة عن احتقار اليهود وبغيهم العيش فى ضنك (٦١) ، فإن العقوبة الواردة فى سورة النساء تُظْهر أن الرب حرم عليهم الطيبات التى كانت قد أُحلت لهم (١٦٠) . وهذه الصياغة تدعو إلى التفكير فى قانون الطعام اليهودى المتشدد . وقد رأينا من قبل أن رأى محمد (ﷺ) - كما رسمه القرآن - يدور حول أن كل الأطعمة كانت حلالا قبل وحى التوراة ، وأن الإسرائيليين نظموا لأنفسهم قانون طعام بدون أن يكون بأمر من الرب. وهنا يفسر

قانون الطعام بأنه عقاب للخطايا . والهدف نفسه يُلحق بقانون الطعام فى مواضع أخرى : ففى نهاية إحصاء اللحوم التى حرمها اليهود يقول محمد (ﷺ) ـ كما ورد فى القرآن الكريم ـ : ﴿ حَرَّمْنَا (يعنى الله) عَلَيْهِمْ (جزاء عصيانهم) ﴾ (الأنعام : ١٤٦) .

وتوجد علاوة على الأخطاء المذكورة فى القوائم بعض الخطايا التى ذُكرت بصورة مفصلة ، وهى متطابقة إلى حد ما مع الأخطاء السابقة . وتحتل فترة الارتحال من مصر مجالا واسعا فيه خلط اليهود السلوك غير الموضوعى والمخالف للشريعة بالكتاب المقدس. وتكرر القول إنهم أخفوا الكتاب والآيات البينات والحقيقية (البقرة ١٥٩، ١٧٤) ، مع أنهم يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم (البقرة ١٤٦ ، الأنعام ٢٠) وهم يفعلون ذلك رغم أنهم أُمِرُوا من الرب بتوضيح الكتاب للناس وألا يخفوه (آل عمران ١٨٧) . ويبدو أن السرية تشمل جزءًا من الكتاب فقط . وورد أنهم كتبوا الكتاب على قراطيس وأبدوها لكنهم أخفوا فى الوقت نفسه الكثير منها (الأنعام ٩١) . وربما يدل التوبيخ بالسرية على حفظ لفائف من الكتاب فى المعبد وما أشير إليه فى التلمود فعلا ، وما التزم به فعلا فى المدينة [٢١] . ومن المحتمل أيضا أن محمدا (ﷺ) قد تبنى التأنيب المسيحى ضد اليهود . ويعتمد هذا التوبيخ على القداسة المسيحية للعهد القديم كما هو متوارث فى الترجمة السبعينية التى كانت متداولة فعلا وكانت أكثر انتشارا من النص العبرى الذى كان محدودا. وقد فهمت الكنيسة الأبوكريفا فى بادئ الأمر على أنه "الخفى"، أى الكتب السرية التى كان محتواها إلحاديا ولم تكن معروفة . وقد أطلق هيرونيموس (Hieronymus) (ت. ٤١٩– ٤٢٠) هذا الاسم على أسفار العهد القديم غير الموجودة فى الناموس اليهودى بدون ربط قيمة هذه الأسفار . والواقع فقد أمكن تأنيب اليهود طوال العصور بجعلهم مضمون هذه الأسفار سريا بعد إعلانهم إياها فى ناموسهم [٢٢] . لذلك فإن توبيخ القرآن يعد مناسبا بأنهم أظهروا جزءا من الكتب وأخفوا الكثير منها . لكن اليهود يعرفون الكتاب " مثل أبنائهم " وهذا يعنى فى الحقيقة أنهم يعرفون ماذا ينسب إلى الناموس وما لا ينسب ، تماما كما يعرف الأب أن هذا الشخص ابنه أم لا . والسرية ليست قائمة على الجهل لكن يقصد بها ما يوازى التزوير.

ويعد أقل وضوحا اللوم بأن اليهود حرفوا الكتاب ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة ١٣ ، وشبيه بذلك النساء ٤٦) . وجماعة من اليهود ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ (البقرة ٧٥). وأصبح تأنيب التحريف جزءًا ثابتا من برنامج الجدل الدينى ضد اليهود (والنصارى) [٢٣] . ويظهر للمرء من مقارنة نصوص الكتاب المقدس مع القرآن أن أهل الكتاب انحرفوا عن تعاليم مؤسسيها الذين علموا الإسلام الخالص.

وأكثر من هذا التأنيب المذكور الذى يبدو مقنعا فإن اليهود يبيعون الكتاب (حرفيا يبيعون للحصول على ثمن قليل) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة : ٧٩) . ويشبه ذلك تماما ما تقصده الآية (١٧٤) من سورة البقرة حيث يرتبط جزاء بيع الكتاب بمن يخفيه . والعقوبة الملائمة لجشعهم هى عقوبة النار ، فهم " لا يحصلون فى بطونهم على شىء أكثر من النار ليأكلوها " [٢٤] . وربما يقصد من ذلك إنتاج خرقة مناسبة من تميمة من نصوص الكتاب المقدس . وذكرت فى العهد الجديد التِّفلِّين بالاسم غير المقبول "Phylakerim" (متى ٢٣ : ٥) . وتعنى حرفيا " واقية " وهذه تعنى تميمة ، والكلمة توجد فى سياق الجدل ضد الكتبة والفريسيين الذين يضعون أحزمتهم أثناء صلاتهم .

وتواصلت آثام اليهود بأساليب مختلفة مثل : التعسف فى فهم الكتاب ، مما أدى إلى إخراجهم الناس من ديارهم (البقرة ٨٥) ، وشعيرة السبت (البقرة ٦٥، الأعراف ٦٠) ، وأخذ الربا (النساء ١٦١) ، واختلاس أملاك المساكين بحجة إباحته مع الوثنيين (آل عمران ٧٥) . ووجه اتهام ضد أحبار اليهود (وكذلك الرهبان النصارى) وهو : أكل أموال الناس بالباطل وحبهم لذلك (النساء ١٦١ ، التوبة ٣٤) . ويُقال مثل ذلك عن الفريسيين والكتبة فى العهد الجديد (متى ٢٣: ١٤) . والمعنى نفسه أى أكل اليهود المال بالباطل (المائدة ٤٢) بدون أن يمنعهم الأحبار والربانيون (المائدة ٦٢-٦٣) . وربما أكثر ضلالا من التعدى على المحرمات، أن يشرح اليهود (باسم الرب) أعمالا محرمة وكانت محللة ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة ٧٩) . ربما قصد قانون الطعام الذى ذكر من قبل ، كما ذُكر آنفا أن الإسرائيليين تعسفوا فى أحكامه .

ولم يسلك اليهود مسلك اعوجاج أخلاقى فحسب ، بل ارتكبوا أخطاء مذهبية، فشرحوا أن عقاب النار يكون لفترة محدودة (البقرة ٨٠ ، آل عمران ٢٤) وادعوا أن الرب توقف عن العطاء ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة ٦٤) [٢٥] . وشغلت الفكرة اليهودية أنهم شعب مختار دورا ثانويا فى جدل محمد (ﷺ) . وقد ادعوا أنهم" أحباب الله" (الجمعة ٦)، والجنة تخصهم وحدهم (البقرة ٩٤) . وشرح القرآن هذا السلوك المتكبر بدعوة تهكمية ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ (البقرة ٩٤) .

ويتحدث القرآن كثيرا عن العقوبات التى تحل باليهود بسبب آثامهم . وبسخرية فإنه يقارن آثامهم الموجودة فى التوراة ، بأنهم يحملون الأسفار دون أن يفهموا ما بها مثل الحمار (الجمعة ٥) . وقيل مرات عديدة إن القانون المتشدد وُضع لليهود عقابا لأخطائهم ، وينسب إلى ذلك قانون الطعام المتشدد (المائدة ١٤٦) ، وكذلك الوصية بالراحة يوم السبت (النحل ١٢٤) . وأعنف من ذلك قيمة اللعنة التى وضعها الرب عليهم ﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ (المائدة ١٣) . وأصابتهم اللعنة لتدنيسهم السبت (النساء ٤٧، المائدة ٦٠) ، وكتمان الكتاب (البقرة ١٥٩) ، وممارسة عبادة الأوثان (النساء ٥١-٥٢). ثم يستشهد بلعنهم من داود والمسيح ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (المائدة ٧٨) . وربما تعود اللعنة عن طريق داود إلى المزمور (١٠٩) " طلب الخلاص من لعنة الأعداء " والذى يشمل اللعنة ضد أعداء داود . ويجد أوغسطين دليلا على صلب المسيح ولعنة اليهود فى المزمور (٦٨) [٢٦] . وعندما وضعوا اللعنة فى مرتبة مع التعدد (المؤمنين بتعدد الآلهة) (النساء ١١٨ ، الأعراف ٣٨) ، ومع شعب عاد الكافر (هود ٦٠) ، وفرعون (هود ٩٩، القصص ٤٢) ومع الشيطان عدو البشرية بأسرها (الحجر ٣٥-٣٨ ، ص ٧٨) . ومن تحل عليه لعنة الرب ، يُحكم عليه يوم الحساب بالنار (هود ١٨ ، الرعد ٢٥ ، الأحزاب ٥٧ ، غافر ٥٢).

وتدل لعنة اليهود على ذروة التحريض ضد أتباع الدين الموسوى . ويفترض أن هذا التحريض قد حدث فى عصر مذبحة بنى قريظة . وفيما بعد أخذ النبى موقفا معتدلا وترك الحكم على اليهود للرب . وتأتى هذه التهدئة على أثر الموقف السياسى العملى الذى وجد محمدا (ﷺ) فيه نفسه مرغما عليه بعد أن اتسع نطاق نفوذه وصار ضروريا أن يعقد حلفا مع النصارى والزرادشتيين بالإضافة لليهود . وقد أعطت له الهدنة مع أهل مكة عام ٦٢٨ فرصة الهجوم تجاه الشمال. واستولى فى مايو/ يونيو من العام نفسه على خيبر ، وهى عبارة عن واحة تم ذكرها من قبل وتقع شمال غرب المدينة ، وعقد معاهدة مع السكان اليهود الذين يمثلون الأغلبية وصاروا قوة بعد نزوحهم من المدينة ، وتنص المعاهدة على استمرارهم فى أملاكهم على أن يعملوا مستأجرين لدى المسلمين . وبعد تردد فى البداية يبدو أن محمدا (ﷺ) قد غير اتجاهه إلى خط معتدل، وكان قد قصد من قبل إبعاد اليهود [٢٧] . وبالتأكيد لعبت الأفكار الاقتصادية دورا ، ومن الطبيعى أن المعاهدة كانت مربحة بالنسبة للمسلمين أكثر من امتلاك واحة خالية من البشر . وقد كان محمد (ﷺ) فطنا إلى أن اليهود لا يمكن إرغامهم على دخول الإسلام . وخولت لهم هذه المعاهدة حرية العبادة . وهكذا تم وضع المرونة فيما يتعلق بالسياسة المستقبلية تجاه أهل الكتاب ، أيا كان الاشتقاق. وانحسر ذلك فى ترك حرية العبادة لهم ، والتزامهم بدفع الجزية للمسلمين (التوبة ٢٩) [٢٨] . واتخذت هذه السياسة أنماطا عينية ، فعلاوة على فتح خيبر تم فتح مدن أخرى بها سكان يهود. وحدثت توسعات أخرى نحو الشمال (إيلات، ودومة الجندل وغيرهما)، و (نجران) نحو الجنوب، كما عُقدت اتفاقيات مع النصارى والزرادشتيين .

رابعا ـ الحكم علي النصارى

وصل موقف محمد (ﷺ) تجاه اليهود إلى صورته النهائية بالمعاهدات التى عقدت معهم. وبذلك حُسمت القضية اليهودية [٢٩] . أما القضية النصرانية فحُسمت بأساليب متنوعة ، وكان الصراع أقل درامية من الصراع مع اليهود . وكان محمد (ﷺ)

رحيما مع النصارى فى البداية، وحدث أول تعكر للتفاهم الحسن فى مكة لأن النبى لم يكن متوقعا أنه سيجابه عقيدة لم يستطع احترامها . وينطبق ذلك على مظاهر التقوى النصرانية مثل الرهبنة التى بدت سلوكا ومظهرا معقدا ، وعندما مال إليها محمد (ﷺ) وجد صعوبة فى فهمها ، وسلك طريقا وسطا . وظهرت إمكانية تُظهر يهود المدينة بأنهم يعلمون بحرفة زراعة الفاكهة ، وقدم النصارى على أنهم نموذج للسلوك الحسن حتى عندما علم محمد (ﷺ) اختلاف رؤية التعاليم النصرانية . وتزعزعت ثقته حقا فى كسب النصارى عندما عاد المهاجرون من إثيوبيا واضطر النظر إلى هذه المحاولة على أنها محاولة فاشلة بصورة نهائية ، وحدث ذلك مصادفة مع فتح خيبر . ولم يقم محمد (ﷺ) أى علاقات طيبة مع النصارى بعد الهجرة . وبعد وصوله للمدينة ووضعه دستورا للأمة كان الحديث فيه عن اليهود وليس النصارى . وعندما تجددت المواجهة مع النصارى فى عام التفاوض بعد فتح مكة بعام حدث انفصال تام، عندما ظهرت فى المدينة علاوة على العشائر العربية بعض النصارى من جنوب بلاد العرب . وقد كان هذا أخف من العبارة السابقة التى تم فيها عرض المعاهدة مع اليهود . فبينما خضع العرب واعتنقوا الإسلام لم يكن النصارى مستعدين لذلك ، واضطروا إلى تقديم تنازلات . ومنذ ذلك الحين تمت معاملتهم بأسلوب مشابه مثل اليهود، فسمح لهم بحرية العبادة ودفع الجزية . وهكذا وصلت المرحلة الثالثة من التطور فى موقف محمد (ﷺ) تجاه أهل الكتاب ، وبذلك يمكن جمع اليهود والنصارى مرة ثانية بهذا الاسم معاً.

ويصدر حكم مقبول عن النصارى فى سورة الحديد (٢٦-٢٧) حيث يرسم تاريخ الخلاص فى خطوطه العريضة ، فأعلن كل من نوح والمسيح الرسالة وقبلها بعض البشر ورفضتها الأكثرية : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ . وقلت التعبيرات المناسبة المرتبطة بالرهبانية نفسها ، عما قيل ، فهى ليست قائمة على القانون الإلهى ، بل هى اتجاه ابتدعه البشر . وهذا جعل محمد (ﷺ) لا يحتمل فساد الرهبان عندما أخبر ـ القرآن ـ ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ . ولازلنا نرى قذفهم بآثام مشابهة مثل الكتبة والفريسيين . وربما أُقحم هذا الجزء متأخرا ، وحكم القرآن حكما إيجابيا غير محدد كلية على الكهنة والفريسيين وذلك فى سورة المائدة (٨٢) حيث

تمت مقارنة النصارى باليهود والوثنيين، وبذلك حدث فصل تام : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . وأكثر من ذلك ، أنهم إذا سمعوا المسلمين يتلون القرآن عرفوا وحدة القرآن والإنجيل واعترفوا بالمسلمين المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ويجرى القرآن مقارنة بين اليهود والنصارى فى سورة آل عمران (١١٠ - ١١٥). حيث يجرى استعراض وإدانة " أهل الكتاب "-كما يفهم المرء من السياق - لموقفهم تجاه وعظ المسيح ، فأشار إلى أن مجموعة منهم آثمون ، ورفضوا الرسالة ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (١١٢) . وهذا واضح بالنسبة لليهود ، كما حدث فى الأقوال السابقة . فمنهم توجد جماعة رابحة ، تلك التى اعتنقت الرسالة، أى النصارى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (١١٣) . وهذا بلا شك إشارة إلى كلمة الصلاة الليلية التى يقوم بها الراهب والقسيس فى الليل قبل العيد الأكبر للكنيسة حيث يقومون بالصلاة والتلاوة . و العقيدة بهذه الصياغة تتطابق مع الإسلام ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ [٣٠] وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ... ﴾ (١١٤) .

ولم يستمر السلوك المتوافق طويلا . وتعثر عندما دخل محمد (ﷺ) فى نقاش مع النصارى وواجه فهمه لصورة المسيح مع فهمهم . وكان المسيح طبقا لرأى القرآن رسولا (المائدة ٧٥)، وكلمة الرب وروحه (النساء ١٧١) وذلك دون أى أفضلية للتعاليم النصرانية المنطقية مع كل تبعاتها . وهى بالنسبة لمحمد (ﷺ) ليست شيئا آخر أكثر من صيغة تبناها واستخدمها لوصف أهلية يسوع النبوية [٣١] . وكانت مريم صديقة - وهى إشارة شائعة فى القرآن لبطاركة الكتاب المقدس [٣٢] - وقديسة وورعة . ويسوع ليس أكثر من إنسان خلقه الرب دون أن يمس رجل مريم ، وخُلق من كلمة الرب

كما خُلق آدم من طين عن طريق كلمة الرب (آل عمران ٥٩ ، مريم ٣٤ وما بعدها) ، وعلى عكس الإنجاب لم يُخلق ، التى تمثل إشارة إلى " مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية " فإن المسيح طبقا لرأى القرآن "خُلق ولم يُنجب " والرب خلق من الملائكة بشرا عن طريق كلمة الخلق ، وهم يمثلون جيلا جديدا بدلا من البشر (الزخرف ٦٠) . وبما أن يسوع كان بشرا وليس إلها أو ملاكا ، كما ورد فى القرآن، يستنتج من ذلك أن المسيح كان يتناول الطعام (المائدة ٧٥).

وعلاوة على التعاليم حول طبيعة المسيح فقد مثلت التعاليم حول الخلاص عن طريق الصلب محورا أساسيا ، دار حوله الجدل . فأنكر القرآن صلب المسيح ، لكن شُبه لهم بآخر صُلب مكانه (النساء ١٥٧) . والقرآن لم يوافق الاعتقاد فى رؤية النصارى بأن المسيح صعد للسماء بل يؤكد أنه رفع إليها (آل عمران ٥٥) ، حرفيا: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . وعلى العكس من ذلك فقد اتفق القرآن مع اعتقاد النصارى فى نقاط أخرى مثل : المسيح خالد فى السماء ، وأمه كذلك ، كما يتضح من الآية التالية ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (المائدة ١٧) ، وفى هذا إشارة إلى رفع مريم للسماء . والقول بأن المسيح رمز معرفة الساعة (يعنى الحُكم) (الزخرف ٦١) يمكن أن يُفهم بمفهوم الأخرويات النصرانية لأن المسيح يهبط بنفسه فى نهاية الأيام وينتصر على أعداء النصرانية (قارن٢: ٣-١١) . ولن يكون عند المحاكمة قاضيا بل شاهداً .

وعندما يعبر عن موضوعات مرتبطة بالمسيح ومريم ، كما فى تعاليم الرب، وكما فهمها محمد (ﷺ) فلا تحتمل أى تفاهم . فعارض القرآن عقيدة التثليث مقابل التوحيد كحل وسط . وبكلمات حادة اتخذ القرآن موقفا ضد النصرانية وتعاليمها الخاصة بألوهية المسيح : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ١٧)، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (المائدة ٧٣) . ورُفضت التعاليم النصرانية بنوة الإله للمسيح وذلك بالإشارة إلى سلطان الرب على المخلوقات. فالرب مالك كل المخلوقات وليس فى حاجة إلى ابن ،

والرب يخلق عن طريق كلمة الخلق " كن "والرب " لا ينجب " (البقرة ١١٦- ١١٧ ، ويشبه ذلك النساء ١٧١) ، (الزخرف ٨٢). وقد صيغت فكرة عدم الإنجاب صياغة كاملة فى صورة الإخلاص والتى تنسب إلى الفترة المكية المبكرة ، وربما نشأت فى الحوار مع النصارى حول طبيعة المسيح: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴾ (المسيطر) [٣٣] . ويشير القرآن إلى معرفة الوحى للعقيدة الصحيحة كبرهان لعقيدة وحدة الإله المطلقة وذلك عن طريق الإساءة لبنوة الإله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (الزخرف ٨١) . وليس من المعقول أن نبيا قال إنه ليس سوى بشر يعلن أنه هو نفسه الرب ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (آل عمران ٧٩) . ووقف المسيح هذا الموقف قائلا : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ٧٢) . وهكذا فُندت النصرانية بتعاليمها حول ألوهية المسيح . وعندما تُأخذ الإشارة للكتاب فإنها تكذب : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٧٨) . لذلك فمن المحتمل أن محمدا (ﷺ) فكر فى العقيدة النصرانية لمجمع نيقية والقسطنطينية ، والتى تتألف إلى حد بعيد من أقوال الكتاب المقدس وتشمل صيغا لا توجد فى الكتاب المقدس أو ألمح إليها فقط . ومن ناحية أخرى يعد محل تساؤل : إذا ما كان محمد (ﷺ) قد تعمق عمقا فى الخصومة ضد العقيدة النصرانية بأن استطاع أن يفرق بين نص الكتاب وقرارات المجمع . واللوم بأن النصارى أخفوا نص الكتاب وقدموا نصا على أنه من الكتاب وهو ليس من الكتاب ، فقد أُعلن مثل هذا اللوم فعلا ضد اليهود كما رأينا من قبل .

واستخدم القرآن أنماطا متعددة من الأدلة ضد تعاليم ألوهية المسيح . وأول أسلوب ، الأسلوب المنطقى (الاستدلالى) فالمقدمة تشمل خصائص الرب أى الوحدانية والخلق ، وأنه غير محسوس (فالرب لا يأكل والمسيح يأكل إذن المسيح ليس إله) . والأسلوب الثانى استنتاج البرهان الأكبر من البرهان الأصغر ومن الأصعب إلى الأيسر والتى استخدمها اليهود الكتبة مرارا: إذا كان الرب خلق آدم من تراب

فإنه من الأسهل بالنسبة للرب خلق يسوع روحا من مريم. والأسلوب الثالث، برهان الكتاب ، فعندما يذكر النصارى مواضع الكتاب التى يستدل منها على ألوهية المسيح ، شرحها القرآن بأنها تزييف للكتاب . وعندما لا تجدى كل الأدلة والبراهين أيا كان الأسلوب ، بأى شىء ما ، يتعمد القرآن الإشارة إلى قَسَمِ الجماعة ، كما كان سائدا عند العرب قبل الإسلام [٣٤] . ويجد المرء نمونجا لذلك فى سورة (آل عمران ٦١). فبعد البرهان من الكبير إلى الصغير ومن خلق آدم إلى خلق المسيح وعدم قبول النصارى ، يدعوهم محمد (ﷺ) - كما ورد فى القرآن - قائلا : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ . وعند التنفيذ يكون قَسَمَ الجماعة مساويا لحكم الرب . ويسجل المأثور الإسلامى قَسَمُ الجماعة هذا فى سياق علاقات وفد نصارى نجران الذى قَدِمَ إلى المدينة – كما قيل سابقا – لعقد معاهدة .

وكما ذكر آنفا تمثل عقيدة الثالوث الدخيلة الرأى بأن الثالوث مكون من الرب ومريم والمسيح (المائدة : ١١٦) ويشار إلى هذه التعاليم فى مواضع أخرى فى القرآن الكريم . وفى أكل المسيح برهان ودليل على أن المسيح ليس إلها، وشمل هذا البرهان أمه مريم (المائدة : ٧٥). وقيل سابقا إن الرب يقدر أن يهلك المسيح وأمه (المائدة : ١٧). ومن ذلك يمكن للمرء تقرير أن محمدا (ﷺ) قد سمع بانضمام روح مريم إلى السماء. ويتردد أن هذه التعاليم كانت معاصرة له وقد عرضها مودستوس بطريرك القدس (ت. ٦٣٤) [٣٥] وكان لاهوتيا بارزا ومعاصرا لمحمد . وأشرف على بطريركية القدس بعد عام ٦١٤ - لتمثيل بطريركية زكريا - ونقله الفرس مع جماعة كبيرة إلى بلاد النهرين ، ويُقال إن محمدا (ﷺ) عرف فعلا بانتصار الفرس على البيزنطيين .

خامسا - الانفصال عن أهل الكتاب

اضطر محمد (ﷺ) الذى وجد نفسه فى قمة سلطانه أن يفتح عينيه لمعرفة النصارى مثل اليهود تماما ، وذلك بعد الحوار مع وفد نصارى نجران الذى قَدِمَ

للمدينة عام (٦٣٠/ ٦٣١) وعرف أن النصارى يسيرون فى طريقهم الخاص ويتبعون دينا لا يمكن أن يلتقى مع الإسلام. وتم إبعاد كل الشكوك حول ذلك . واضطر محمد (ﷺ) أن يتحالف معهم ، كما تحالف مع اليهود بعد امتناعهم عن دعوته لاعتناق الإسلام . وأمكن الحديث مرة ثانية بالمصطلح الشامل " أهل الكتاب". وصاروا يشكلون مع الوثنيين مجموعة الكفار مقابل المسلمين . وينطبق هذا الوضع على سورة آل عمران (١٨-٢٢) . فيبدأ الفصل باعتقاد صريح فى إله واحد ، كما تشهد ثلاث مراتب وهى الرب والملائكة والمسلمون (الذين يملكون المعرفة) (الآية : ١٨) [٣٦] ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (الآية : ١٩) . وطلب من الذين لديهم كتاب – أى اليهود والنصارى وكذلك الوثنيين – اعتناق الإسلام. ولم يستخدم الإكراه ونفذ مهمته بالدعوة لاعتناق الإسلام (الآية : ٢٠) . ومن لا يتبع الدعوة يتحمل النتيجة أى العقاب عند الحساب (الآيتان : ٢١- ٢٢) .

وأدت التسمية الجامعة لليهود والنصارى بأنهم " أهل كتاب " فيما بعد إلى نتيجة ، وهى أن المجموعتين استمرتا فى الأخطاء التى كانت موجودة فى البداية . وتم فى نهاية الفصل إحصاء أخطاء الكفار الذين يلقون العذاب . وهذه الأخطاء ثلاثة : ١- لا يؤمنون بآيات الرب ، ٢- يقتلون الأنبياء بغير الحق، ٣- يقتلون الناس الذين يدعون إلى العدل (آل عمران : ٢١). ولم يفرق بالتفصيل بين ما إذا كانت هذه الآثام قد وقعت من اليهود والنصارى أو من الوثنيين . وربما قصد الكل معًا ، وهو ما ينطبق على الكفار المشار إليهم فى الموضع الأول . وسبق أن قلنا إن اليهود خاصة قتلوا الأنبياء ، وفى الأناجيل مواضع لام فيها المسيح اليهود على ذلك (متى ٢٣ : ٣٠) . وعلى كل حال فقد رأينا أن اليهود اعتمدوا على الاختيار وادعوا الخلاص الخاص . ويقصد من الخلاص اليهود والنصارى معًا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (المائدة : ١٨) [٣٧] ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (البقرة ١١١) .

ويذكر اليهود والنصارى معًا فى سورة التوبة (٣٠ - ٣٥) . وتتكون أخطاؤهم هنا من نمطين هما : التعاليم الخاطئة ، والآثام الأخلاقية . ونشأت التعاليم الخاطئة من ظن اليهود أن عزيرا ابن الله ، وظن النصارى أن المسيح ابن الله . والواقع أن عزيرا ليس شخصا آخر مختلفا عن عزرا مجدد الشريعة ، والذى ينسب إلى أحبار اليهود . ويفترض المرء أن محمدا ـ طبقا للقرآن - أشار هنا إلى طائفة يهودية - نصرانية والتى قدست عزرا بالأسلوب المذكور ويتأمل هنا عزرا الرابع (١٤: ٩) أو سفر رؤيا عزرا (١: ٧) حيث غاب عزرا عن البشر ورفع للسماء [٣٨] . ولكن يُحتمل أن يكون كل هذا ضئيلا. وعلى كل حال فإن اليهود والنصارى بهذه التعاليم أحصوا مع الوثنيين ولذلك منحهم القرآن صيغة اللعنة ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ (الآية :٣٠) ، ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (الآية ٣١) . والجدير بالذكر أنه وصف وظيفة الراهب مثل وظيفة الأحبار اليهود ، أى أنهم يمثلون معلمى الشريعة والقادة الدينيين للشعب . وقد تم إقحام اسم المسيح حتى لا يضطرب الوضع المتجاور للأحبار والرهبان . ودعا محمد (ﷺ) اليهود والنصارى إلى عقيدة الإله الواحد وعرفهم برسالته التى أرسله الرب بها ، وأظهر الإسلام على كل الأديان حتى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الآيتان ٣٢-٣٣) . ويبدو واضحا أن النبى قال ذلك عندما كان فى ذروة سلطانه . أما الأخطاء الأخلاقية لليهود والنصارى فهى ناجمة عن أن كثيرا من الرهبان والأحبار يخدعون الناس ويحصلون على أموالهم (الآية ٣٤) . ولأنه قصد اليهود والنصارى دائما فإن ذلك صدر عن المجموعتين - الأحبار والرهبان - الذين استمروا فى الأخطاء . وهى الأخطاء التى لام المسيح اليهود عليها فى الأناجيل وبخاصة الكتبة والفريسيين. وتنتهى الآيات بوصف عقاب النار لأولئك ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣٤-٣٥) . وهنا يقصد تذكير المسلمين والتزامهم بدفع الصدقة ، وعرض لهم جشع الأحبار اليهود والرهبان النصارى على أنها أمثلة سيئة ، وعلى المسلمين ألا يسلكوا هذا المسلك.

ويستنتج من الأمثلة المقتبسة أن محمداً (ﷺ) صادف صعوبات واضحة فى إيجاد آثام أخلاقية يمكن أن يلوم بها النصارى . ولم يعد لديه مطلقا شيء آخر أكثر مما قاله القرآن سابقا عن اليهود لينقله إلى النصارى . والواقع يمكن للمرء تقرير أنه حتى ذلك العصر قد وُجِدَ نصارى يفكرون فى عداء الرهبان وينقلون لوم المسيح للكتبة والفريسيين إلى الرهبان . وهذا التفسير المقبول يُفسر من تلقاء نفسه أن محمداً (ﷺ) نقل تعاليم نصرانية لليهودية والتى طبقا لرأيه تمثل تعاليم خاطئة ، كما فى حالة عزير / عزرا ابن الله التى زعمها اليهود . ومحاولة التفسير المقتبسة سابقا بالنسبة للتعاليم المنسوبة لليهود يجب رفضها لأنها غير كافية . ويصح هذا فعلا بريبة على اليهود ككل وليس على بعضهم أو جزء منهم كما قيل . ويوجد نمط آخر من الغياب عن العالم أو الصعود إلى السماء حتى لا يكون الاعتقاد أن الذى يغيب أو يُرفع إلى السماء هو ابن الله . فإيليا صعد إلى السماء أو اختفى (الملوك الثانى ٢: ١-١٨) دون عمل محاولة من اليهود لتبجيله بأنه إله . ولذلك يبقى التخمين أن محمداً (ﷺ) أراد أن يدعى بقوة على اليهود التعاليم الخاطئة التى توازى فى خطرها حدة خطر التعاليم النصرانية الخاطئة فيما يتعلق بالطبيعة الإلهية للمسيح . وبهذا استطاع أن يثبت منزلة سامية يتمتع بها عزرا فى اليهودية (٣٩) .

وقد وَبَّخَ القرآن اليهود والنصارى بعنف لكنه ترك الحكم عليهم وعقابهم للرب . وفى بعض الأحيان أحصاهم القرآن مع الوثنيين ، وأشار إليهم مرة ثانية بمكانة وسط بين المؤمنين والكفار (النساء : ١٥٠) . وعقد معاهدات عن طريقها نُظمت الحياة المشتركة مع أهل الكتاب بأنهم طائفة . وحَذر المسلمين من المعاشرة الشخصية معهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة : ٥١) .

وفى نطاق انتشار الإسلام تجاه جنوب بلاد العرب دخل محمد (ﷺ) أيضا فى علاقات مع المجوس ، وربما مع المجوس التجار الذين استقروا على طرق التجارة فى خيبر وفى الشمال. وبعد عقد النبى معاهدات مع اليهود والنصارى لم يجد

صعوبات فى أن يتبع أسلوبا مشابها مع المجوس ويعترف بهم مثل أهل الكتاب كما ورد فى القرآن . وأمكن توبيخهم على عقيدتهم التوحيدية ، ووضعهم صورة زرادشت مؤسس الديانة إلى جانب موسى والمسيح ، ولهم كتاب مقدس نُظر إليه على أنه وحى . وبالتأكيد وجدت أسباب حقيقية دعت محمدا (ﷺ) إلى أن يضع الزرادشتيين واليهود وأصحاب الكتب الأخرى معًا . لكن تفاصيل ذلك غير معروفة . وتمت الإشارة مرة واحدة إلى الزرادشتيين / المجوس فى القرآن وبخاصة فى القائمة التى تمت مناقشتها سابقا (الحج : ١٧) ، حيث ذكروا إلى جانب اليهود والصابئة والنصارى والوثنيين. وهنا يتأكد مرة ثانية الوضع المعروف تجاه أهل الكتاب سوف يحكم الرب بينهم وبين المسلمين يوم البعث ، ويكون شاهدا على الكل .

سادسا - دين إبراهيم

مرَّ محمد (ﷺ) بموقفه تجاه أهل الكتاب - كما رأينا - بأطوار متعددة . فبحث فى أول الأمر عن الاعتراف عندهم ، وفيما بعد قصد الحياة المشتركة معهم ، وفى النهاية بدأ إجراءات تعسفية ضد اليهود ، وعقد معهم أخيرا حلفا ثم تلته مواثيق مع الآخرين ، وهو ما يؤدى إلى افتراض اعترافه بهم كجماعات خاصة لها قوانينها الخاصة، ثم أقام خطا فاصلا بينه وبينهم ، وقد خضعوا سياسيا لرئاسة المسلمين . ويذكر هذا الوضع على أنه استقلال دينى ، وسار انفصال محمد (ﷺ) عن أهل الكتاب خطوة خطوة بمساع ليتحرك فى خط متصل من إبراهيم وحتى بعثته النبوية ، ووصف اليهود بأنهم حادوا عن ملة إبراهيم . وتخدم رواية تأسيس إبراهيم الكعبة ، كما ظهر سابقا ، هدف محمد (ﷺ) والعرب بأن لهم نصيبا فى إرث النبوة والمشاركة فى إبراهيم وذريته . وتمثل شخصية البطريرك مصدر المأثور الذى كان تركة اليهود والنصارى ، واعتنقه محمد (ﷺ) مرة ثانية .

وكان إبراهيم حنيفا وليس وثنيا (البقرة : ١٣٥ ، آل عمران : ٩٥ ، النساء : ١٢٥ ، الأنعام : ١٦١ ، النحل : ١٢٣) . وبما أن الوثنى مشرك (حرفيا الذى يجعل بدل الإله آلهة) .

فيمكن أن يُفهم من مصطلح حنيفى أنه الشخص الذى يعترف بالتوحيد فقط ، وأنه عكس وثنى . ولمعرفة عقيدة التوحيد فالوحى ليس شرطا وقد سجل محمد (ﷺ) هذا الرأى فى آونة وأخرى . فقد عرف إبراهيم الإله الواحد من خلال تأمله النجوم . وعقيدة الحنفاء " أسلوب الفطرة الذى خلق الله الإنسان عليها " ولا يمكن للمرء تغيير النمط والأسلوب الذى خلق الرب عليه الإنسان . ويمثل ذلك الدين الصحيح (الروم : ٣٠) . وهذا الدين الفطرى يتطابق مع الإسلام وكان إبراهيم أول المسلمين . وينحصر الوحى فى أن إبراهيم تلقى أمرا من الرب أن يُسلِم، هذا يعنى الاعتراف بالإسلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ (إبراهيم) أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ١٣١) . وانتقلت العقيدة منه إلى ذريته حيث أعطى كل جيل ، الجيل الآخر الإرشاد المطابق ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) . وعرف يوسف بن يعقوب وهو فى السجن دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ووعظ المسجونين معه لعقيدة الإله الواحد (يوسف ٣٨-٣٩).

وبينما تَعَرف يوسف على دين إبراهيم حدث انكسار لدى الأسباط أى ذرية أبناء يعقوب. وقد اقترن إعطاء الشريعة فى سيناء بالتوراة حيث فرض عملا تضمن التزامات معقدة وعديدة فُرضت على اليهود عقابا على آثامهم ، أو أنها ابتدعت منهم . وقد كان دين إبراهيم خاليا من القانون . ودعا النبى المسلمين إلى ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحج : ٧٨) . وكان الإسلام متحررا من الالتزامات والقيود الباهظة مثل تلك التى فُرضت على اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل (البقرة ٢٨٧ ، الأعراف ١٥٧) وأُشير إليها فى مواضع أخرى . وربما قصد هنا اليهودية – النصرانية التى توجد آثارها فى القرآن . ومن ناحية أُخرى أُكد القانون فى الأناجيل على نطاق كامل (متى ٥ : ١٧-١٩).

وبما أن دين إبراهيم وصل للنهاية مع البطاركة وفيما بعد لم يورث فقال القرآن بوضوح كامل " هذه أُمة " (أى التى أسسها إبراهيم) تعود إلى الماضى .

إذا لا توجد علاقة مطلقا بين عشيرة إبراهيم واليهود المعاصرين لمحمد (ﷺ) بأسلوب أن تكون مسئولة عن الآخرين أو يقدموا للحساب بدلا من الآخرين أمام الرب (البقرة ١٣٤ ؛ ١٤١) . وبهذا يصبح خلاص اليهود القائم على سلالة إبراهيم سلبيا. وبما أن تقليد تبليغ عقيدة التوحيد من جيل إلى جيل قد توقف، فأُمِرَ محمد (ﷺ) أن ينصح مجددا عن طريق الوحى للاعتراف بالإله الواحد : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل ١٢٠) . وفى هذا المقام يمكن أن ينسب الوضع المركب فى سورة (النساء : ٥١-٥٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ [٤٠] ... أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ . ورأينا أن اليهود قد لعنوا. وفى رأى محمد (ﷺ) فإن النصارى تركوا التوحيد الخالص عن طريق تعاليمهم بالثالوث، وبذلك يمكن للمرء ضمهم إلى ما سبق . ولم تكن الشريعة فقط هى التى أدت إلى تفريق اليهود والنصارى العارفين بدين إبراهيم . بل حدثت ردة من كل الوجوه .

ووُجد نموذج العودة لدين إبراهيم فى رسالة بولس . ومن المفيد أن نتأمل ذلك بدون استنتاج نتيجة متعجلة . ففى الرسالة إلى أهل رومية يتحدث بولس فى الإصحاح الرابع عن تبرئة إبراهيم بسبب العقيدة وليس بسبب الأعمال ، وهذا يعنى عن طريق الشريعة ، لأن الشريعة لم تكن قد وجدت حتى عصر البطاركة . كما أن الختان لم يكن وُجد بعد ، وعندما تلقى إبراهيم وعد الإيمان أصبح أبا لشعوب عديدة ، رغم أن ظروف معيشته استثنيت بوضوح كامل . وقد كان جميع ذرية إبراهيم مؤمنين ، لأنه كان مؤمنا . ولذلك يكون النصارى بارين عن طريق الإيمان بعمل الخلاص بصلب المسيح وبعثه . أما الشريعة فهى كما فَصَّلَ بولس فى الرسالة إلى أهل غلاطية (٣: ٢٣ - ٢٩) تحل عن طريق المؤمنين : " إذا اتبعتم المسيح تكونوا ذرية إبراهيم ورثته طبقا للوعد" . وأما الشريعة فقد أضيفت بسبب التعديات (٣: ١٩) . وبذلك يدل الفعل " أضاف " بوضوح بالغ على أن عقيدة إبراهيم لم تعرف شريعة وأنها كانت دين الإيمان . ولم تعرف على الأقل شريعة يمكن مقارنتها بقانون الطقوس اليهودى. وكما ذكرنا من قبل ، فإن محمداً (ﷺ) قال أيضا إن دين إبراهيم كان حرا من الأعباء الباهظة ،

ونُظم القانون لليهود عقوبة لآثامهم . وذكر فى القرآن (النساء : ١٢٥) أن إبراهيم ﴿ خليل الله ﴾ كما فى العهد القديم (أشعيا ٤١ : ٨) والعهد الجديد (رسالة يعقوب ٢ : ٢٣). وقد عالج محمد (ﷺ) دائما جدله ضد اليهود ببراهين نصرانية وخاصة فى النقاش حول أهمية دور إبراهيم . وينطبق هنا ما قيل سابقا عن أخطاء اليهود التى نقلت إلى النصارى لأن عمل العودة إلى إبراهيم كان سارى المفعول فى البداية ضد اليهود ونُقل إلى النصارى شاملا وذلك بدون العناية بخاصية علاقتهم ببطاركة الكتاب المقدس .

الهوامش

(١) ذكرت ألواح الشريعة التى تلقاها موسى فى سيناء فى سورة الأنفال ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤، ولم يرد فى القرآن الكريم شيء عن كيف كتبت ، لكن ورد ذلك فى سفر الخروج ٣١: ١٨ " كتبت بإصبع الرب" . لكن ذكرت الألواح فى قصة نوح ، وهى التى عمل منها نوح السفينة (٥٤ : ١٣) ، وهى بالطبع من الخشب . كما أن الكلمة العبرية lu'ah تشمل المعنيين أنفسهما ، قارن : Arthur Jeffery ; The Foreign Vocabulary of the Qur'an, Baroda 1938 S. 254. وطبقا لما جاء فى سفر الخروج ٣٢: ١٦ فإن الرب هو الذى عمل اللوحين ، وبالطبع يتذكر المرء " اللوح المحفوظ " الذى حفظت فيه ألواح الشريعة المحفوظ فى تابوت العهد (قارن الخروج ٢٥: ١٦) .

(٢) ترد أيضا التسمية صحف من صحيفة وبخاصة للنص الأصلى فى السماء (عبس: ١٣، التكوير: ١٠) وكذلك بالنسبة للكتب التى أخذها فى اليد إبراهيم (النجم : ٣٧، الأعلى : ١٩) وموسى (النجم : ٣٦، الأعلى : ١٩) ومحمد (البينة : ٢) .

(٣) قارن : Paret : Kommentar سورة البقرة : ٦٢ .

(٤) Speyer : Die biblischen Erzaehlungen im Koran ,S. 450

(٥) قارن معجم المصطلحات اللاهوتية للعهد الجديد : Theologisches Begriffslexikon zum Neuen Testament , hrsg . v. Lothar Coenen u.a., Wuppertal 1977 .

(٦) Arthur Jeffery; The Foreign Vocabulary of the Qur'an, S. 281 غير أن معنى الكلمة لا يزال موضع خلاف.

(٧) توجد الفكرة نفسها فى سورة آل عمران ١٩ ، وسورة الجاثية : ١٧ ، وسورة البينة : ٤ .

(٨) يرد مصطلح البلاء أو الاختبار وما يشتق منه حوالى ثلاثين مرة فى القرآن الكريم ، قارن على سبيل المثال اختبار إبراهيم من أجل الوعد بالذرية (البقرة : ١٢٢) والأمر بذبح ابنه (الصافات : ١٠٠) والإسرائيليون من خلال اضطهاد فرعون : البقرة : ٤٩، الأنفال : ١٤١) والمسلمون فى المدينة عبر اعتداء المكيين (البقرة :١٥٥، آل عمران : ١٥٤، الأحزاب : ١١)

(٩) قارن أيضا : Watt , Muhammad at Mecca , S.112ff.

(١٠) وهذا يرجع إلى أنهم حفروا حول المدينة خندقا ليتجنبوا اعتداء المكيين المتوقع ، وكلمة الخندق كلمة فارسية الأصل ، وتظهر إلى أى مدى كان التأثير الإيرانى فى الحجاز آنذاك .

(١١) حول هذا الموضوع انظر الدراسة التى قام بها M.J. Kister بعنوان : M.J. Kister : The Massacre of the Banu Qurayza : a Reexamination of a Tradition , in Jerusalem Studies in Arabic and Islam 8 (1986) , S. 61- 96.

(١٢) حول اللعب بالسهام حول الكعبة انظر ما سبق .

(١٣) حول الترتيب الزمنى ، انظر : Paret : Kommentar لسورة المائدة : ٣ . ونقل بارت عن جراف الذى ألمح إلى أن التاريخ يعود إلى ما بعد الهجرة بفترة قصيرة .

(١٤) حول الألواح قارن ملاحظة (٢) من هذا الفصل . وربما يتأرجح التذكير هنا بكتابات مثل أبوكليسى إبراهيم.

(١٥) Chr. Snouck Hurgronje : Het Mekkaanische Feest , Leiden 1880 (Verspreide Geschriften 1) , Bonn/ leipzig 1923,S.1-124

(١٦) Y. Moubarac , Abraham dans Le Coran , Paris 1958

(١٧) Edmund Beck , Die Gestalt Abrahams am Wendepunkt der Entwicklung Muhammads , in : Le Muséon 65(1952) , S. 79-94، وانظر أيضا : Der Koran , S. 111-133. ثم نقاش موجز حول شخصية إبراهيم لـ : رودى بارت فى دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية المجلد الثالث : ص : ٩٨٠ ـ ٩٨١ .

(١٨) يكمل بارت بين قوسين (لكى) ويفهم الآية على هذا النحو : أخطأ (أثم) بنو إسرائيل لعدم شكرهم وعادوا ثانية بعد نعيم الأكل فى مصر . وتم الحديث عن ذلك فيما بعد فى الآية ٦٢ . وطبقا لرأيى فإن بارت يعالج ذلك مع قانون الطعام بصورة مطلقة .

(١٩) قارن : Paret : Kommentar لسورة البقرة الآية ٥٨ وما بعدها . حيث ناقش الاقتراحات التى نادى بها كل من سباير وجيفرى وهيرشفيلد حول الصعوبات لهذا الموضع .

(٢٠) فى سفر الخروج نجد الحديث عن القلوب غير المختتنة للإسرائيليين بسبب نكثهم العهد . ويتحدث بولس فى الرسالة إلى رومية ٢: ٢٩ عن ختان القلوب .

(٢١) قارن : Ismar Elbogen , Der juedische Gottesdienst in seiner geschichtlichen Entwicklung, Frankfurt a.M. 1931 (ثم أعيد طباعته فى Hildesheim 1962) , S. 469 f.

(٢٢) هناك رواية متعلقة بهذا الموضوع وردت عن أجبيوس فون مابوج (النصف الأول من القرن العاشر) وهى أن اليهود حرفوا التأريخ فى العهد القديم وذلك لحجب الحساب الدقيق لدانيال حول قدوم المسيح ، وقام القيصر قسطنطين بالحصول على نسخة الترجمة السبعينية المحفوظة فى الإسكندرية لتعديل النص . انظر : Agapius Mabbugensis : Historia universalis, hrsg.v. L. Cheikho , Loewen 1954, S. 226.

(٢٣) دائما لا يزال عمل إردمان فريتش Erdmann Fritsch : Islam und Christentum im Mittelalter : Beitraege zur Geschichte der Muslimischen Polemik gegen das Christentum in arabischer Sprache , Kirchhain 1930 .

(٢٤) طبقا لما ورد فى سورة النساء : ١٠ فإن ذلك يكون عقوبة الجشعين الذين يستنزفون عجز اليتامى بدون وجه حق.

(٢٥) بسبب تدمير الهيكل (تور أندريه) أو استجابة الرب لشكوى بنى إسرائيل فى الصحراء (اللاويين : ١١ : ٢٣) (ف. رودولف) قارن بارت : التفسير لسورة المائدة : ٦٤ .

(٢٦) هكذا عند سباير ، قارن بارت : التفسير لسورة المائدة ٧٨ .

(٢٧) حول هذه المعاهدة ومعاهدات أخرى قارن دراسة أنطونيو فتال : Antoine Fattal : Le statut légal des non - Musulmans en pays d'Islam, beirut 1958 .

(٢٨) حول سورة التوبة : ٢٩، قارن: M.J.Kister " 'An yadin " (Qur'an IX/29). An Attempt at Interpretation, in: Arabica 11 (1964) , S. 272- 278, وكذلك : Der Koran , S. 295-303.

(٢٩) قارن أيضا : Watt , Muhammad at Medina, S. 219.

(٣٠) وردت فى القرآن مرارا بمثابة صفة مميزة للمؤمنين ، قارن بارت : التفسير ، سورة آل عمران : ١٠٤ ,

(٣١) تفصيل هذا الموضع عند Räisänen في دراسته بعنوان : Das koranische Jesusbild, S. 31ff.

(٣٢) مثل هذا اللقب دل على إبراهيم ويوسف وإدريس ، انظر تفسير رودى بارت لسورة المائدة : ٧٥ ,

(٣٣) قارن تفسير بارت ، سورة البقرة ٢١٦ ، حيث يناقش قضية إذا كان هذا الموضع والمواضع المشابهة تنسب للنقاش مع المشركين أو المسيحيين ويميل بارت إلى الرأى الأخير (أى مع المسيحيين) .

(٣٤) قارن تفسير رودى بارت ، سورة آل عمران : ٦١ ، (وذلك استنادا إلى فلهاوزن وجولدتسيهر وبدرسن) .

(٣٥) M. J. Rouet de Journel : Enchiridion Patristicum, Barcelona/ Rom 1981 , S. 773 (Nr. 3053) " مريم شريكة أبدية لعيسى إلى يوم الدين " والمسيح بعثها من القبر ورفعها معه إلى السماء " . نص موعظة مودستوس " Modestus " حول موت مريم فى دراسة : Migne : Graeca 86,2,3312. قارن أيضا دراسة : Joseph Henninger ، بعنوان : Mariae Himmelfahrt im Koran , in: neue Zeitschrift fuer missionwissenschaft 10(1954) , S. 288 - 292 ، وكذلك : Der Koran , S. 269 - 277.

(٣٦) قارن ، سورة آل عمران : ١٨ ، الرعد ٤٣ فى Rudi Paret : Kommentar .

(٣٧) Speyer : Die Biblischen Erzaehlungen im Quran , S. 443, ، وقد اعتمد سباير فى برهانه على ما جاء فى سفر التثنية ١٤: ١ " يابنى إسرائيل أنا إلهكم " كما يوجد أيضا فى العهد الجديد حديث عن أبناء الله وأبناء البشر ، قارن متى ٥: ٩، والرسالة إلى رومية ٩: ٢٦ .

(٣٨) قارن : Paret : Kommentar سورة : ٣٠ (وذلك مع أدلة من أعمال سباير وهوروفيتس وكينستلينجر)

(٣٩) قارن : D. Kuenstlinger , 'Uzair ist der Sohn Allah's , in : Orientalistische Literaturzeitung (1932) , Sp. 381- 383

(٤٠) حول اشتقاق الجبت والطاغوت ، قارن : Kommentar لـ: رودى بارت ، سورة النساء : ٥١ ، والبقرة ٢٥٦ .

روايات العهد القديم

أولا ـ رؤية عامة

انعكس موقف محمد (ﷺ) تجاه اليهود والنصارى فى روايات الكتاب المقدس التى اقتبسها وجعلها مناسبة عن طريق تحويلها إلى مطالب لدعوته . فالعهد القديم والعهد الجديد، وكذلك الكتب القانونية وغير القانونية تشكل بالنسبة لمحمد (ﷺ) وحدة واحدة ، فأخذ بعضها من كتب العهد القديم – كما اتضح – بتعلمها عن طريق وسيط نصرانى . ولأسباب تطبيقية نعالج أولا روايات العهد القديم وفيما بعد روايات العهد الجديد . وتتناثر معظم هذه المادة فى العهد القديم ككل ، لأن السور الطويلة قد خُصصت لموضوع خاص مع وجود بعض الاستثناءات. وتنسب سورة نوح التى تشتمل على رواية الطوفان إلى هذه الاستثناءات ، كذلك سورة يوسف خُصص قسمها الأكبر لقصة يوسف . وتعرض سور عديدة من الروايات التى تنتمى إلى أجناس أدبية مختلفة، وتمثل منها روايات العهد القديم أو الكتاب المقدس أجزاء صغيرة فقط .

وفى حالات قليلة تم سرد روايات عديدة من خلال تتبع التاريخ الصحيح للكتاب المقدس. ففى سورة الأعراف تمثل الروايات من قصة الخلق وحتى خروج بنى إسرائيل من مصر والتيه فى الصحراء المحور الرئيسى: خلق الإنسان والطوفان (١١–٢٥) ، أوامر لابنى آدم (٢٦–٢٨) (خاصية قرآنية) ؛ نوح والطوفان (٥٩–٦٤) ، عقاب عاد وثمود (خاصية قرآنية موازية لرواية التوراة) (٥٠–٦٨) عقاب سدوم وأهل مدين (الأخيرة خاصية قرآنية) (٤٧–٩٣)، رؤية عامة للعقاب (٩٤–١٠٢) قصة موسى

والخروج من مصر والتيه فى الصحراء (١٠٣-١٦٢) رواية تدنيس السبت فى المدينة والبحر (١٦٣-١٦٦) . ويمثل الطوفان حتى الخروج من مصر الرواية المحورية فى سورة هود (٢٠-٩٩) ويشبه ذلك - لكن بصورة موجزة - سورة القمر (٩-٤٢) .

وتغطى روايات الفترة من الطوفان وحتى العقاب الأخير بتتابع فى سورة الأنبياء، وذلك على النحو التالى : الطوفان (٧٦-٧٧) ، رحمة إبراهيم ونسله (٥١-٧٣) عقاب سدوم (٧٤-٧٥) ، رواية موسى (٤٨-٥٠) ، داود وسليمان (٧٨- ٨١) أيوب ويونس وآخرين (٨٣-٨٨) ، زكريا ويوحنا المعمدان (٨٩- ٩٠) ، مريم والمسيح (٩١-٩٤) والعقاب (٩٥-١٠٥) . ويظهر التتابع أكثر اضطرابا فى سورة مريم فتُذْكَر فى البداية روايات زكريا ويوحنا (١-١٢) ، مريم والمسيح (١٣-٣٦) ، الحساب (٣٧-٤٠) وتبع ذلك مجموعة روايات عن إبراهيم (٤١-٥٠) ، موسى (٥١-٥٣) ، وأنبياء آخرين (٥٤-٥٧) .

وتحتل الروايات المرتبطة ببدايات العالم وخلق الإنسان والجنة وعصيان آدم مكانة بارزة . وتظهر على العكس من ذلك قصة قابيل وهابيل فى موضع واحد فقط (المائدة ٢٧-٣٢) وتُوظف كأساس لتحريم القتل واستثناءات من هذا التحريم وتحتل الروايات التى تعالج الطوفان والفترة من إبراهيم وحتى داود وسليمان من الناحية الكمية المجال الأوسع . ويصل تاريخ بنى إسرائيل إلى نهايته بأخبار الملكين داود وسليمان ولم ترد عنه تفاصيل مسهبة . ويطابق ذلك الفهم اليهودى للتاريخ كما هو ملموس أيضا فى العهد الجديد فى موعظة استيفانوس الذى بدأ رسمه للتاريخ المقدس بإبراهيم وانتهى بداود وسليمان (أعمال الرسل ٧:٢-٥٣). واعتمادا على الرؤى الكمية يُمكن داخل هذه الروايات تسجيل السلسلة متتابعة فى اتجاه تصاعدى على النحو التالى : موسى وخروج بنى إسرائيل من مصر ، نوح والطوفان ، تاريخ إبراهيم ثم لوط وفناء سدوم . وقد وظف محمد (ﷺ) هذه الروايات فى المقام الأول للبرهان على مصداقيته ، وتمت الإشارة إلى معظمها بأساليب أن الأنبياء عَمِلوا لتبليغ رسالة وعانوا من الاضطهاد وعَرَّضوا حياتهم للخطر ، وتسبب ذلك عادة فى إبادة أعدائهم بعقاب إلهى وخلاص

المؤمنين . وطبقا لأسلوب هذا التصور فإن كل الأنبياء قد تلقوا وحيا إلهيا واحدا وبشروا بالرسالة . ولم يعرف محمد (ﷺ) من الأنبياء الكتبة المذكورين فى العهد القديم سوى يونس (الأنبياء ٨٧-٨٨، الصافات ١٣٩-١٤٨)، إلا أن هناك آيات تضم إشارات لنصوص من أسفار الأنبياء الكتبة مثل قصة جسم الميت التى تبعث للحياة (البقرة ٢٥٩، قارن حزقيال ٣٧). وأُشير باختصار إلى كل من إيليا (إلياس) (الأعراف ٨٥، الصافات ١٢٣-١٣٢) إليشع (إليسع) (الأعراف ٨٦، ص ٤٨) وأيوب (الأعراف ٨٤ ، النساء ١٦٣ ، الأنبياء ٨٣-٨٤ ، ص٤١-٤٤).

ثانيا - رواية خلق الإنسان ، الجنة وعصيان آدم

تظهر قصة خلق الإنسان فى التوراة فى صياغتين ، مرة فى نطاق خلق الأيام الستة (التكوين ١ : ١ - ٤ : ٢ أ) ، والثانية رواية منفصلة (التكوين ٢: ٢٤ - ٢٥) وفيها تم تخصيص الجنة لأول زوجين وأُعلن تحريم الأكل من شجرة المعرفة ، وتنتهى الرواية بالعصيان والطرد من الجنة (التكوين ٣). ويظهر فى القرآن الأسلوبان ، ويظهر النمط المذكور فى الموضع الأول من وصف موجز وعلى سبيل المثال فى (سورة الأنعام ١-٢) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾. واختصر ذلك فى سورة (النساء ١) أى اختصر على عمل الأيام الستة وخلق الإنسان والإشارة إلى حواء (التى لم يذكر اسمها فى القرآن) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ ويشعر المرء بالأثر من (التكوين ١ : ٢٨) حيث بارك الرب الإنسان وأمره أن يثمر ويتزايد ويملأ الأرض [1] .

وقد سُردت قصة خلق الإنسان وعصيانه فى مواضع عدة . فالقصة فى سورة (البقرة ٣٠-٣٩) تتكون من أجزاء ثلاثة :

١ - تدبر الرب الأمر فى السماء وأعلن لملائكته قصده من خلق الإنسان؛ فصادف معارضة من الملائكة لأن الإنسان يكون مخطئا وسافكا للدماء لأنه يحول من الإشارة

إلى معرفته الشاملة (ربما إشارة إلى عمل الخلاص المخطط). وعَلَّمَ آدم الأسماء كلها وبها فضله على علم الملائكة ، الآيات (٣٠-٣٣).

٢ - أَمَرَ الرب الملائكة بالسجود لآدم وسجدوا جميعهم إلا إبليس فهو إذن من الكافرين ، الآية (٣٤).

٣ - دل الرب أول زوجين بالجنة أنها مسكن لهما ، والأكل من جميع الثمار باستثناء شجرة واحدة ، وتبع ذلك القصة المعروفة بإغواء إبليس ومخالفة التحريم والطرد من الجنة ، الآيات (٣٥-٣٩).

ويوضح الجدول التالى مواضع وجود الرواية فى القرآن (بما فى ذلك ما ورد فى سورة البقرة) ويظهر المحاور الرئيسية :

السورة	البقرة	الأعراف	الحجر	الإسراء	طه	ص	التين
١	٣٠-٣٣	١١	٢٦-٢٧			٧١-٧٢	٤
٢	٣٤	١١-١٨	٢٨-٤٨	٦١-٦٥	١١٦	٧٣-٨٥	
٣	٣٥-٣٩	١٩-٢٥			١١٧-١٢٤		٥

وتهدف الرواية إلى توضيح وجود الشر فى العالم بدون حدوث ازدواجية ، ويُعد إبليس ملاكا عجيبا برفضه اتباع أمر الرب . وتم سرد هذا الجزء المتوسط والمهم فى خمسة مواضع بإسهاب علاوة على ما ورد فى سورة البقرة . أما الجزء الأول والذى يعرض المشاورة فى السماء وخلق الإنسان فقد عُرض بإيجاز . وتمت معالجة الجزء الثانى والذى يعرض الجدل بين الرب والملاك العاصى بإسهاب مفصل فى سورة الأعراف. وقد أبى إبليس أن يسجد أمام آدم لأنه بدا لنفسه أنه أسمى منه ، وطُرد من السماء وأُتيحت له الفرصة بإغواء البشر حتى يوم القيامة . وكان أول ضحاياه الأبوان الأصليان اللذان سُردت قصتهما مترابطة (١٩-٢٥). ونجد فى سورة الحجر (٣١-٤٣) رؤية أخرى أكثر إسهابا لفهم العلاقة بين الرب وإبليس والتفسير اللاهوتى

ذاته الذى يقدم مبدأ مجال حرية الإرادة : كما لو كان ثأرا ، فلأن الرب تركه يقع فى الخطيئة يريد الشيطان أن يتسبب فى أن ينغمس البشر فى مُغريات العالم ويقودهم إلى حياة الخطيئة . وقد تركه الرب وشأنه مع تحديد : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ، مع أن هذه توقع فى جهنم .

وانتقلت الرواية فى التوراة من رواية الطرد من الجنة إلى رواية قايين وهابيل مباشرة ، وقتل الأخ لأخيه . أما فى القرآن فتنتهى القصة بإشارة للمصالحة . وقد خسر البشر الجنة وتلقوا الشقاء فى الحياة الدنيا ، لكن يصدر الوعد بالخلاص المستقبلى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٧-٣٨)، ويشبه ذلك ما ورد فى سورة طـه (١٢٢-١٢٤) . ويُعد الإسلام هو الهدى .

وتظهر رواية الجنة والعصيان مثل روايات عديدة أخرى فى صورة موجزة ، كما فى سورة التين والتى بسبب قصرها وصيغة القسم فى بدايتها (الآيات ١-٣) تنسب إلى السور المكية الأولى [٢] ، وفيها يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ... ﴾ (٤-٥). ولا يمكن للمرء سرد القصة بإيجاز عن ذلك . وقد كان هذا الإيجاز ممكنا فقط لأن محمدا (ﷺ) ظن أن سامعيه قد عرفوا القصة ، واحتاج فقط لتذكيرهم .

ثالثا ـ قايين (قابيل) وهابيل

سردت قصة قايين وهابيل (التكوين ٤:١-٦) فى سورة المائدة (٢٧-٣٢) . وتقسم قسمين : القصة نفسها (٢٧-٣١) ثم التشريع المستنبط منها (٣٢) . وتعد القصة مختصرة للغاية مقابل قصة التوراة . رغم أنها شملت بعض الإضافات ،

فلم تذكر الأسماء ، وأطلق على قايين وهابيل فى القرآن ابنى آدم . وعلى كل حال لم يخبر القرآن أن قايين كان فلاحا ، وهابيل راعيا [٣] . ولكن قدم كل واحد منهما قربانا لنفسه ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ ؛ فهدد قايين أخاه بالقتل ، وهذه إجابة على أن الرب يتقبل من الأتقياء فقط . واعتبر هابيل ذلك مبررا لنفسه ، ويمثل ذلك تفسيرا لعدم رحمة الرب تجاه قايين مما أدى إلى بطشه . وفى الجانب الآخر استمر تهديد قايين سلبيا للغاية ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ وعلاوة على ذلك بشر بعذاب جهنم (عندما يدان بفعل الاغتيال) ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ . وبعد أن قتل قايين أخاه ظهر له غراب يحفر فى الأرض ليريه كيف يدفن أخاه . إذ لم يكن عارفا لكيفية التصرف فى الجثة . وينتهى هذا القسم من القصة بالندم على القتل ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

ويمثل التشريع المستنبط من القصة تحريم القتل مطلقا عند اليهود . وقد أشار محمد (ﷺ) - كما أخبر القرآن - إلى استثنائين ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ .

وقد أكد أبراهام جيجر (Abraham Geiger) و ن. أ شتيلمان (N. A. Stillman) أن هذا القانون بدون الاستثنائين المذكورين بشأن تحريم القتل فهو من المشنا [٤] . ويمثل ذلك شرحا للتكوين (٤:١٠) " دم أخيك صرخ إلى من الأرض". وكلمة دم موضوعة هنا فى صيغة الجمع "deme" والمقصود طبقا للمشنا ليس فقط دم هابيل بل المقصود أيضا دم ذريته الشرعيين . وينتهى نص المشنا بالعبارة المقتبسة . وتعرف التوراة استثناءات تحريم الموت (قارن الخروج ٢١ : ١٢ وما بعدها) ومن الطبيعى كذلك التلمود . وقد اعتمد محمد (ﷺ) فى الاستثناءات على القانون اليهودى ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، وفي القرآن أُحل القصاص جزئيا وحُرم جزئيا [٥] . وقد سمع محمد (ﷺ) مثل هذه القصة والتشريع المستنبط منها من أحبار اليهود . واستخدمها كسلاح فى الجدل مع اليهود فى المدينة ، وأراد أن يُظهر لهم اعتمادا على ما هو متوافر فى

مأثورهم أن استخدام القوة يكون مباحا فى حالات معينة . ووجد وعظ الأنبياء الذين أرسلوا إلى بنى إسرائيل قبولا ضمنيا ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ ويستدل من ذلك على أن استخدام القوة ضدهم يكون حلالا لأن أحد الاستثنائين لتحريم الموت يعود إلى الفساد.

وتنتمى القصة إلى سياق كبير يبدأ بالخطاب ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ الآية ١٩، وينتهى بالآية ٣٤ ، لأن الخطاب فى الآية ٣٥ تبدأ به قصة جديدة ﴿ يا أيها المؤمنون ﴾ ويشمل القسم الموجه لأهل الكتاب بالإضافة إلى المقدمة (الآية ١٩) ثلاثة أقسام :

١ – الرواية عن موسى ومعارضة بنى إسرائيل أمر فتح أرض الميعاد ثم معاقبتهم بالتيه فى الصحراء أربعين سنة (الآيات ٢٠-٢٦) .

٢ – الرواية التى تمت مناقشتها هنا عن هابيل وقابيل وذكر استثناءات تحريم القتل (الآيات ٢٧-٣٢).

٣ – إحصاء عقوبات للذين يقودون حربا ضد الله ورسله ، وهذه العقوبات هى: القتل (عن طريق الصلب) ، والتشويه (قطع القدم واليد بالتناوب) أو الطرد من البلاد.

وبناءً على الرواية فإن رقم (١) تعد دليلا على ضرورة قيام المؤمنين بالحرب عندما يأمر الرب بذلك عن طريق كلام النبى . وتثبت قصة قايين وهابيل فى رقم (٢) أن القتل مباح فى حالات معينة، وعلى وجه التحديد فإن أسلوب الاستثناء بتحريم القتل يرتبط باليهود أنفسهم. ومضمون رقم (٣) واضح بذاته . وتتناول الآيات (١٩ –٣٤) يهود المدينة . وكما قيل سابقا فإنه قد أُبعد منهم جزء وأُبيد جزء . وهكذا يكون من الواضح إذا ما كانت هذه الأقسام الثلاثة قد نشأت فى الفترة نفسها وتم جمعها من البداية فى هذا السياق أو إذا ما كانت قد جمعت مؤخراً. يتحدث البعض عن الفرض الأخير لأن رقم (٣) تبدو أسلوبيا كما لو كانت شرحا لرقم (٢) ﴿ الذين يفسدون فى الأرض ﴾ ، أى الذين يقودون حربا ضد الرب ورسله .

رابعا ـ الطوفان ومصائب أُخرى

١ ـ نوح

تدور رواية الطوفان فى التوراة (التكوين ٦: ١- ٩: ١٧) حول إبادة الأشرار وخلاص الأبرار . أما فى القرآن فتدور الرواية على عكس ذلك ، فتدور حول نبى بشر برسالة واضطهد من المشركين ، ولذلك أُنقذ نوح وأتباعه ، وغرق الكافرون. وتشمل الرواية القرآنية جانبين ، فهى تُوظف أولا بأن الرب يعاقب الآثمين ، وتُظهر ثانيا أن النبى الذى يتلقى أمرا للتبشير برسالة يعتقد فى مساعدة الرب . فالرب لا يترك عباده فى شك . ومن خلال الإشارة للرواية التى يدور فيها الشىء الرئيسى حول البرهان بأن الرب ينقذ الصالحين ويعاقب الآثمين ، وُجد الحل لقضية معقدة تدور حول : ماذا يحدث للنبى المكلف من الرب ولا يقدر على التهرب من التكليف ، بسبب تعرض رسالته للخطر؟ . وكانت هذه القضية تمثل بالنسبة لمحمد ﷺ أهمية كبرى عندما تأزم فى مكة مع سكانها الكفار ، مما جعله فى النهاية يخاف على حياته .

وسُردت القصة فى القرآن أكثر من عشر مرات بإسهاب طويل أو مختصر (الأعراف ٥٩-٦٤، يونس ٧١-٧٣، هود ٢٥-٤٩، الأنبياء ٧٦-٧٧، المؤمنون ١٠٥-١٢١، العنكبوت ١٤-١٥، الصافات ٧٥-٨٢، القمر٩-١٧، نوح ١-٢٨) . وتعد سورة نوح من السور القليلة التى خُصصت لموضوع واحد . كما سُردت القصة بكاملها فى سورة هود على النحو التالى: دعوة نوح المؤمنين لإله واحد ، وتحذيره من العقاب إن لم يهتد الناس (الآيتان ٢٥-٢٦) ثم تمت مناقشة النزاع مع أعدائه بإسهاب (الآيات ٢٧-٣٤) ، وقُطعت الرواية فى الآية (٣٥) عن طريق إضافة إشارة الاتهام لأعداء النبى ، وهى نتاج خياله . وتبع ذلك الأمر لنوح ببناء الفلك ، ليصعد إليها هو وعشيرته وحيوانات من كل جنس (الآيات ٣٦-٤١). واستقرت الفلك بعد الطوفان على جبل الجودى (الآية ٤٤) (٦) . ثم غادر نوح الفلك وتلقى بركة الرب (الآية ٤٨). وربما تكون هذه القصة صدى لما هو موجود فى التوراة (التكوين ٩: ١-١٧) .

وتم إقحام قصة فى سورة هود غير معروفة فى التوراة ، والقصة هى رفض ابن نوح الذهاب مع أبيه فى الفلك ، ورغب أن يأوى إلى جبل معتقدا أنه يصبح بذلك فى مأمن ، لكنه غرق (الآيتان ٤٢-٤٣) . تَشفَّع نوح بحجة أن ابنه من عشيرته ، ورفض الرب ذلك (الآيتان ٤٥-٤٦) ، ويظهر ذلك أن قرابة الدم لا تفيد فى الخلاص بل العقيدة هى التى تفيد . لذلك فابن نوح إن كان قد اعتقد فى العقوبة التى أنذر بها من أبيه ، واعترف أن التابوت هو الملجأ الوحيد لكان قد أُنقذ من الغرق .

ووعظ النبى وجداله مع خصومه بصفة خاصة تم سرده بإسهاب فى أحداث مختلفة . وصار الموضوع ملائما لأن يشرح محمد (ﷺ) فهمه الشخصى ويوضح بعثته . وقد خصصت سورة نوح كلية لدعوته . ومن أجل فهم أفضل لهذه السورة يجب توضيح العناصر والصور الشكلية فيها بإيجاز . فهى تقسم من وجهة النظر الشكلية والضمنية إلى سبعة أقسام على النحو التالى:

١ – العنوان وبيانات الموضوع ، والتحذير قبل العقاب (الآية ١).

٢ – العودة للعقيدة وإنذار بالعقاب (الآيات ٢-٤) .

٣ – طاعة نوح للرب ورفع الظلم عن نفسه ، وكرر ذلك باجتهاد ، حتى صار وعظه بلا فائدة ، ثم بشر بأن الرب هو الرحيم والخالق (الآيات ٥-١٤) .

٤ – تكملة لرقم (٣) حيث الرب خالق العَالَمْ وخالق البشر ، يميته ويبعثه (الآيات ١٥-٢٠) .

٥ – خضوع نوح للرب ، ووصف أحد الأعداء ، والذى طلب من الناس التمسك بعقيدة الآباء الوثنية ، ثم إحصاء أسماء خمسة أوثان عربية قديمة (كانت موجودة فعلا فى زمن نوح) [٧] ، وطلب نوح من الرب قسوة قلب العصاة حتى لا ينجوا من العقاب (الآيات ٢١-٢٤) .

٦ – نتيجة الطوفان : أى إغراق الطوفان للآثمين ولعنهم يوم الحساب فى النار (الآية ٢٥) .

٧ – طلب نوح من الرب إبادة الكفـار من على الأرض ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (الآيتان ٢٦–٢٧) ، وربما تكون هذه إشارة إلى أبناء الله وبنات البشر فى التكوين (٦ : ١ – ٤) ، ثم يطلب نوح من الرب أن يغفر له ولوالديه وكل المؤمنين وكل العصاة (الآية ٢٨) .

يُستنتج من التحليل أن السورة مكونة فى الأصل من ثلاث قصص مستقلة. فتتكون القصة الأولى من (١–٤) (وربما تُقسم مرة ثانية) ، وتشمل القصة الثانية (٥–٦) ، حيث تلفت الرواية النظر إلى قصة الطوفان ، ويصف رقم (٦) النتيجة فقط. وتتكون القصة الثالثة من (٧) وتبدأ بها رواية جديدة تماما يصبح نوح فيها على قمة الأحداث .

ويظهر مضمون وعظ نوح مختلفا فى القصص الثلاث . فيعلن فى القصة الأولى عن العقاب الوشيك (لأنه منذر) كما يُدعى فى الآية الأولى ، لكن العقاب أُجل إلى أن يتوب الناس . وفى النهاية يأتى بعث الموتى ويوم الحساب . ويرتبط هذا الموضوع ارتباطا وثيقا بموعظة الرب الخالق . وتدور القصة الثانية حول عقيدة الإله الواحد والحرب ضد آلهة العرب القديمة ، والوثنية العربية القديمة . وهذان الموضوعان ، ونعنى بهما الإله الواحد والحساب ، يمثلان موضوعى الوعظ اللذين اهتم بهما محمد (ﷺ) فى بداية بعثته ، وهكذا يبقى واضحا فى أى تتابع يوضع الموضوعان فى وعظ النبى . والقصة الثالثة عبارة عن أجزاء متناثرة ، ويبدو بوضوح أن الوضع فيها مشابه للوضع فى القصة الثانية ، وعلى كل حال تتطابق القصتان فى طلب إبادة أعدائه المشركين . وتوضع هذه القصص بناءً على ذلك مع تقليد المزامير التى صلى فيها داود، المظلوم العادل ، من أجل الخلاص (المزامير ٣ ؛ ٧ ؛ ٣٥ ...) .

وقد تعرض نوح بسبب وعظه إلى الكرب ، وهُدد بالرجم ، وطبقا لشهادة العهد الجديد فقد عانى الشماس استيفانوس من الموت لأنه ، كما يقال ، قد تحدث بكلمات معيبة ضد موسى والرب (أعمال الرسل ٦ : ١١) ، فالميتة نتيجة الاعتداء على ديانة الآباء . وقد صلى نوح من أجل الخلاص ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ

منَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ١٨) ، وقريب من ذلك (الأنبياء ٧٦، القمر ١٠) . وهلاك الكفار له وظيفتان هما : خلاص النبى المضطهد ، وهلاك الآثمين .

ويمثل النبلاء أعداء نوح (الأعراف :٦٠، هود : ٢٧،) بينما يتألف أتباعه فى المقام الأول من الطبقات الدنيا (هود :٢٧، الشعراء ١١١) . وهذا التصنيف للأتباع والخصوم يُمكن أن يكون مستمدا من الإنجيل ، فيسوع قد اصطحب معه الفقراء ، أما الأغنياء والكهنة والفريسيون فيمثلون خصومه . وقد انعكس ذلك بلا شك على وضع محمد (ﷺ) فى مكة فقد كان أعداؤه الأساسيون التجار الأغنياء والنبلاء . أما بولس الرسول فقد كان يفتخر باستقلاله الاقتصادى ، ويؤكد فى خطابه أمام رؤساء جماعة أفسيوس أنه لا يتقاضى أى نقود مقابل وعظه ، علاوة على ذلك كان يعيش من عمل يديه (أعمال الرسل ٢٠: ٣٣- ٣٤) ، وكذلك نوح لم يتقاض أى أجر (يونس ٧٢، هود ٢٩، الشعراء ١٠٩) . وقد سُب محمد (ﷺ) صراحة من خصومه ، لأنه انتهج من وراء وعظه أهدافا مادية . وقد اتبع نوح أمر الرب (الأعراف ٦٢) . وقد كان نوح بشرا كما كان محمد (ﷺ) والمسيح (هود ٢٧) ولم يتمتع بقوى إلهية كما أنه لم يكن ملاكا (هود ٣١) ، رغم أن الرب يمكنه أن يُرسل ملاكا مكان البشر لإعلان رسالته (المؤمنون ٢٤). ولم يكن نوح مجنونا (المؤمنون ٢٥، القمر ٩)، وهى سُبة أراد محمد (ﷺ) أن يقاومها [٨] .

٢ ـ مصائب أُخرى

يُعد الطوفان ودمار مدينة سدوم من عقوبات التوراة المشهورة . ويُفهم الطوفان فى القرآن بأنه عقاب شامل ، لذلك احتاج محمد (ﷺ) إلى نموذج عقاب جزئى يستعمله ضد أهل مكة . وتُحقق رواية لوط وهلاك سدوم هذا الشرط . ولوط فى الكتاب المقدس يُعد مشرعا أنقذ وعائلته بينما أُفنى السدوميون بسبب آثامهم (التكوين ١٩: ١- ٢٩). وتتطابق الرواية تماما مع رواية الطوفان وفيها يُحدد أن العقاب على المدينة فقط. وقد وعظ لوط لكنه اضطهِد ، ولذلك أُنقذ لأن الرب أمره أن يترك المدينة . وتظهر

قصة لوط فى التوراة مرتبطة مع رواية زيارة الملائكة الثلاثة لإبراهيم عند بلوطات ممرا. وذهب الملائكة إلى سدوم لإنجاز العقوبة ، بعد أن فشلت محاولة منع حدوث عقاب الرب (التكوين ١٨-١٩) . وكان الملائكة فى طريقهم إلى سدوم التى قرروا هلاكها ، لكنهم قد توقفوا عند إبراهيم ليبشروا بميلاد إسحاق . وكما يبدو للمرء فإن الرواية التوراتية شملت وظيفتين هما : مباركة البار ومعاقبة الآثمين . فتلقى إبراهيم الوعد بالنسل ، واستأصل حبل الآثمين .

وشملت رواية وعد إبراهيم فى القرآن نص قصة لوط وهلاك سدوم ، كما فى سورة هود، حيث تعرض وعد نوح فى البداية (الآيات ٦٩-٧٦)، ثم تعرض بعد ذلك للوط وهلاك المدينة (لم يُذكر اسمها فى القرآن) (الآيات ٧٧- ٨٣) وينطبق الأمر نفسه على سورة الذاريات (الآيات ٢٤-٣٧) . إلا أن التركيز فى الحالتين على رواية لوط وهلاك سدوم ، لأنهما تُسردان فى السورتين ضمن سلسلة من العقوبات المتتابعة عقب سلسلة عقوبات الطوفان . وقد أُدرجت فى هذه القائمة أيضا قصة لوط ، إلا أنه لا يمكن أن تكون قد انفصلت عن قصة إبراهيم والملائكة عند بلوطات ممرا . وقد استقلت الروايتان فيما بعد حيث يظهر وعد إسحاق قائما بذاته فى سورة مريم (الآيتان٤٩-٥٠)، وكذلك سورة الصافات (١٠٠- ١٠١ ، ١١٢- ١١٣) . ووردت قصة فناء مدينة لوط منفردة فى سورة الأعراف (٨٠- ٨٤) ، والشعراء (١٦٠- ١٧٥) ، والقمر (٣٣- ٤٠) .

وبالإضافة إلى الروايات الموجودة فى الكتاب المقدس عن الطوفان وفناء سدوم ، توجد روايات فى القرآن عن عقوبات أخرى ليس لها نموذج فى الكتاب المقدس . وتصف هذه الروايات قصصا عربية قديمة شائعة . وتمت صياغتها طبقا لنموذج توراتى ، وتم تفسيرها لاهوتيا بقصد معرفة الرب والعالم . ويشير المرء لهذه الروايات إلى أنها "روايات توراتية غير قانونية ". وتحتل رواية فناء المديانيين (مدين) مكانة وسطى ، وهم معروفون من التوراة ، لكنها لم تشر إلى أى عقوبة لهم . وكان شعيب نبى المديانيين ، وهو يطابق يثرون فى التوراة صهر موسى وكاهن المديانيين (خروج ٢: ١٦). والروايات التوراتية غير القانونية تتناول لفظيا الأقوام العربية القديمة عاداً وثمود ونبييهما هود وصالح ،

وتتناول أيضا الصابئة ومدينة الحجر ، وقد هلكوا جميعا لعدم استجابتهم لدعوة الأنبياء وإصرارهم على الكفر. وهذه تمثل روايات الخلاص لأنها تُظهر كيف أن الأنبياء وأتباعهم تعرضوا للخطر، وأُنقذوا عن طريق هلاك الكفار .

والأقوام والقرى التى وقعت ضحية للعقاب ليس لها معالم خاصة . وبغض النظر عن تشابه النبيين المذكورين (هود وصالح) فإن وعظ وعمل الأنبياء يختلف عما عرفناه عند نوح . فتوصف عاد بقوة الجسم (الأعراف: ٦٩) وعاشوا بين الكثبان الرملية (حرفيا : الأحقاف) (الأحقاف : ٢١)، وقد شيدوا على كل رابية مَعْلَما ، وأملوا من بنائهم هذا الخلود (الشعراء ١٢٨- ١٢٩) . وتبعوا أمر المُستبِد (هود : ٥٩) . وصارت مساكنهم مقفرة مثل ثمود (العنكبوت ٣٨) . أما ثمود فقد نحتت بيوتا فى الجبال (الشعراء : ١٤٩) ، وهو ما قيل فعلا عن سكان الحجر (الحجر :٨٢) . ويقال فى الجانب الآخر أن منازل ثمود هُدمت (صارت خاوية) (النمل :٥٢) وهو أسوأ ما يناسب المنازل التى تنحت فى الجبال . وقد كان لصالح نبى ثمود ناقة ، وأحاطها بعناية إحاطة الناس بالقلب، لكنه عومل معاملة سيئة من الكفار (الأعراف : ٧٣، الشعراء : ١٥٥، هود : ٧٣) . وقد تآمر ضده تسعة رجال بهدف قتله وأتباعه ، ثم يقسم الثأر المستحق بعد ذلك عن طريق الامتناع عن الشهادة (النمل: ٤٨- ٤٩) ، وقد أبرزت المعلومات فى القرآن البناء الأسطورى ، ولم تفقد أيضا المحاولات فى تحديد الأحداث . ويقال ذلك عن القبور الصخرية فى الطرف الشمالى من الحجاز ، مقارنا إياها بالبتراء ومدائن صالح أو الحجر . ويُشار إلى قبر صالح فى جنوب بلاد العرب وشبه جزيرة سيناء . كما ارتبط قوم هود بأماكن كثيرة (٩) . وأما ثمود فيذكر المرء العديد من النقوش العربية القديمة المنتشرة فى شبه الجزيرة العربية عنها .

وكما لا يعرف المرء الكثير عن عاد وثمود فإنه لا يعرف كذلك كثيرا عن أهل مدين المعروفين فى الكتاب المقدس بالمديانيين (١٠) . ويشار إليهم فى الكتاب المقدس بأنهم تجار ، جاءوا بيوسف إلى مصر (الخروج ٣٧ : ٣٦) . وقد نبههم القرآن بضرورة إيفاء الكيل والميزان كاملا (الأعراف ٨٥، هود ٨٤-٨٥، الشعراء ١٨١-١٨٢) . وكانوا فى

البداية قليلى العدد، ثم صاروا فيما بعد شعبا كبيرا (الأعراف ٨٦) ، وربما فى ذلك إشارة إلى اضطهاد بنى إسرائيل لهم ، كما تم وصفهم فى سفر القضاة عند هزيمتهم من جدعون . ويشير إليهم القرآن بأنهم " أصحاب الأيكة " (الشعراء ١٧٦) (١١) ، وكانوا لا يقطنون بعيدا عن أهل لوط (هود ٨٩) .

وأما السبئيون فلا تتوافر عنهم معلومات ذات قيمة كبيرة . وتم سرد أخبارهم في سورة سبأ بأنهم امتلكوا جنتين واحدة فى اليمين والأخرى فى الشمال (سورة سبأ ١٥). وفيما بعد تحطم السد وأباد الفيضان الجنتين ، وبقيتا صحراوين بهما نبت قليل (الآية ١٦) . وربما تكون هذه الكارثة إشارة لانهيار سد مأرب ، وفسرها محمد (أنها عقاب لعدم شكر السبئيين (الآية ١٧). ويرد بعد ذلك أن السبئيين قاموا بالتجارة حتى وصلوا إلى فلسطين (الآية ١٨) . ومن جشعهم رغبوا فى التوسع فى الإقليم الذى قاموا بالتجارة فيه ، ولذلك عوقبوا بالإبادة التامة (الآية ١٩).

وتلعب النقمة التوراتية الخاصة برواية خلاص بنى إسرائيل أثناء عبورهم البحر وفناء المصريين فى هذا السياق دورا مهما . ويخبر القرآن عن "الروايات السبع" (الحجر ٧، قارن الزمر ٢٣) . وينسب المرء هذه الروايات إلى روايات العقاب ، لكن يبقى هذا غير واضح (١٢) . وعلى كل حال يوجد فى القرآن قوائم متسلسلة من النقم، والتى تسرد متسلسلة ، وتبدأ من الطوفان . ففى سورة هود توجد سلسلة متصلة تبدأ بالطوفان (٢٥- ٢٨) ثم عقاب عاد (٥٠-٦٠) وعقاب ثمود (٦١-٦٨) وعقاب سدوم (٧٤- ٨٣) المرتبطة مع قصة وعد إسحاق ، وأخيرا عقاب المديانيين (٨٤- ٩٥) ويوافق ذلك ما ورد فى سورة الأعراف (٥٩- ٩٥) (فى حين تسقط قصة ممرا ولا تلعب أى دور فى هذا السياق) وسورة الشعراء (١٠٥- ١٩١) (١٣) ، وأما فى سورة العنكبوت فترد القائمة مع تغيير طفيف فى التسلسل تبدأ بالطوفان (١٤- ١٥)، ثم إبراهيم ولوط (١٦-٣٥) فالمديانيين (٣٦-٣٧) وأخيرا عاد وثمود (٣٨) .

وبالعقاب الذى حل بالمديانيين تم الوصول إلى عصر موسى . وطبقا للأخبار التوراتية والقرآنية فقد وجد موسى ملاذا فى مدين (الخروج ٢ : ١١ - ٢٢)،

(سورة القصص : ٢٢- ٢٨). وبناء على ذلك فإن الرواية عن فناء المصريين فى سورة هود (٩٦- ٩٩) تُلحق مباشرة بالرواية عن فناء المديانيين (٨٤-٩٥) . ويشبه ذلك السلوك ما ورد فى سورة الأعراف ، إلا أنه بين الرواية عن المديانيين (٨٥-٩٣) ورواية موسى والمصريين (١٠٣-١٠٦) أُقحم موجز بتأمل شامل عن القرى وقصصها ، وهذا يعنى وعظ الأنبياء وصدهم وأحداث العقاب (٩٤- ١٠٢) .

غير أنه لم تنته سلسلة العقاب بفناء المصريين. ففى سورة الأعراف وعلى أثر ما ورد فى الآيتين (١٣٦-١٣٧) تُسرد قصة التيه فى الصحراء ومنح الرب موسى الشريعة فى سيناء (١٣٨-١٦٢) . وعلى أثر ذلك ترد الرواية المفهومة ذات التفاصيل العديدة عن " مدينة البحر " وانتهاك السبت والتى أُستخدمت لعقاب القردة (١٦٣-١٦٦). وعندما يرد الحديث عن السبت فالمقصود هنا هم بنو إسرائيل أو اليهود . ويبدو هنا كيف أن وصية السبت التى تعد جزءًا من الوصايا المعلنة فى سيناء ، تم انتهاكها من بنى إسرائيل أو اليهود ، كما يبدو كيف كانت عقوبتها . وعلى أثر هذه القصة يرد تحذيرهم بالحرمان حتى نهاية الزمن ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (الأعراف ١٦٧).

وفى سياق تطور الوعظ القرآنى أُختصرت روايات العقوبات المسهبة إما اختصارا كثيرا وإما قليلا بذكر جملة مأثورة . ويرد مثال على ذلك فى سورة الحج ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ... ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ... ﴾ (٤٢-٤٤) [١٤] . وعلى أثر الرواية المسهبة عن الطوفان فى سورة يوسف (٧١-٧٣) أُختصر العقاب اللاحق جزئيا فلم تذكر مطلقا أسماء الشعوب (الأمم، الأقوام) والقرى أو الأنبياء ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧٤) [١٥] . وتتبع قصة موسى هذه الأقوال الشاملة ، والتى يبرز فيها فناء فرعون والمصريين (٧٥-٩٢) .

خامسا ـ إبراهيم

١ ـ صاحب الرسالة ، الكرب والفرج

تبدأ قصة إبراهيم التوراتية بالتجوال والوعد بالذرية (التكوين ١٢) . ولا تعرف التوراة إلى حد ما أى شيء عن حياة إبراهيم قبل التجوال . وقد قيل باختصار فى سفر القضاة (٢٤: ٢) إن آباء بنى إسرائيل فى عصور ما قبل التاريخ قد قطنوا فى نواحى بلاد النهرين (يعنى أور الكلدانيين من ناحية الفرات) وعبدوا آلهة أخرى . وكما ينقل التفسير فإن إبراهيم قد تعرض قبل التجوال للاضطهاد ، والحقيقة قد عرف ذلك المأثور الربانى والنصرانى ، كما يشهد بذلك هيرنيموس [١٦] . وكان هذا المصدر من المصادر التى توهمها محمد (ﷺ) . ووجد فيها معلومات تدعم خبراته الخاصة ، وهذه المعلومات هى : اعتراف إبراهيم بإله واحد ، وأنه دُعى للنبوة ، ووقع فى الكرب والرب أنقذه. واستطاع أن يغير من الاضطهادات المتتابعة لأنه تلقى الأمر بالتجوال والرحيل إلى بلد يكون فيها آمنًا .

واكتشف إبراهيم أثناء تأمله نجوم السماء الطريق إلى عقيدة الإله الخالق ، وكان من الضرورى فى أعقاب ذلك حدوث تحول دائم إلى إله ثابت (الأنعام ٧٥-٧٩)، فتحول من الوثنية إلى الحنيفية (٧٩) . و أكملت المعرفة الواضحة وأتمت المعرفة العقلية المكتسبة ، ولم يكن هناك مجال للشك بأنه نبى (مريم ٤١) . وتعرض بسبب عقيدته لعزل اجتماعى . فبينما يُسرد فى التوراة أنه ترك بيت أبيه ، يرد فى القرآن فى البداية مجادلات مع أبيه المشرك ، ووُصِفَ ذلك بإسهاب فى سورة مريم على النحو التالى : يخبر إبراهيم أباه بالوحى الذى تلقاه ﴿ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ثم طلب من أبيه الإيمان (٤١-٤٣) وحذره من عقاب جهنم (٤٤-٤٥) ، ورغم أن الأب يعرف أن ابنه على صواب إلا أنه أخذ بقذفه بالحجارة وطرده من البيت (٤٦-٤٧)، ومع ذلك صلى إبراهيم من أجل أبيه (٤٧-٤٨).

ويبرز فى الجدل بين إبراهيم وأبيه توعد الدين الجديد لعقيدة الآباء . ويطرح السؤال إذا ما كانت طاعة الرب قد حدثت قبل طاعة الأب . وبطبيعة الحال

فإننا فى مواضع أخرى نصادف هذه القضية التى شغلت كثيرا محمد (ﷺ) وجماعته الصغيرة . فالعصيان ضد سلطة الأبوين يؤدى إلى العقاب ، وفى الوصايا العشر (أكرم أباك وأمك لكى تطول الأيام التى يعطيك الرب إلهك) (الخروج ٢٠ : ١٢) . ولا يسر ذلك عندما يتعلق الأمر بالعقيدة . ولذلك كوفئ إبراهيم بالذرية المؤمنة بسبب عدم طاعته لوالده واختياره العقيدة الصحيحة (مريم ٤٩-٥٠) .

وقد بشر إبراهيم بالرسالة خارج نطاق العشيرة ، ودخل فى مجادلات حادة (الأنعام ٨٠-٨٢) . وغالبا ما وُصف هذا الخلاف عن الجدل مع الأب (الأنبياء ٥١-٥٧ ، الشعراء ٦٩-٨٢، الصافات ٨٣-٨٧، الزخرف ٢٦-٢٨) . وفى سياق عقيدة إبراهيم تنسب رواية الملك الذى ادعى لنفسه المُلك (السُلطان) الإلهى، وقد أُحبط عندما طلب إبراهيم منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب (البقرة ٢٥٨) [١٧] . كما وردت قصة متكررة حول صراع إبراهيم مع الكفار ، وهى قصة تحطيم الأصنام (الأنبياء ٥٨-٦٧، الصافات ٩٠-٩٦)، ونتيجة لذلك صار مكروها وقرر أعداؤه حرقه فى النار ، ولكن الرب خلصه (الأنبياء ٦٨-٧٠، العنكبوت ٢٤، الصافات ٩٧-٩٨). ونشأ هذا العنصر من قصة أخرى وهى قصة خلاص الشبان الثلاثة (دانيال ٣: ٢٤-٩٠)، كما سُرد ذلك أيضا فى الأدب الربانى [١٨] .

وبرواية تجوال إبراهيم مع رواية لوط التى أُقحمت فى هذا الموضع (التكوين ١٢: ١٤) فإن القرآن قد أفاد من الوصف التوراتى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء ٧١) . وفى موضع آخر يرد الحديث عن إبراهيم ، ويبدو من النظرة الأولى أنه أقل وضوحا ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الصافات ٩٩) . وتُعد ترجمة بارت لهذا الموضع ركيكة ومضللة. فإبراهيم قال حرفيا ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ فهذا يفترض أنه قد صدر أمر إلهى قبل ذلك . وتعنى ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أى إلى أورشليم أو الأرض الموعودة حيث اتخذ الرب لنفسه مسكنا فى صهيون ، و ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ تعنى أن الرب سيُظهر لى الطريق ، وذلك اعتمادا على ما ورد فى التكوين (١٢: ١) حيث أمر الرب إبراهيم بالتجوال " فى الأرض التى أُريك إياها " .

وطبقا لما ورد فى الكتاب المقدس فقد تلقى إبراهيم الوعد بزيادة النسل مرات عديدة . ففى المرة الأولى كان مع الأمر بترك موطنه (التكوين ١٢: ١-٣)، والمرة الثانية بعد اعتزاله لوطًا (التكوين ١٣) ، والمرة الثالثة بعد لقائه مع ملكى صادوق الكاهن : وعد الرب إبراهيم ، الذى كان يرغب فى الذرية ، بزيادة النسل " فآمن بالرب فحسبه له برا " (التكوين ١٥: ٦) . وتبع ذلك قطع العهد مع الوعد بالأرض ، وارتبطا بالظهور الإلهى ؛ حيث ظهر الرب لإبراهيم وطلب منه أن يقطع بقرة ومعزة وكبشا وحمامتين ، وذلك إشارة إلى حقيقة العهد. وقد تم وضع كل جزء مقابل الآخر ، وليلاً " انبعث شىء مثل آتون الدخان وشعلة مضيئة بين هذه الأجزاء " ، وفى النهار قطع الرب مع إبراهيم عهدا . ثم كان الحديث للمرة الرابعة عن الوعد بزيادة النسل وقطع العهد (التكوين ١٧) .

وتذكير بقطع العهد السابق المذكور فى التكوين (١٥) نجده فى صيغة غامضة فى سورة البقرة (٢٦٠) حيث أُستخدمت القصة لتُدَلل على بعث الموتى ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٦٠) (١٩) .

والوعد بالنسل وقطع العهد اللذين وردا مرات عدة فى الكتاب المقدس ، تم إدراجهما فى سورة البقرة (١٢٤) ، وهذه الآية هى الموضع الوحيد فى القرآن الذى نوقش فيه هذا الموضوع. وكما ورد فى صدر هذه الآية أُختبر إبراهيم بكلمات من ربه . وكما يعتقد البعض ينحسر الاختبار فى أن الرب أمره أن يضحى بابنه إسحاق ، وطبقا للآخرين ينحسر فى أن الرب أمره أنه وُعِدَ بالذرية رغم أنه قد أصبح شيخا (٢٠) . وبناءً على ذلك يعد الاختبار فى الحالة الأولى اختبار طاعة ، وفى الحالة الثانية اختبار عقيدة . ويُعد اختبار الطاعة أفضل . وينحسر الاختبار الذى قُدم لإبراهيم فى أنه يتكون من وعد الذرية من خلال كلمات الرب رغم أنه وسارة قد تجاوزا عمر الإنجاب بكثير . وبما أن الوعد بالذرية يمثل اختبارا فلم يرد عنه شىء فى التكوين (١٢) ، هذا فيما يتعلق بالوعد الأول ، ولكن نوه فى التكوين (١٥: ٣) إلى أن إبراهيم قد تألم لعدم

وجود طفل له وتخوًف من أن يكون وريثه العبد المملوك . وقد وُصف الاختبار بوضوح كامل فى التكوين (١٨) ، وذلك أثناء زيارة الملائكة الثلاثة عند بلوطات ممرا ، والبشارة بميلاد إسحاق ، كما تمت الإشارة إلى عمر إبراهيم وسارة . وتدل إشارة أشمل فى سورة البقرة ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ ، وهذا يعنى كلمات (الوعد) ، وينبغى أن نُكمل ووهب إبراهيم الذرية . والآية التالية لا ترتبط بأى صورة من الصور بالآية السابقة ، لأن الحديث فيها لا يكون عن الذرية بل عن البشر وعلاقتهم بإبراهيم ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وتعنى" إماما " (قائدًا، مرشدًا ، نموذجًا) [٢١] . والأمر هنا يدور حول الناس البسطاء ، وليس حول ذرية إبراهيم الذين – وفقا لعلاقتهم بإبراهيم – يمثل لهم نموذج البطريرك . وعلى ذلك فإنه يسأل : (هل أيضا أناس) ومن ذريتى (يدخلون فى العهد) ؟ ﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ . وينحسر العهد الذى قُطع فى أن الرب جعل إبراهيم نموذجا، وبخاصة يمثل نموذجا للعقيدة ، وقد أكدها فعلا أثناء الوعد بالذرية والكل صار بارا لأنهم آمنوا مثله .

وفى سورة البقرة (١٢٤) يكون الحديث عن عملين هما الوعد والعهد . وفى التوراة تكون الإشارة إلى الوعد بالأرض (التكوين ١٥: ١٨-٢١) ، أما فى القرآن فيكون الوعد هو الخلاص عن طريق الإيمان . وهنا يُنظر إلى إبراهيم برؤية الموروث النصرانى . فالمسيح قد تجادل مع اليهود الذين تباهوا بأصلهم واستمدوا من ذلك خلاصهم (متى ٣: ٩). ولكن عندما تفقد العقيدة فإن الانتساب إلى إبراهيم لا يفيد فى الخلاص. ويقول بولس (إبراهيم أبو المؤمنين) (الرسالة إلى أهل رومية ٤: ١٦) . فالعهد مع إبراهيم يشير إلى المؤمنين وليس إلى الذرية التى من صلبه فقط . وقد تم إيراد المسألة بصورة مشابهة فى القرآن ، فإبراهيم لا يشير بالعهد إلى الذرية من صلبه كلية، لأنه " نموذج لكل البشر " . وبما أنه اعتنى بالورثة من صلبه فأراد أن يدرك ضمهم فى العهد ، وهو ما قد سُمح له به . أما المخطئون فسيبقون بعيدا عن العهد ! والناس الذين يتخذون إبراهيم إماما هم الصالحون والمؤمنون ، ويُمكن أن يكون بينهم ذرية من صلبه. وهم يشكلون مجموعة من المؤمنين وليس لهم حقوق أكثر

من المؤمنين الآخرين . هذا يعنى أن العقيدة الصحيحة ليست منحدرة جسديا من إبراهيم .

٢ ـ تحت شجرة بلوطات ممرا ، تضحية إسحاق

تسرد قصة إبراهيم تحت شجرة بلوطات ممرا وزيارة الملائكة الثلاثة فى القرآن فى عدة مواضع معتمدة اعتمادا وثيقا على رواية التوراة (التكوين ١٨) ، إلا أن الرواية فى القرآن موجزة (هود ٦٩-٧٣، الحجر ٥١-٥٦، والذاريات ٢٤-٣٠). والقصة باستثناء ما ورد فى الصافات (١٠٠-١٠١، ١١٢-١١٣) تعد جزءًا من قصة لوط وعقاب سدوم ويكون التأكيد على القصة الأخيرة . وقد تم بحث ذلك فى الجزء الخاص بالأنبياء والعقوبات ، ولسنا فى حاجة لتكرارها هنا .

وبينما سُردت أحداث أخرى عن حياة إبراهيم مرات عديدة ، وسُرد بعضها بصور متعددة ، فقد وردت قصة التضحية بإسحاق فى سورة الصافات فقط ، وبالأحرى فى سياق مرتبط بالسيرة الذاتية لإبراهيم ، والمكونة من عدة أجزاء على النحو التالى :

١ - وعظ إبراهيم وإنقاذه من النار (٨٣- ٩٨).

٢ - التجوال (٩٩).

٣ - الرجاء بابن والبشارة بميلاد إسحاق ، ولم يُذكر الاسم ، ثم موجز لرواية ظهور الملائكة عند بلوطات ممرا (الإشارة للمكان غير موجودة فى القرآن سواء هنا أو فى أى موضع آخر) ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (١٠٠-١٠١).

٤ - قصة التضحية بالابن وخلاصه .

وفيما يتعلق بعرض القضية فقد اعتمدت اعتمادا وثيقا على رواية التوراة حتى وإن كانت موجزة وذات اختلافات مهمة ومحددة (١٠٢-١١١)، ومرة أخرى لم يُذكر الاسم . وبما أن الأمر لم يرتبط أثناء التضحية بإسحاق بل بإسماعيل ، فقد استدل

التفسير القرآنى على هذا من حقيقة أن قصة التضحية تُبعت بقصة البشارة بإسحاق ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١١٢) (٢٢) . لكن هذا التفسير بغض النظر عن الآية (١١٢) حيث تبدأ رواية مشابهة للرواية فى القسم الثالث ، وهى قصة البشارة بابن غير محدد الاسم . وتتحدث الروايتان (١٠٠-١٠١)، (١١٢-١١٣) عن الشىء نفسه ، يعنى ظهور الملائكة الثلاثة عند بلوطات ممرا والبشارة بميلاد إسحاق . ولا يمكن للمرء استنتاج أن (١١٢-١١٣) تدور حول إسماعيل .

وتبرز على الساحة قضية أخرى إلى جانب قضية إذا ما كان قد ضُحى بإسحاق أم بإسماعيل، وهذه القضية هى مكان الحادثة . فالتوراة تشير إلى رحلة إبراهيم إلى أرض ألموريا وضحى بالأضحية على أحد الجبال هناك (التكوين ٢٢: ٢) . وطبقا لأخبار الأيام الثانى (٣: ١) ، فإن جبل ألموريا هو الموضع الذى شيد عليه سليمان الهيكل، وأما فى القرآن فتوجد إشارة غير واضحة للمكان . وقيل فى بداية القصة إن إبراهيم تلقى الأمر بالتضحية بابنه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ (١٠٢) . ويقترح " بارت " هذه الترجمة ، وقد زود السعى بوضع علامة استفهام ، ويشير السعى إلى طقس بين صخرتى الصفا والمروة الموجودتين بالقرب من مكة . وينسب السعى بين الصفا والمروة سبع مرات بعد الطواف حول الكعبة سبع مرات إلى شعيرة الحج . وطبقا لهذا الفهم للسعى فإن الأضحية تمت عند الكعبة أو بالقرب منها . ويبدو واضحا للغاية أن المرء اعتبر الصخرة فى منى ، بالقرب من مكة ، على أنها مكان تضحية إبراهيم ، لكن وجد مسلمون فى القرن العاشر أنكروا ذلك وتبعوا المأثور اليهودى ، أى أن تضحية إبراهيم كانت على جبل ألموريا ، أى فى القدس (٢٣) .

والإشارة إلى أن السعى أو إلى أن إبراهيم كان فى وضع تنفيذ الطقس ، يمكن أن تعنى أيضا أن الابن قد كبر إلى حد ما حيث استطاع أن يقرر بنفسه ، أى أنه صار بالغا دينيا . ففى رواية التوراة يسأل أباه عن طير الأضحية الذى فقده ، لأنه قد استعد من أجل القربان عن طريق أخذه النار والحطب . وأجاب إبراهيم جواب المتهرب مثل الطفل الذى لم يقدر بعد على الفهم. ومن الضرورى أن ذلك تم عن عمد

حتى لا يزعج الابن (التكوين ٢٢: ٦-٨) . أما فى القرآن فقد أخبر إبراهيم ابنه بأمر الرب ، دون أن يسأله السؤال السابق ، واستسلم الابن لإرادة الرب دون معارضة ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٠٢) . وقد كان الابن بالغا بما فيه الكفاية مع معرفة جسامة التكليف . ويريد محمد (ﷺ) أن يُظهر فى توسع عن الرواية التوراتية أن ابن إبراهيم كان مسلما . وأمام هذا الغرض توارت القضية حول مكان الحدث . وكما نتذكر فإن إبراهيم قد أنذر أباه بالطاعة ، لأنه تلقى الطاعة من الرب لأهميتها . ولذلك كوفئ من خلال ابنه الذى لم يكن فقط مطيعا للرب بل كان مطيعا لوالده.

٣ ـ بناء الكعبة ، وجد العرب

قصة بناء إبراهيم للكعبة ليس لها أساس فى الكتاب المقدس. فالكعبة ليست معروفة مطلقا فى الكتاب المقدس . لكن على كل حال إذا بُحِث عن دليل من الكتاب المقدس يمكن التفكير فى بناء المذابح التى يكون الحديث عنها مرارا فى سياق الوعد والعهد . ويدخل فى دائرة البحث المذبح عند بيت إيل " بيت الرب " (التكوين ٨:١٢) لاسيما وأن الكعبة تُذكر فى القرآن بأنها بيت (هذا يعنى بيت الرب) . وينسب تاريخ بناء الكعبة تاريخيا بعد ميلاد إسحاق وإبعاد هاجر وإسماعيل (التكوين ٢١)، وقد ورد فى القرآن أن إسحاق قد وُلد عندما كان إبراهيم فى مكة (إبراهيم ٣٩) . وقد شارك إسماعيل فى بناء الكعبة . ومن الصعب بل إنه من المستحيل تنظيم بناء الكعبة فى تاريخ وطبوغرافية روايات إبراهيم التوراتية . ولكن توجد فى الروايات القرآنية مادة توراتية عديدة تكون مبررا لمعالجة القصة فى سياق الروايات التوراتية فى القرآن .

ومن الأفضل أن يبدأ المرء بسورة آل عمران (٩٥-٩٧) ففى الآية (٩٥) الدعوة لاتباع دين إبراهيم أى الحنيفى ، وتبع ذلك التصريح ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ (٢٤) مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٦) . وقيل بعد ذلك أنها تدور حول مقام إبراهيم

أى البيت الذى يكون فيه الفرد آمنا عندما يدخله ، وبما أن الناس أُلزموا بالحج إلى البيت ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (٩٧)، فتكون الكعبة مطابقة لمقام إبراهيم ، وهو المكان الذى عبد فيه البطاركة الرب (أو قدموا إليه قربانا) ، ويكون ذلك قريب الشبه أيضا من رواية التوراة بشأن المذابح التى بناها إبراهيم .

وفى سورة البقرة نص آخر (١٢٥) ، وذلك على أثر الوعد والعهد اللذين تمت معالجتهما من قبل . فقيل ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ ، وأمر ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فالكعبة مكان المثابة لأنها هدف الحج . وبما أن الكعبة مكان آمن ، كما قيل فى سورة آل عمران (٩٧) فإنها إشارة كاملة للأمن العام الذى يسود فى أثناء موسم الحج ، وهناك إشارة إلى الأشهر الأربعة الحرم (قارن سورة التوبة ٢، ٣٦). ولم يرد أى خبر عن العصر والأشخاص الذين وجه الرب إليهم الأمر لإعداد مقام إبراهيم مصلى . ويبدو مقام إبراهيم وكأنه إشارة إلى مكان من الخيال . ويظهر من الآية التالية ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أن إبراهيم وإسماعيل هما الموجه إليهما أمر الرب، كما تشمل الآية الشعائر المهمة للعبادة فى الكعبة ، لكن الأكثر أهمية هنا الحديث عن تطهير الكعبة . وهذا يفترض أن المكان قد كان مقدسا بالفعل عندما حدده إبراهيم وإسماعيل بأنه مصلى . وربما يُفهم أيضا من ﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ (آل عمران ٩٦) أنه البيت الذى وُجد قبل إبراهيم بزمن . ولم يرد هنا أى خبر عن المشيد . و يظهر فى سياق النص أن الأمر يرتبط بإبراهيم فقط . وعلى أية حال فإن المأثور الإسلامى المتأخر أرجع تأسيس الكعبة إلى آدم [٢٥] .

يتحدث القرآن مرة ثانية عن بناء إبراهيم للكعبة ، وفيما بعد يتحدث مرة ثانية عن تطهيرها . ففى سورة البقرة (١٢٧) قيل بوضوح إن إبراهيم قد شيد الحوائط الأساسية للكعبة، أما فى سورة الحج (٢٦) فيرد أنه طهر الكعبة . والسؤال المطروح الآن أى النصين هو الأقدم ؟ يُعتقد أن محمدا (ﷺ) قد اعتقد فى البداية أن إبراهيم

قد شيد الكعبة . وفيما بعد صحح رأيه وتوصل إلى نتيجة مفادها أن إبراهيم طهر الكعبة ولم يُشيدها . وهذا الرأى يدعم مأربه بصورة أوضح ، حيث شعر أن عليه أن يستحوذ على الكعبة التى كانت حتى ذلك الحين فى حوزة الوثنيين ومدنسة بعبادة الأوثان ، وذلك لتطهيرها وإعادة العبادة الرئيسية إليها .

وقد ساهم إسماعيل فى بناء أو تطهير الكعبة . ويُعد ذلك أهم شخصية فى القضية بسبب ربط نسب العرب بإبراهيم . وطبقا لرواية التوراة طُرد إسماعيل وأمه هاجر بناءً على رغبة سارة بعد ميلاد إسحاق . وضلت الأم والابن فى أنحاء صحراء بئر سبع ، كما تسرد التوراة ، وسارا فى ضيق كبير لكن أُنقذا بأسلوب المعجزة . وتلقت هاجر وعدا لإسماعيل بالذرية مشابها للوعد الذى حصل عليه إبراهيم بالنسبة لإسحاق (الذى لم يكن قد وُلد بعد) (التكوين ١٥: ٤) وكبر إسماعيل وصار صائدا وسكن فى صحراء فاران (التكوين ٢١: ٨-٢١) . وتُعد هذه نقطة بداية مناسبة لعلاقة إسماعيل بتاريخ الكعبة والعرب . ويظهر إبراهيم بمفرده عندما يكون الحديث عن الكعبة . أما فى رواية التطهير فيظهر كل منهما فعالا ، أى إبراهيم وإسماعيل (البقرة ١٢٥) ، وبالنسبة لـ : (البقرة ١٢٧) حيث ذُكر أن إبراهيم قد شيد الحوائط الرئيسية للبيت ، يُمكن أن يكون قد أُقحم فى ذلك اسم إسماعيل متأخرا .

ولم يكن إبراهيم مشيد الكعبة أو مطهرها فحسب بل هو الذى وضع مناسك الحج أيضا . وورد الالتزام بذلك فى سورة آل عمران (٩٧). ووصفت شعائر الحج بإسهاب فى (الحج ٢٦-٣٣) . ومن الطبيعى أن هذه المناسك وثنية الأصل ، وتغير مغزاها فقط بناءً على الأمر الإلهى الذى صدر لإبراهيم . ويوضع عيد الحج وشعائره فى خدمة تبجيل الوحدانية ، وفيما يتعلق بالأضاحى فيسمح فقط بذكر اسم الله عليها . وحُذر المؤمنون بـ ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ... ويكونوا حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ ﴾ (٣٠-٣١).

وكما صلى سليمان بعد انتهاء بناء المعبد (الملوك الأول ٨: ١٤-٦١)، هكذا فعل إبراهيم بعد إتمام الكعبة (أو بعد الانتهاء من التطهير) . وترد فى ثلاث صيغ :

يتحدث إبراهيم فى الصيغة الأولى وحده ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة ١٢٦) .

وفى الصيغة الثانية يتحدث إبراهيم وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧) ويقصد هنا الكعبة التى أقاما قواعدها الأساسية . والحقيقة أن الصلاة هنا تتصل بقبول القربان . ويصير هذا واضحا عندما يرتب المرء بناء الكعبة فى علاقة مع بناء إبراهيم المذابح - كما تسرد التوراة - لأن بناء المذابح كان بهدف القربان. وفيما بعد صلى إبراهيم وإسماعيل من أجل العقيدة الصحيحة لهما ولذريتهما، وذلك بالإضافة إلى الحكمة الإلهية لشعائر الحج (١٢٨) . وتشكل النهاية النبوءة بمحمد (ﷺ) وبالإسلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٢٩).

والصيغة الثالثة تبدو كما لو كانت مجموعة تصحيحية ، وذلك بدون ارتباط واضح مع السياق فى سورة إبراهيم (٣٥- ٤١) . وهنا يكون الحديث مرة ثانية عن إبراهيم بمفرده ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ (٣٥) ، ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وتنتهى بالدعاء برزقهم من الثمرات (٣٧)، والاعتراف بأن الله عليم بكل شيء (٣٨)، والشكر على الذرية ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣٩) . ويوجد فى الخاتمة دعاء بالعمل الصالح لإبراهيم وذريته (٤٠)، وطلب الغفران لذنوبه ووالديه والمؤمنين يوم الحساب (٤١).

وبعد تأسيس أو تطهير الكعبة كانت النتيجة المهمة من رحلة إبراهيم لمكة إسكان أمة مؤمنة . من أى الأشخاص تتكون هذه الأمة ؟ . ففى البداية كان الخطاب عن السكان فقط ، فالرب يجعل المكان آمنا ويرزق السكان ، هذا يعنى رزق الإعاشة . لكن هذا الدعاء حُدد بأنه يعود على المؤمنين فقط. فالسكن وحده فى مكة يكون آمنا لكن

ليس هو الخلاص (البقرة ١٢٦) . وفيما بعد أرشد الرب بنفسه إبراهيم إلى مكان البيت ، وهذا يعنى المكان أو الموضع الذى توجد فيه الكعبة لتكون مصلى (مع الالتزام بعبادة الرب وتطهير البيت) . ويبدو واضحا أن إبراهيم استقر ساكنا هناك (الحج ٢٦). وقيل أخيرا إن إبراهيم اتخذ مسكنا لأناس من نسله ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ عند بيت الرب المحرم (هذا يعنى عند الكعبة) ، لكى يقوموا هناك بالعبادة . إلا أن الإقليم غير مأهول كلية، ويتصل ذلك بالدعاء ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ هذا يعنى أن يجدوا قبولا حسنا عند جيرانهم . واستمر إبراهيم فى طلب الإعالة (حرفيا الإثمار) لأن الوادى غير مثمر (إبراهيم ٣٧) . وبما أن المكيين من سلالة إبراهيم ، فيستنتج من دعاء إبراهيم ببعث نبى من بين ذريته أنه يقصد بالطبع محمدا (ﷺ) (البقرة ١٢٧) . وعندما كان إبراهيم عند الكعبة كان إسحاق قد وُلِد منذ زمن ، لأن البطريرك قد شكر الرب أن وهبه إسماعيل وإسحاق (إبراهيم ٣٩). وبما أن المكيين أو العرب من سلالة إسماعيل فيتقرر ذلك بالعون فى بناء الكعبة أو تطهيرها .

سادسا - يوسف

تمثل قصة يوسف حلقة اتصال بين تاريخ البطاركة وتاريخ بنى إسرائيل فى مصر ، وعن طريقها يمكن شرح كيف استوطن بنو إسرائيل فى مصر . وهى من الروايات التوراتية القليلة التى تناولت قصة متصلة . كما أنها تشمل الجزء الأكبر من سورة يوسف (١-١٠٢) والتى تحمل العنوان نفسه ، وهى ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ كما أخبر القرآن بذلك .

وسير أحداث القصة فى القرآن مشابه للغاية الرواية فى التوراة (التكوين ٣٧-٥٠) إلا أن الرواية القرآنية أقصر وبها بعض الاختلافات . وتسرد الأحداث التالية بالتفصيل :

١ - يخبر يوسف أباه يعقوب بحلم : ومضمون الحلم سجود الاثنى عشر كوكبا والشمس والقمر أمامه . فيفسر يعقوب الحلم بأنه علامة للاختيار ، وحذر يوسف من أخوته (٤-٦) .

٢ – أُلقى يوسف فى الجب من قبل إخوته ليخدعوا أباهم بأن يوسف قد مات عن طريق تلطيخ قميصه بالدم . ثم وجدته القوافل السيارة صدفة ، وباعوه لرجل مصر الذى قدمه عبدا لزوجته . ولم تُذكر الأسماء (٧–٢١) .

٣ – رغبت السيدة التغرير بيوسف ، ولكنه لم يستجب لها . وتحقق سيد البيت من الحادثة ، وبناءً على الأدلة تحدث النص عن براءة يوسف من أى ذنب . ثم يرد الحديث عن دعوة السيدة صديقاتها ، وعرضت عليهن يوسف ، فأعجبن بجماله . وبذلك أكدت السيدة أنها قد غررت به عن عمد (٢٢–٣٤).

٤ – أُلقى يوسف فى السجن ، ولم يُذكر السبب . وفى السجن فسر أحلام سجينين معه . ويدرك المرء بسهولة الأحلام المروية فى التوراة لخباز ولخمار فرعون (التكوين ٤٠) . وأخبر باختلاف عن التوراة كيف أعلن يوسف لهما برسالة التوحيد، ودعاهما لاعتناق العقيدة الصحيحة . وشمل تفسير الحلم وظيفة البرهان لمعرفة حكمة يوسف الخفية ، والتى تشمل تصديق المعجزة (٣٥–٤٢).

٥ – فسر يوسف ، كما فى التوراة أيضا ، أحلام الفرعون ، وصار حارسا على خزائن الأرض. لكنه خضع فى البداية لأمر فرعون بالسجن بعد أن أعجب النساء جماله ، إلى أن صدرت لحقه شهادة منصفة ، بأن أقرت امرأة مالكه ببراءته من كل ذنب (٤٣–٥٧).

٦ – حضور إخوة يوسف إلى مصر ... إلخ ، كما تسرد التوراة . وألقى القبض على بنيامين (اسمه لم يذكر) ، واضطر للبقاء فى مصر (وطبقا للتكوين ٤٢ : ١٨ –٢٤ يكون سيمون) (٥٨–٨٧).

٧ – عودة الإخوة مرة ثانية إلى مصر . فعرَّفهم يوسف بنفسه . وأصبح يعقوب الأعمى بصيرا عن طريق وضع القميص الذى أرسله يوسف على وجهه . وكان يعقوب قد أصيب بالعمى بسبب بكائه لفقدان ولديه . ثم سمح يوسف للعشيرة كاملة بالحضور إلى مصر (٨٨–١٠١) [٢٦] .

تنتهي الرواية القرآنية بمثول يعقوب وزوجته أمام يوسف (٩٩-١٠٠) . وأما الرواية التوراتية فتجعل المثول أمام فرعون ثم الحديث عن سياسة يوسف الزراعية وبركة يعقوب ثم الموت والدفن فى حبرون (التكوين ٤٧-٥٠). وقد اقتبس القرآن من ذلك حدثين أو عنصرين لكن فى صياغة مغايرة وهما : الحادثة الأولى بدلا من المثول أمام فرعون تمت الإشارة بالمثول أمام يوسف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ (١٠٠) (٢٧) . أما الحادثة الثانية فهى محاولة الإخوة بعد موت يعقوب التذكير بشفاعة الأب بسبب تملكهم الخوف من القصاص . وكان يعقوب قد عهد إليهم (هكذا تقولون ليوسف آه اصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم فإنهم صنعوا بك شرا) (التكوين ٥٠: ١٧) ، أما فى القرآن فصارت بدلا من ذلك صلاة يعقوب للصفح عن أخطاء أبنائه ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٧-٩٨) .

صار يعقوب فى القرآن ورعا يتشفع مثل النبى و (الكاهن) لأمته . كما انتقلت إليه آلام أيوب . ويعد الصبر الفضيلة التى تدرب عليها بصورة مطلقة ، وتمسك بإرادة الرب . فقد كان صابرا عندما سمع أن ذئبا افترس يوسف (١٨) ، وكذلك عندما تلقى نبأ ابنه الآخر (شمعون أو بنيامين) أنه لم يعد من مصر (٨٣). وكما فقد أيوب أسرته كلية ، فَقَدَ يعقوب ابنيه المحبوبين ابنى راحيل ، ولذلك كوفئ على صبره بأن تقابل معهم مرة ثانية . وعلاوة على ذلك فقد تصرف بعلم ، كيفما يرفضه البشر عادة : فقد تنبأ فعلا ، عندما قص عليه يوسف حلمه ، بأنه تلقى من الرب موهبة تفسير القصص (٦) . كما أوتى يعقوب معرفة الوحى أيضا حول مصير ابنيه المفقودين ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (٨٦-٨٧) .

وبعد ذلك برز دور يوسف كنبى أكثر وضوحا . فقد عانى من الظلم والاضطهاد، لأنه بشر برسالة فى ظروف غير مواتية ، إلا أنه انتصر فى النهاية . وقد تحلى منذ شبابه بمعرفة ميتافيزيقية. فعندما وُضع فى الجب ، عرف فعلا ، ماذا سيحدث له

فى مصر مستقبلا (١٥) . ولما كَبُر تلقى قوة الحكم والمعرفة كما يحدث للأنبياء ، لأنه كان ورعا (٢٢) . وعلمه الرب تفسير الأحلام (٣٧، ١٠١) ، وهذا ما دعاه إلى أن يأبى سمو الفرعون (٤٤) . ووُهب أيضا كنبى موهبة شفاء المريض فعن طريق قميصه صار يعقوب بصيرا (٩٣) . وكنبى حفظه الرب من الآثام : عندما حاولت امرأة سيده أن تغرر به "وانتقل إثمه إليها" ، وكاد يستسلم للمغريات "عندما لم ير نورا أو علامة ربه". إلا أن الرب يتدخل : " ليبعد عنه الشر والفحشاء " (٢٤) . لكن على المرء أن يعمل بنفسه لرد الآثام ، لذلك طلب يوسف ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ، وأخيرا يتدخل الرب ليحمى الإنسان من الآثام . وتنتهى صلاة يوسف ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) . فالقصة تعليمية مهمة لقضية الرحمة والجنة وحرية الإرادة .

ووصل يوسف أبويه بالطاعة والاحترام . فقد كانت أمه راحيل (التكوين ٣٠: ٢٢–٢٤) ، وكان بكرها . ورزقت فيما بعد ببنيامين ، ولكنها توفيت عند ميلاده (٣٥: ١٦–٢٠) . وعندما ذهب يعقوب إلى مصر كانت متوفاة منذ زمن طويل . لكن القرآن يشير إلى أن يوسف " رفع أبويه على العرش " (١٠٠) . فحب الوالدين يعد عنصرا مهما للأخلاق القرآنية . وقد خُصص له نص طويل فى سورة الأحقاف (١٥–١٨) . وقد مارسه الأنبياء ممارسة مثالية . فطلب نوح ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ (نوح ٢٨) . ويشبه ذلك طلب إبراهيم (إبراهيم ٤١) . وشكر سليمان الله بسبب الرحمة التى وهبها إياه ووالديه (النحل ١٩). أما يوسف فقد احترم والديه ورفعهما إليه . ولأن القرآن يتحدث هنا عن الوالدين ، يقصد يعقوب فقط ، أو يعقوب وأبناءه ، ويدل على ذلك أن الأمر يدور مجازا حول حب الوالدين (فى هذا الموضع) ، فعندما يخبر عن فضائل الأنبياء والأتقياء فحب الوالدين يصبح ضروريا .

وكمخلص لبنى إسرائيل صار يوسف فى المأثور النصرانى المنقذ طبقا للنموذج المسيحى [٢٨] . وربما يكون هنا المفتاح نوه إلى محمد (ﷺ) على أنه نبى. ولم يكن يوسف مرسلا بوعظه لإخوته أو بنى إسرائيل بل للمصريين . وكما نعرف فقد كان

النجاح ضئيلا . ولما تولى السلطة ملك جديد لم يكن عارفا بيوسف (الخروج ١ : ٨) ، بدأ اضطهاد المصريين ، ثم ظهر موسى كمخلص جديد . وظهر مع موسى مصرى مؤمن معين له ، وكان هذا المصرى ينتمى إلى بقية الجماعة التى كان قد أسسها يوسف (غافر ٣٤) .

وتدور رواية يوسف التوراتية حول قطبين هما يعقوب ويوسف . والفكرة واضحة تشير إلى أنها تمثل رواية حقيقية وُضع فيها مصير يوسف فى بؤرة الاهتمام [٢٩] . وطبقا لرأى " أ. هـ . جونز " فإن القصة تمدنا بفضيلة الرحمة ، وأن محمدا (ﷺ) نظر إلى يعقوب ويوسف على أنهما نموذج يجب احتذاؤه [٣٠] . وكما يبدو من تحليلنا ، فإنها فى المقام الأول قصة نبى صادف اضطهادا من أعدائه ، وانتصر فى النهاية . وتُوج انتصاره بصلاة شكر : ﴿ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ... ﴾ (١٠١) . وفى الخاتمة يُخبرنا القرآن عن الدسائس التى حدثت من إخوة يوسف (١٠٢) . وكما افترض " ر. بيل " فإن محمدا (ﷺ) نفسه كان فى هذا الوضع قبل الهجرة بفترة قصيرة عندما سردت هذه القصة [٣١] . وهكذا فالقصة تحمل شهادة من الآمال التى وجدها النبى مناسبة له وللأحداث التى مرت به . ولذلك فإنه فيما بعد ، أى بعد فتح مكة ، عامل محمد (ﷺ) أعداءه بالرحمة ، مثلما عامل يوسف إخوته عندما طلبوا مساعدته .

سابعا : موسى وبنو إسرائيل

١ - محاور الرواية الرئيسية

تتبع قصة موسى فى القرآن فى مجموعها جوهر الروايات التوراتية. ويذكر موسى فى أربعين سورة فى القرآن . وتدور غالبا حول سلوكه أمام فرعون (استخدم القرآن فرعون اسم علم) وخلاص الإسرائيليين وفناء المصريين ، وهى فى معظمها روايات مترابطة . ومن الناحية الكمية تحتل رواية دعوته من العليقة دورا بارزا . وتلعب روايات أخرى ، مثل رواية ميلاده وتجوال بنى إسرائيل ، دورا غير متسق .

٢ - موسى النبى المُضطهد ، والمُنقذ مع المؤمنين

توجد فى سورة القصص رواية متصلة من ميلاد موسى وحتى خروج بنى إسرائيل من مصر، وتعتمد اعتمادا وثيقا على رواية التوراة . ومضمون القصة فى القرآن يبدأ من اضطهاد المصريين لبنى إسرائيل واغتيال أبنائهم بأمر من فرعون ، وَرُحِمَتْ الفتيات (يقصد حديثات الولادة) (١-٦). وَوُلِدَ موسى ووضع فى التابوت ، ووجده رجال فرعون ، وجُلب إلى الشاطئ، واعتنت أخته (طبقا للخروج ٢ : ٦ ابنة فرعون) بأن تسلمه لأمه من صلبه التى بقيت هويتها مختفية عن المصريين (٧-١٤) . وكَبرَ موسى واضطر لمغادرة البلاد بعد قتله أحد المصريين (١٤-٢١)، ووجد ملجأ فى مدين، وخدم هناك كعبد ليتزوج من إحدى ابنتى (شعيب/ يثرو) (خطأ مع قصة يعقوب وابنتى لابان ، التكوين ٢٩) (٢٢-٢٨) . ظهر له الرب فى العليقة ودُعى للنبوة ليخلص بنى إسرائيل من ظلم المصريين . وضُم إليه أخوه هارون مساعدا (٢٩-٣٥) . وتسرد بقية الرواية بكلمات موجزة ، أى رفض فرعون الموعظة (٣٦-٣٩) ، غرق المصريين فى البحر (٤٠-٤٢) .

وتسرد رواية ثانية طفولة موسى وشبابه فى سورة طه ، فتسرد قصة الدعوة من العليقة (٩-٢٣) ، ثم خوف موسى من المهمة والوقوف أمام فرعون وطلب المساعدة من الرب (٣٦-٣٩) . ولتشجيعه وتأكيد المساعدة يذكره الرب بالخلاص من النيل (٣٧-٤٠) ، والمأوى الحسن عندما قتل المصرى (٤٠) . وتوجد إشارة فى سورة الشعراء ، لكن منذ مثول موسى أمام فرعون، فيذكره الفرعون بالنعم التى قدمها له حيث ربى فى عائلته ، وحمله قتل المصرى (١٨-٢٠) . واستخدم الفرعون وسيلة فسيولوجية حيث قابل الفرعون طلب موسى بعد النعمة بتحرير بنى إسرائيل بعدم الشكر ، وذكَّر موسى بأنه لم يطلب شيئا بل يقدم تقريرا عن الاغتيال.

وقد نوقشت قصة الدعوة من العليقة بإسهاب فى سورة طه وهى تعتمد بالأحرى على رواية التوراة (الخروج ٣: ١-٤ ، ١٧) . فتبدأ القصة برؤية موسى نارا ، ومع ذلك فإن الحديث ليس عن العليقة التى أضاءت ولكن عن عدم الاحتراق . ولم يذهب

موسى إلى هناك ، كما يُسرد فى التوراة ، ليتأمل المعجزة عن قرب ، بل اقترب من النار ليحضر قطعة من جمر أو يجد ﴿ قبسا ﴾ . وقد يكون ذلك إشارة إلى علم إلهى ، لكنه قد يفهم واقعيا تماما بأنه أمل أن يجد أناسا فى النار يمدونه مستقبلا بالهدى (١٠) . و عرّفه الرب بنفسه ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (١١) [٣٢] . وأوحى إليه بالبنود المهمة للدين والأخلاق ، وهى التوحيد وإقامة الصلاة والإيمان بالحساب والجزاء (١٣-١٦) ثم تلقى معجزة الإيمان فصارت العصا ثعبانا ، واليد اليابسة صارت قوية (١٧-٢٣). ولخُص مضمون الرسالة فى ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢٤). وبعد التكرار لشباب موسى (٣٧-٤١) تم تحديد أشمل للرسالة: فأمر موسى بالمثول أمام الفرعون وبتعريف نفسه بأنه رسول الله ، ثم يطلب منه خلاص بنى إسرائيل ويحذره فى حالة المعارضة بالعقاب الإلهى (٤٢-٤٨).

ويجد المرء ملخصا لتاريخ الدعوة فى أربعة مواضع أخرى (مريم ٥١-٥٣، الشعراء ١٠-١٧، النمل ٧-١٢، القصص ٢٩-٣٤) وذلك بدون أن تضيف شيئا جوهريا على الأخبار الواردة فى سورة طه (باستثناء الإشارة إلى الآية الجديدة التى تناقش فيما بعد) . وترد إشارات فى نطاق القصص لقصة موسى ، وتمثل قصة الدعوة فى سورة مريم استثناءً لأنها ترد فى نطاق الروايات عن أنبياء آخرين وهى موجزة للغاية ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ [٣٣] وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم ٥١-٥٣).

وتوصف بإسهاب فى سورة الشعراء مواجهة موسى (وأخاه هارون) لفرعون. وذلك بالاعتماد الوثيق على التوراة ، فتبدأ بالمهمة الخاصة بالدعوة من العليقة وطلب تحرير بنى إسرائيل من فرعون (١٦-١٧) . يذكر الفرعون موسى بالنقم التى تلقاها (١٨-٢١) ، فيخبره موسى بأن الرب دعاه برسالة مع مهمة خلاص بنى إسرائيل (٢١-٢٢) ، ثم وعظ موسى فرعون برسالة رب العالمين ، فاعتبره الفرعون بسبب ذلك مجنونا وهدده بالحبس (٢٣-٢٩) ، ثم يقدم موسى معجزة فتحولت عصاه ثعبانا ويده

صارت بيضاء (٣٠-٣٣) ، وانتصر موسى على سحرة مصر فى المنافسة التى حُددت أمام فرعون (٣٤-٣٥) ، وتراجع سحرة مصر ﴿ وآمنوا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ ، ولذلك هددهم فرعون بالعقاب الشديد أى التقطيع والصلب (٤٦-٥١).

وتسرد فى سورة الأعراف (١٠٤-١٢٦) قصة مشابهة عن الظهور أمام فرعون. وتخلو القصة هنا من موعظة الرب الخالق. وتوجد صيغ أخرى للقصة نفسها لكنها موجزة (يونس ٧٥-٨٢، الإسراء ١٠١-١٠٢، طه ٤٩-٥٦) ، وقد عرضت فى آيتين (هود ٩٦-٩٧) . وتعتبر الإضافة فى سورة القصص مهمة ففيها يرد تفسير لبناء الأهرامات. وفى ذلك تأرجح للإشارة إلى برج بابل المشار إليه فى التكوين (١١: ١-٩) ولم ترد عنه إشارة فى القرآن ، أما فى القرآن فيأمر فرعون وزيره هامان [٣٤] ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨). ويمثل هذا قمة التكبر للحاكم المصرى ، فيريد عن طريق بناء الأهرامات إضفاء وساطة النبى المبعوث من الرب ليدخل فى علاقة مباشرة مع الرب .

ويبرز تكبر فرعون أكثر وضوحا فى سورة غافر ، فيدعى أن موسى ساحر وكذاب (٢٤) وأمر بقتل أطفال بنى إسرائيل المذكورين فى التوراة حتى لا يصبحوا كثرة ويصلوا للسيادة (الخروج ١: ٨-٢٢) ، فُهم خطأ وحُور إلى أن فرعون أمر ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ (٢٥) ، وبذلك يتضح أن شيعة موسى قليلون ، وبعد ذلك اتخذ فرعون قرارا بقتل موسى نفسه فى إشارة تهكمية ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ (٢٦) فيظهر بعد ذلك ﴿ ... رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وينصح المصريين بقبول موسى ، فهو بذلك يقدم نصيحة غمالائيل : ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [٣٥] ثم يذكر بالعقوبات السابقة : أى الطوفان وفناء عاد وثمود ثم موعظة يوسف (٢٨-٣٥) . وبذلك ارتبط بالأخبار التوراتية : " وبعد ذلك وصل ملك جديد للعرش الذى لا يعرف شيئا عن يوسف " (خروج ١: ٨) . وبعد ذلك يعطى فرعون هامان الأمر المذكور سابقا أى بناء قصر (٣٦-٣٧) ، ويستمر المصرى المؤمن

لكنه لم يحرز نجاحا (٣٨-٤٦) ، وبذلك يتصاعد تكابر فرعون فى ثلاث مراحل ، ففى البداية الأمر بقتل أطفال المؤمنين ثم النبى ولأنه فشل فى ذلك أراد أن يقف وسيطا بين الرب والناس.

ويجد المرء فى سورة النازعات مثالا آخر على تكابر فرعون ، فقد جمع فرعون المصريين لوعظ موسى ومعجزة الإيمان ونادى ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (٢٤). ويعد ذلك كفرا بالله ليس لأنه يريد أن يمنع النبى من الوساطة بل ليجعل من نفسه إلها .

ومن بين التفاصيل التى زودت بها رواية مثول موسى أمام فرعون ، تلعب معجزة الإيمان أى العصا التى تحولت ثعبانا واليد التى يبست وظهرت بيضاء من الثوب، دورا رئيسيا وبخاصة لانتصار هذه المعجزات على سحرة فرعون . ويذكر كل ذلك بإسهاب إلى حد ما عند مواجهة موسى لفرعون . وبذلك يتبع القرآن الوصف التوراتى لدعوة موسى (الخروج ٤: ١-٩) ، وظهوره أمام فرعون (٧: ٨-١٣) . ويمكن التفريق عن طريق معجزة الإيمان بين السحر الوثنى والمعجزة الإلهية.

وفيما يتعلق بالمصائب العشر المذكورة فى التوراة (٧-١٢) توجد إشارة لها فى سورة الأعراف (١٣٠-١٣٥) ، غير أنه أحصى سبعة فقط ، وهى مختلفة إلى حد ما عن تلك الواردة فى التوراة ، وهى الجدب ونقص الثمار (١٣٠)، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (١٣٣) ثم الرجز (١٣٤) ، ولم يواصل وصف الأخيرة . وتمت الإشارة فى سورة الإسراء (١٠١) إلى تسع آيات بدون وصف مسهب ، وهى ربما تكون السبعة المذكورة آنفا بالإضافة إلى معجزتى الإيمان (قارن النمل ١٢) . ولم تسجل فى القرآن التفاصيل الأخرى المذكورة فى التوراة ومنها: عمل الفصح والتدشين والابن البكر ، لأنها غير مهمة بالنسبة للقرآن . ويخبر محمد (ﷺ) - كما ورد فى القرآن - فى مواضع أخرى عن القبلة التى استعملها بنو إسرائيل فى بيوتهم أو حولها (حرفيا): ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ ، يونس (٨٧) وربما يعد ذلك سوء فهم للأمر المعطى من موسى لبنى إسرائيل برش قوائم وعتب بيوتهم بدم حمل الفصح (١٢: ٢١-٢٨).

ويوصف فناء المصريين فى البحر باقتضاب مقارنة بالوصف المسهب للمقدمة، وهو ما يطابق قواعد الرواية المأسوية ، وقد وردت على النحو التالى : خروج بنى إسرائيل، ثم شق موسى البحر بعصاه ، ثم تتبع فرعون ورجاله بنى إسرائيل فغرق فرعون ورجاله . أما فى سورة يونس فيسرد ذلك باختلاف عن رواية التوراة فتشير السورة إلى أن فرعون تاب قبل الغرق بوقت قصير ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ (٩٠). إلا أن ذلك يعد متأخرا والرب لم يقبل ندمه ، وأراد أن ينقذ فرعون ببدنه فقط ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (٩٢) [٣٦] . ربما يعد ذلك إشارة لطقس التحنيط ودفن جثمان فرعون . وقد كانت قبور المصريين آثار عبادة طبيعية بغيضة فى نظر اليهود والنصارى .

وينتمى جزء من قصة موسى الذى يوصف فيها ميلاده وظهوره أمام فرعون وفناء المصريين إلى نمط من الروايات التى نعرفها من وجهة أخرى ، وهى أنه يدعى نبيا، وكُلف برسالة ووقع فى ضائقة ، فخُلِّص عن طريق فناء أعدائه ، وعلاوة على ذلك تنتمى قصة موسى وفناء المصريين إلى نمط روايات العقاب . وهى تظهر كما يبين الجدول التالى فى مواضع عدة فى القرآن (الآية الموضوعة بين أقواس عندما يكون التتابع مختلفا) .

السورة	الأعراف	يونس	هود	الذاريات	القمر
١ـ الطوفان	٥٩ ـ ٦٤	٧١ ـ ٧٣	٢٥ ـ ٤٨	(٤٦)	٩ ـ ١٧
٢ـ عقاب عاد	٦٥–٧٢		٥٠–٦٠	٤١–٤٢	١٨–٢٢
٣ـ عقاب ثمود	٧٣–٧٩		٦١–٦٨	٤٣–٤٥	٢٣–٣٢
٤ـ عقاب سدوم	٨٠–٨٤		٦٩–٨٣	(٣١–٣٧)	٣٣–٤٠
٥ـ عقاب مدين	٨٥–٩٣		٨٤–٩٥		
٦ ـ موجز ٢ـ٥	٩٤–١٠٢	٧٤			
٧ـ موسى والمصريين	١٠٣–١٣٧	٧٥–٩٣	٩٦–٩٩	(٣٨–٤٠)	٤١–٤٢

٣ ـ رحلة الصحراء وتمرد بنى إسرائيل

فحصنا حتى الآن القسم الأول من رواية موسى فى القرآن . ويدور حول ظهور النبى وتعرض حياته للخطر ، ثم تبشيره برسالة ، وكان نداً لسيد سلطان العالم وانتصر عليه . أما فى القسم الثانى فيسرد شىء آخر كلية ؛ إذ يعرض تاريخ بنى إسرائيل ونعم الرب عليهم مقابل عدم الشكر منهم . وقد تمت مناقشة ذكر الأعمال المذكورة لنماذج من نعم وعدم شكر بنى إسرائيل فى سورة البقرة (٤٩-٦١)، والنساء (١٥٣-١٦٢)[٣٧]. وتسرد الأحداث مترابطة بقدر الإمكان فى سورة الأعراف. ففى سورة الأعراف تتناوب أيضا أمثلة من نعم الرب مع مثيلتها من عدم شكر بنى إسرائيل الواحدة مقابل الأخرى: فبعد اجتياز البحر مباشرة طلب بنو إسرائيل من موسى أن يعمل لهم صنما (١٣٨-١٤٠) [٣٨] ، وعندما صعد موسى إلى الجبل ليتلقى ألواح الشريعة (١٤٢-١٤٧) كان بنو إسرائيل قد انتهوا من عمل العجل الذهبى والصلاة له (١٤٨-١٥٣) ثم توسط موسى بالشفاعة لهم (قارن الخروج ٣٢: ٣٠-٣٥) وجُدد العهد (الخروج ٣٤) وبعد ذلك حدثت معجزة الماء ثم غطتهم السماء بالظل ، ثم أكل الشعب المن والسلوى (١٥٤-١٦٠، حول قانون الطعام قارن أيضا طه ٨٠-٨٢) ، وعندما طُلب من بنى إسرائيل امتلاك الأرض ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ . ولذلك لحق بهم العقاب (١٦١-١٦٢)، قارن أيضا النساء (٢٠-٢٦) [٣٩] . وترد قصة إرسال مستطلعين ثم عصيان الشعب بوضوح فى سورة النساء ٢٠-٢٦، قارن اللاويين ١٣-١٤) وذُكر التيه فى الصحراء لمدة أربعين عاما كعقاب للرفض والصراع على امتلاك الأرض (قارن اللاويين ١٤: ٣٣) .

وترد قصة العجل الذهبى فى صياغتين . الصيغة الأولى فى سورة الأعراف وتطابق إلى حد كبير الوصف التوراتى (الخروج ٣٢) فعندما كان موسى على الجبل ، صنع بنو إسرائيل من حليهم عجلا ليكون صنما ، وقدسوه (١٤٨) وقد اعترفوا ، وهذا يختلف عما فى التوراة ، قبل عودة موسى بأنهم أخطأوا (١٤٩). وعندما رجع موسى وعلم بذلك قذف بألواح الشريعة أرضا وجر هارون (حيث جعله قبل صعوده ممثلا عنه ،

قارن ١٤٢) . وقد اعتذر هارون لأن الجماعة أجبرته أن يصنع لهم صنما (١٥٠)، فطلب موسى من الرب أن يرحمه وأخاه (١٥١). وتنتهى القصة بتأمل فى عقوبة المخطئين ورحمة الله للنادمين على أخطائهم (١٥٢-١٥٣).

وتسرد القصة بإسهاب فى سورة طه باختلاف عن رواية التوراة . فالقصة فى القرآن تبدأ بإخبار الرب موسى عن تسرب الخطيئة إلى بنى إسرائيل عن طريق السامرى ، ثم يعود موسى من الجبل إلى قومه (٨٣-٨٩) ، ويُقدم هارون هنا على أنه أراد أن يصرف الشعب عن عبادة الإله إلى عبادة العجل الذهبى (٩٠-٩١). وبرأ هارون نفسه أمام موسى ببرهان أنه لم يرغب منع الشعب قسرا من عبادة الصنم حتى لا يثير أى انقسام (٩٢-٩٤) . وأصيب السامرى بعقوبة الجذام (ولذلك حرق من المجتمع البشرى) ، وحرق الصنم وقُذف رماده فى البحر (٩٥-٩٧) ثم تنتهى القصة بالإيمان بالإله الواحد (٩٨) وصدرت تأملات عديدة حول السامرى [٤٠] ، ويلعب هنا دورا ليفصلَ بالإفراج عن هارون . ويشير الاسم إلى رجل من السامرة أحد أتباع مجموعة يهودية انفصلت مبكرا عن تقديس معبد أورشليم ، وتوصف فى العهد الجديد بأنها منبوذة من اليهود . ويتضح استنتاج أن الرواية تنحدر من مصدر يهودى ، وتمثل فى المأثور النصرانى تصورا سيئا لرواية واضحة ذات اتجاه معاد للسامريين .

ويتبع ذبح البقرة الصفراء أيضا أحداث التيه ، وتسرد فى سورة البقرة (٦٧-٧١) ، ومن ثم تحمل السورة عنوان البقرة . وفيها تجانس واضح لقصة التوراة عن البقرة الحمراء الخالية من العيوب ، وهى البقرة التى حصل من حرقها على الرماد الذى يُحتاج إليه أثناء طقس تطهير معين (العدد ١٩: ١-١٠) . ولا يوجد فى القرآن شىء آخر أكثر من بقرة صفراء بدلا من بقرة حمراء .

ويتبع ذلك مباشرة قصة أخرى تدور على كل حال حول البقرة (البقرة٧٢-٧٣). ويستنتج من أسلوب التعبير أن شيئا جديدا يبدأ هنا : فالجزء الأول (٦٧-٧١) أُلقى فى صيغة وصف . أما الجزء الثانى فيشمل أسلوب الخطاب المباشر (٧٢-٧٣) حيث يتحدث الرب إلى بنى إسرائيل. ويمثل ذلك نموذجا لرواية البقرة البكر (التثنية ٢١: ١-٩) ،

"التى لم تكن قد عملت ولم تكن حملت " .وطبقا للرواية التوراتية فالبقرة تُذبح ولا تُقتل ، وتستخدم أثناء جريمة القتل. لكن صار من ذلك فى القرآن شيء مختلف تماما ، حيث استخدمت برهانا لبعث الموتى . فالقتيل يُبعث للحياة من خلال العثور على قطعة من البقرة ، وتتم معرفة القاتل . وتنتهى الرواية بآية ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

٤ ـ الوصايا العشر

بينما تسرد قصة الخروج من مصر والتيه بتفاصيل عديدة ، لم تعرف الوصايا العشر كنتيجة لظهور الرب فى سيناء . لكن تذكر ألواح الشريعة التى تلقاها موسى على الجبل (الأعراف ١٤٥) ثم يُخبر فى موضع آخر بأن موسى وهارون تلقيا ﴿ الكتاب المبين ﴾ (الصافات ١١٧) . وفى هذا الخصوص يظهر مضمون الوصايا العشر باختصار فى سورة البقرة (٨٣-٨٥) أى فى نطاق الجدل الكبير مع اليهود (البقرة ٤٧-١١٠) . لكن لا يعنى ذلك أن محمدا (ﷺ) لم يكن عارفا بمضمون الوصايا العشر. فالقرآن يلفظ فى تعاليمه الإلهية وقواعده الأخلاقية روح الوصايا العشر . وتظهر فى مواضع متفرقة وصية أو مجموعة من الوصايا التى ترجع من حيث المحتوى وجزء من صياغتها إلى الوصايا العشر .

ويطابق ذِكر الوصايا فى (الخروج ٢٠)، وإن تغير التسلسل ووجد ثغرات، ما ورد فى القائمة من الوصايا المذكورة فى سورة الإسراء : فذكر تحريم تقديس آلهة أخرى إلى جانب الرب (٢٢)، ووصية طاعة الوالدين (٢٣-٢٥) ، الصلة والالتزام ومساعدة الأقارب والفقراء والمحتاجين (٢٦-٣٠) ، فتحريم قتل الأطفال ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ (٣١)، وتحريم الزنا (٣٢)، وتحريم القتل عموما (٣٣)، وتحريم حب مال القريب (واستعمال الكيل والميزان المغشوش (تقارن بالوصية السابقة (٣٤-٣٥) هذا ما ورد فى سورة الإسراء [٤١] . أما فى سورة الأنعام فيرد فيها تحريم الشهادة

الزور والتى يجب أن تكون تابعة لما سبق. وتبدأ الوصية فى سورة الأنعام بطلب مميز ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (١٥١). والقائمة فى الأنعام (١٥١ وما بعدها) مشابهة للقائمة فى سورة الإسراء . ويوجد فى النهاية ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (١٥٢). وتجد مقابلة أخرى فى سورة الفرقان (وأكثر إيجازا فى سورة النحل ٩٠-٩٤، المؤمنون ٢-٨، الممتحنة ١٢) .

وعندما يتفحص المرء المواضع التى ترمز للوصايا، يدهش بأن الوصية الرابعة، احترام الوالدين ، تأتى مرارا . فالمضمون فى سورة النساء يشبه المضمون فى سورة الإسراء وفيها اليتامى ... إلخ. وهنا يأمر بالمعاملة الحسنة للعبيد (٣٦). ويشدد فى مواضع أخرى على إكرام الوالدين ، ويرد ذلك بإسهاب فى سورة الأحقاف (١٥-١٨)، ولكن يُعفى الأبناء من طاعة الوالدين إن استخدم الآباء سلطتهم لإجبار أولادهم على التمسك بالشرك (العنكبوت ٨-٩، لقمان ١٤-١٥) . وقد صادفنا هذا الموضوع عند مناقشة قصة إبراهيم ، ويتكرر هذا الموضوع متسلسلا فى فكر الأنبياء . وقد احتج المسيح أيضا على الرغبة فى الفصل بين الوالدين والعقيدة (متى ١٠: ٣٧، لوقا ١٤: ١٦).

لكن المدهش هو الافتقار إلى وصية السبت ، والتى تحتل المرتبة الثالثة فى الوصايا العشر ونوقشت أكثر إسهابا من بقية الوصايا وارتبطت براحة الرب فى اليوم السابع (الخروج٢٠: ٨-١١) . وأُخبر فى القرآن ضمن العقوبات عن عقوبة تدنيس السبت . وتنسخ وصية السبت فى سورة النحل ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٤) . وهنا يمكن تذكر (الخروج ١٦: ٢٧) حيث يكون الحديث عن حدوث خلاف بين بنى إسرائيل عندما حرم موسى جمع المن يوم السبت . ولكن تحمل وصية السبت ، عندما يخبر القرآن بذلك، عقوبة واضحة مثل الأحكام التشريعية اليهودية الأخرى التى تُركت: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة ٧٤) . ويتضح أن محمدا (ﷺ) وضع نصب عينيه أثناء نسخ وصية السبت وعظ المسيح . فقد تجادل المسيح مرات

عديدة مع الفريسيين والكتبة حول السبت (قارن متى ١٢: ١-٤، مرقص ٣: ١-٦). وينشأ التطبيق العملى الإسلامى عن الراحة من البيع عندما ينادى للصلاة من يوم الجمعة [٤٢] . وهذا أسلوب وسط بين السبت اليهودى وراحة الأحد النصرانية .

٥ ـ قارون (قوم قارون)

تتبع رواية قوم قارون وعقابها فى القرآن سلسلة روايات موسى . وهى تتحدث ، كما يرد فى التوراة، عن ردة جماعة من قوم موسى. فتمرد قارون على موسى وهارون، إذ طالب بوظيفة الكاهن والمشاركة فى قيادة الأمة ، فهو وأتباعه ابتلعتهم الأرض أو حرقوا من السماء " نشر عشائرهم وكل الجماعة المنتمية إلى قارون ، نشر كل أملاكهم "(اللاويين ١٦). أما فى القرآن فتسرد القصة فى سورة القصص، حيث يتبع قارون قوم موسى ، وكان غنيا جدا حتى ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ (٧٦) . وقد لفت نظر معاصريه أن يثقوا بالله أكثر من الثقة بأغنيائهم ، لأنه يكون هباءً (٧٧-٧٨). وحسده على غناه الذين يريدون أن يصبحوا مثله (٧٩)، ولكن الفاهمين انتظروا ثواب الرب نتيجة إيمانهم والعمل الصالح وليس بقوة ما يملكون فى الدنيا (٨٠) . ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٨١-٨٢) . وتعد القصة جزءًا من الجدل مع أهل مكة المشركين . فقد خافوا فقدان السيادة على الأرض ، إن هم اتبعوا الإسلام (٥٧). فينبه القرآن إلى العقاب السابق على القرى دون ذكر قرية محددة (٥٨-٥٩). واعتمادا على رسالة يوحنا الأولى (٢: ١٥-١٧) يوصف فناء المتمسكين بالدنيا مقابل الجزاء فى الجانب الآخر (٦٠-٦١)، ويتبع ذلك النظر إلى الثواب والعقاب لتؤكد أن الرب خلق البشر (٦٢-٧٥). وتسرد فيما بعد قصة قارون الغنى وفنائه . ويوضع فى الحسبان الموازنة للمكيين واعتزازهم بالمال ورفضهم الاعتراف بنبوة محمد (ﷺ) وأنه رسول مرسل من قبل الرب.

ويُذْكر قارون [٤٢] فى سورة العنكبوت (٣٩) فى سياق ذكر موجز لعقوبات الخسف مع فرعون ووزيره هامان ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ . ويبرز أكثر وضوحا فى سورة غافر (٢٤) عندما يظهر معًا مع فرعون وهامان ، أنه مصرى ، وتوضع الأسماء الثلاثة معًا كعناوين وصف مسهب لمثول موسى أمام فرعون (٢٥-٢٦) . وفيما بعد يدخل هامان فى السياق على أنه الذى بنى الأهرامات طبقا لأمر فرعون (٣٦-٣٧).

ثامنا : ملوك بنى إسرائيل

١ ـ شاءول (طالوت ملكا)

داود يهزم جليات (جالوت)

لم يخبر القرآن مطلقا أى شىء عن امتلاك بنى إسرائيل الأرض وعصر القضاة. فالحادثة الكبرى التالية للخلاص من مصر والتجوال هى حادثة رفع شاءول ملكا . وهى تسرد فى سورة البقرة (٢٤٦-٢٥١) بالاعتماد غير المترابط على رواية العهد القديم (صموئيل الأول ٨-١٥). وتبدأ القصة بأن طلب بنو إسرائيل من " نبى لهم " ، يعنى صموئيل (لم يذكر الاسم فى القرآن) ، أن يبعث فيهم ملكا ، لأنهم يريدون القيام بحرب ضد أعدائهم ؛ لأن الأعداء أبعدوا بنى إسرائيل عن أملاكهم ، ومزقوا العشائر (٢٤٦) . لكن النبى حذر بنى إسرائيل ، كما يروى فى التوراة أيضا ، من الأعباء ، ورغم ذلك عين شاءول (طالوت) ملكا عليهم . ورد النبى معارضة الشعب لفقر شاءول ببرهان أنه اختيار الرب ، والرب زاده بسطة فى العلم والجسم (قارن صموئيل الأول ١٠: ٢٣) وقول صموئيل : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢٤٦) لأن هذا وهب شرعيا بالمفهوم الشرقى كلية ، وصارت تلك عبارة سائرة فى العلوم السياسية الإسلامية . وآية الاختيار طبقا لقول صموئيل هى استعادة تابوت العهد. ويطابق ذلك

وصف العهد القديم لأن تابوت العهد قد عاد بالفعل قبل دخول شاءول للفلسطينيين (صموئيل الأول ٥-٦) . وفيما بعد انطلق بنو إسرائيل للحرب، ووضعوا فى الاختبار (فقد حُرم عليهم الشرب من ماء نهر) ثم بدأوا الحرب مع قوات جليات (جالوت) ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ (٢٤٩-٢٥١) ، ولم يرد أن داود كان لا يزال غلاما ، وانتصر على جالوت المسلح بالسلطة وأسلحة قوية ، أما هو فقد كان مسلحا بتسليح بسيط (صموئيل الأول ١٧) . وبينما يعد جالوت فى العهد القديم محارب الفلسطينيين الذى دعا بنى إسرائيل للمبارزة، فإنه يعد ملكا فى القرآن ، ووضعه بنو إسرائيل فى تعداد أعدائهم إلى حد ما . وتشابه اسمى القائدين ، طالوت وجالوت، كان إراديا ، ويشار إليهما أنهما زوجان ذوا صفات متناقضة (٤٤) : فمن ناحية : شاءول ملك مختار من الرب لشعب مختار من الرب ، ومن ناحية أخرى جليات ملك متمرد لشعب متمرد أبعد شعب الرب عن مساكنه وأبنائه (قارن آية ٢٤٦) . ويعد داود الثالث فى العهد ، ومن ناحية أخرى ارتبط اسم داود بخصمه جالوت : ونشأ بينهما خلاف (لم يذكر ذلك فى القرآن) أى داود الصبى بسلاحه البسيط مقابل جليات القوى المسلح بأسلحة معقدة ، وحارب داود باسم الرب أما جالوت فحارب باسم الوثنية ، وأُخبر عن ذلك فى العهد القديم (صموئيل الأول ١٧) . وكان جزاء داود الملك ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (١٥١). وقد نزلت القصة بالتأكيد فى المدينة . حيث كان وضع المسلمين وضع بنى إسرائيل نفسه تحت حكم شاءول : أى أنهم أبعدوا عن بيوتهم وأبنائهم . وفى موضع آخر قام محمد (ﷺ) بحرب ضد أهل مكة لأن المسلمين ﴿ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (الحج ٣٩-٤٠). فهو يريد هنا أن يظهر معتمدا على نموذج تاريخى كيف يحرز شعب قليل العدد الانتصار على عدو وذلك لأن الرب ساعده .

ومن المحتمل أن تكون القصة نُقلت من مصدر نصرانى. وقد رفض بنو إسرائيل شاءول فى البداية ، كما قيل فى القرآن ، لأنه لم يكن مشهورا . فقد كان من سبط بنيامين أصغر أسباط بنى إسرائيل (صموئيل الأول ١٠: ٢٠-٢٤) . ويُظهر سباير

رأى أفريم السريانى فى شاءول أنه نموذج نصرانى . فاختيار النهر كان الفرات " نموذج التعميد والحرب التى جر فيها اليهود ، حرب للعقيدة " [٤٥] فهنا لدينا نموذج طيب لعمل نصرانى لمادة من الكتاب المقدس بمغزى تفسير نمطى وقيمتها فى الوعظ القرآنى باتجاه هدف مغاير .

٢ ـ داود وسليمان

يوضع داود ، كما رأينا ، على النقيض من جليات ، وهو ما يكشف عنه عن طريق الأسماء اصطلاحا . فيكون داود وسليمان ، الأب والابن ، ثنائيا ، ارتبط الواحد مع الآخر بصفات إيجابية . ويعد هذا أكثر مما ورد فى العهد القديم ، الذى ذُكر فيه أن داود حُرم من بناء الهيكل بسبب آثامه ، ونقل الرب هذه المهمة لسليمان.

ويرد الحديث فى القرآن تلميحا عن المعبد . فصلاة تدشين المعبد تُلفظ بصلاة إبراهيم المعروفة بعد انتهاء وضع الكعبة . كما وصف داود فى سورة الإسراء بأنه مؤلف المزامير ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ (٥٥). وفى مواضع من المزامير ، حيث تُطلب الطبيعة كاملة ، تُذكر فيها مكافأة الرب (على سبيل المثال المزمور ٩٨: ٨)، وتُذكر بالأقوال القرآنية مثل ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (الأنبياء ٧٩، سبأ ١٠، ص ١٨-١٩) . وتتفق هذه مع الأساطير التى سُردت عن داود فى أدب ما بعد العهد القديم ، كما وُصف داود فى القرآن بأنه صانع الدروع (سبأ ١١، الأنبياء ٨).

ويُمدح داود مع سليمان بأنه قاض حكيم (الأنبياء ٧٨،النمل ١٥). ولكن كل هذا يمثل إشارات موجزة . أما الرواية المسهبة عن داود هى رواية أخطائه مع زوجة أوريا ووعظ ناثان له وتوبة الملك . وترد إشارة لها فى القرآن فى سورة (ص ١١-١٢) وتعد موجزة للغاية مقارنة بالرواية فى العهد القديم (صموئيل الثانى ١١-١٢) . حتى إنه لا يمكن فهمها فى القرآن بدون معرفة رواية العهد القديم . والرواية فى القرآن تبدأ

بمقدمة تمهيدية أشير إليها فى استعراض قصة حول حكمة داود بسبب حكمه ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢٠). ثم يتبع ذلك قصة متخاصمين ظهرا أمام داود ليحل نزاعهما ، والأول كان مالكا لنعجة واحدة ويشكو الآخر الذى يملك تسعا وتسعين نعجة ، ويريد أن يستولى على النعجة الواحدة (٢١-٢٣) . وهذه مشابهة كما يفهم بسهولة ، لكن مع اختلاف بسيط عن وعظ ناثان، الذى لام خطأه فى صيغة مشابهة (صموئيل الثانى ١٢: ١-١٢). ومن الطبيعى أن داود عرف الظلم ، لكن عرف فى الوقت نفسه أن القصة تقصده ذاته ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (٢٤). ويأمر القرآن ، عند تلاوة هذا الموضع بسجدة تقليدا لندم داود.

ويوصف داود فى الأدب الربانى بأنه التائب الكبير ، مع أن المحاولات لم تفشل لتحكم ببراءته من الذنب [٤٦] . وقد انعكست توبته فى مزامير التوبة . وانتقلت للنصرانية أيضا بهذا المعنى . واعتبر فى المأثور اليهودى قصره فى الجانب الغربى من أورشليم، فى نطاق قلعة داود الحالية ، مكانا لأخطاء داود وتوبته . واعتنق النصارى فيما بعد هذا المأثور . والحاج Piacenza (بياتشنزا) الذى زار أورشليم فى القرن السادس ، يصف الرهبان الذين استوطنوا " برج داود ". ويصلح هذا البرج أن يكون المكان الذى غنى فيه داود المزامير [٤٧] . ولا تناسب توبة داود بوضوح الصورة التى يمكن تكوينها عن الملك منذ أن صارت النصرانية ديانة الدولة والقيصر ، " فالريحان مختار الرب " كان ممثل المسيح (نصرانى) ومختار الشعب . وقد كان المأثور النصرانى أقل تحملا لمثل هذه المشاكل . فحفظ صورة داود التائب ونمقها أكثر . وصادف محمد (ﷺ) الصورتين لداود . واضطر نتيجة تردده لأى واحدة منهما ينحاز ، أن يغض النظر فى القرآن عن الرواية التى تبدأ بتمجيد داود وتحولت إلى الملك التائب.

وتبرز صورة سليمان فى أدب ما بعد العهد القديم أكثر من صورة داود . وتجد أصداء لها فى الوصف القرآنى . فوصف سليمان بأنه صاحب السيادة العالمى . حيث سيطر على قوى الطبيعة وعالم الأرواح (الأنبياء ٨١-٨٢، سبأ ١٢، ص ٣٦-٣٩) ،

وفهم لغة الطير (النمل ١٦)، وقد عرف النمل قراراته ، وعلى سبيل المثال عَلِمَ النمل بسير جنوده فلجأ إلى مكان بعيد ليكون فى مأمن (النمل ١٧-١٩) . كما خدمه الهدهد كرسول لملكة سبأ (٢٠) . أما فى العهد القديم فوصف بناء الهيكل وأدواته (أخبار الأيام الثانى ١-٩) يعد مصدرا للوصف الأسطورى لسليمان بأنه معمارى عظيم . وأما فى القرآن فقد وُهب مصادر المعادن ، واستخدم مساعدة الجن أثناء البناء ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (سبأ ١٣) . وكان قصره مطعما بألواح من زجاج ، حتى إن ملكة سبأ عندما زارته ، كشفت عن ساقيها وهى تسير على الصرح الممرد (النمل ٤٤) .

ويصور سليمان كسيد على الطبيعة فى موازنات عديدة مع داود . فيظهر كل منهما ، كقاض حكيم . كما تُكمل أخطاء كل منهما الآخر. فأغرم داود بامرأة أحد المقربين إليه وطرح زوجها للموت وخالف بذلك الوصية الخامسة والوصية العاشرة . أما سليمان فمال إلى حب أموال العالم " فرسان السباق" ، وربما يكون هذا ناجم عن الخلط مع مسألة الفرسان التى وضعها ملوك يهوذا لتقديس الشمس على مدخل المعبد والتى استبعدها يوشيا فى نطاق تطهير المعبد (الملوك الثانى ٢٣: ١١) . وكما ترك سليمان الفرسان ، كما يرد فى القرآن ، تهاون فى الالتزامات تجاه الرب (ص ٣٠-٣٣) . ويُمثل ذلك إخلالا بالوصايا الثلاث الأولى التى تعالج التزامات البشر تجاه الرب. بينما داود انحرف عن الوصايا المرتبطة بالبشر بعضهم تجاه بعض . وقد صُورت توبة داود فى القرآن ولم يُخبر أى شىء عن عقوبته . أما طبقا لوصف العهد القديم فهو لم يبن الهيكل لسفكه الدماء بيديه ، ولذلك انتقل بناء الهيكل لسليمان (أخبار الأيام الأول ٢٨-٣٠) . أما القرآن فقد أخبر عن عقوبة سليمان ، وكانت مناسبة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص ٣٤-٣٥). ومادام سليمان يُنكر الرب بأنه الإله الأعلى فانتزعت منه الملكية بين آونة وأخرى . وقد شُغف سليمان بعد أبيه بأنه تائب . فالأب والابن يرتبطان فى هذه الرواية عن طريق أخطائهما المكملة بعضها البعض. وأصبح سليمان تائبا لأن أباه كان أيضا تائبا .

والرواية الأطول عن سليمان هى رواية علاقته بملكة سبأ (النمل ١٧-٤٤). فتبدأ الرواية بارتحال سليمان وجنوده من الجن والإنس والطير (١٧-١٩). وعندما استعرض الملك الطير الموجودة فى قواته لاحظ الملك غياب الهدهد (٢٠-٢١) . وقد أحضر الهدهد وثيقة عن السبئيين ، وهى أن ملكة تحكمهم ويصلون للشمس (٢٢-٢٦) ، فبعث سليمان الهدهد برسالة للملكة ، طالبها باعتناق الإسلام . وتشاورت الملكة مع كبار إمبراطوريتها وقررت تهدئته بإرسال هدية إليه (٢٧-٣٥) . لكن سليمان هددها بحرب (٣٦-٣٧) وطلب إلى واحد من جنه إحضار عرشها (٣٨-٤١) ... فاستسلمت (ولم يخبر عن ذلك فى القرآن بالضبط) . ثم زارت سليمان وشاهدت القصر واهتدت للإسلام ، وقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٢-٤٤) .

أما فى العهد القديم فإن ملكة سبأ شاهدة على حكمة وثراء سليمان . فقد حل الألغاز التى طرحتها عليه ، كما اندهشت عند مشاهدة قصر إمبراطوريته . وتبادلا الهدايا بأسلوب سخى ، على نحو ما يفعل الملوك كل منهم للآخر (الملوك الأول ١٠: ١-١٣). وأما القصة فى القرآن فتوجد فى نطاق سلسلة قصص عن الأنبياء ورسالاتهم : موسى وفرعون (٧-١٤) ، سليمان وملكة سبأ (هذه القصة ١٥-٤٤)، صالح وثمود (٤٥-٥٤)، لوط وفناء ثمود (٥٤-٥٨) . وقصة سليمان وملكة سبأ عكس قصة موسى وفرعون ، فبينما رفض فرعون الرسالة وأفنى ، قبلتها ملكة سبأ ، وامتازت بتقديسها العظيم . والروايتان التاليتان تناقشان رفض الرسالة والعقاب الناجم عن ذلك . وربما تمت إضافتهما هنا لتشابه محتواهما فقط .

وتمثل قصة سلوك سليمان مع السبئيين صورة نموذجية للحرب ضد الوثنيين، التى قادها محمد (ﷺ) من المدينة ضد المكيين . والقصة تشمل فى جوهرها القاعدة المهمة للحرب المقدسة (الجهاد) ضد الكفار ، إذ من الضرورى مطالبة العدو بقبول الإسلام قبل إعلان الحرب ضده . وإذا لم يقبل يُسمح على الفور باستخدام الوسائل الحربية . وفى الأساطير تحولت العلاقة بين سليمان وملكة سبأ إلى قصة حب. واستخدم جوته ذلك فى الديوان " الشرقى للمؤلف الغربى" وتحدث فى قصيدة "التحية " عن الغراب كرسول بين الحبيبين .

تاسعا : نهاية بنى إسرائيل

يرد فى سورة الإسراء (٢-٨) موجز لتاريخ بنى إسرائيل منذ موسى وحتى الهيكل الثانى ، ويُقسم إلى قسمين : ١- ظهور موسى ودعوته (٢-٣)، ٢- التهديد بفناء الهيكل للمرة الثانية (٣-٨). فتبدأ القصة بدعوة موسى إلى إله واحد (التوحيد) ويرد ذكر الطوفان . وتتضمن هذه الإشارة الوعد بالحساب : فكما أفنى البشر بالطوفان لممارستهم عبادة الأوثان ، فإن بنى إسرائيل سيعاقبون بسبب ارتدادهم . ويكون العقاب تتابع الأعداء على المدينة والهيكل (٧) ، كما يجب علينا أن نردف، لإبادتهما. ثم يتاح بعد ذلك فرصة راحة لبنى إسرائيل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ (٦) . لكن يتحقق فيما بعد التهديد الثانى : فكما حدث فى المرة الأولى ، يقع بنو إسرائيل من جديد فى الآثام ، فيفنوا هم والهيكل (٧).

ولا يمكن للمرء أن يشك مطلقا بأن الإنذار بالعقاب المتضمن فى الجزء الثانى يقصد به تدمير أورشليم من قبل نبوخذنصر والسبى البابلى ، ثم العودة وتدمير الهيكل من قبل الرومان. وقد فسر مفسرو القرآن من المسلمين هذا الموضع بهذه الصورة . ويمكن أن يُفهم شكليا أن كل شىء برز هنا فسر بأنه تهديد بعقاب ، وهو يمثل استمرارا لدعوة موسى . وتغلب الإشارة إلى دعوة موسى حيث يحذر النص فى النهاية من الحرب والنفى كما ورد فى التثنية (٢٨: ٤٧-٦٨) الإشارة للعودة والتوبة (٢٩: ٢٨-٣٠: ١٤) . إلا أن محمدا (ﷺ) قدم نصا متتاليا وأتبع العقوبة الأولى بالعقوبة الثانية الدنيوية والأخيرة. ورغم ذلك يمكن بنى إسرائيل من الأمل فى رحمة الرب ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ (٨). وتتضح الرواية بأنها تحذير من محمد (ﷺ) لليهود بقبول الإسلام . لكنهم استمروا فى عنادهم فهددهم بالعقاب الأبدى ، وقيل فى نهاية القصة ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ . والتعبير " حصيرا " يشير إلى سبى بنى إسرائيل فى بابل ، وأكثر من ذلك تعد "جهنم " أكثر قسوة ، ولا يوجد أى أمل للتحرير والعودة .

الهوامش

(١) مواضع أخرى لقصة الخلق فى القرآن ، انظر : الأعراف ٥٤ـ٥٧ (حيث الإشارة إلى خلق العالم فى ستة أيام) ، الحجر ١٦ـ٢٥، الإسراء ٢ـ١٦٣ ، فصلت ٩ـ١٢، الرحمن ١ـ٣٠ .

(٢) Noeldeke / Schwally, Geschichte des Qurans I, 79 حيث يفترضان أن الصياغة وضعت معدلة ، وبخاصة الآية : ٦ وأنها كانت فى البداية طويلة وربما أقحمت مؤخراً .

(٣) روايات الأنبياء المأخوذة من العهد القديم والمأثور اليهودى استعملت الرواية كاملة مع ذكر الأسماء ، مثلا قصص الأنبياء للكسائى ترجمها من العربية وأضاف إليها ملاحظات W.M.Thackston, Boston 1978, S. 77ff (عاش الكسائى فى القرن الحادى عشر) .

(٤) A. Geiger , Was hat Mohammed aus judentum aufgenommen? S. 102 f . Norman A. Stillman : The Story of Cain and Abel in the Qur'an and the Muslim Commentators : Some Observations , in : Journal of Semitic Studies 19 (1974) S. 231-239 .

(٥) قارن البقرة : ١٧٨، ١٧٩، ١٩٤، وأيضا المائدة ٤٥ .

(٦) يقصد هنا جبل فى شبه الجزيرة العربية ، فيما بعد حدد المسلمون الجبل فى المنطقة الجبلية الكردية ، قارن : M. Streck : Djudi, in : Encyclopaedie of Islam , 2. Auflage, II 573-574.

(٧) يجد المرء قائمة ألفبائية بأسماء الآلهة العربية القديمة فى الدراسة التالية: Fahd , Le panthéon de L'Arabie centrale , S. 48-201.

(٨) انظر : إحصاء المواضع عند رودى بارت فى : Kommentar لسورة الأعراف : ١٨٤ ,

(٩) يوجد بالقرب من كنيسة الرهبان فى سيناء موضع مقدس للنبى صالح . وحول القبر فى حضرموت قارن : Harold Ingrams . Arabia and the Isles ,3. Auflage , London 1966, S. 182ff, وعن هود قارن : A.J. Wensink u. Ch. Pellat , Hud, in: Encyclopaedia of Islam , 2. AuflageIII 537f.

(١٠) انظر : دراسة بوزروث بعنوان : C.E. Bosworth , Madyan Shu'aib in pre- Islamic and Early Islamic Lore and History , in : Journal of Semitic Studies 29 (1984) , S. 53-64.

(١١) حول تطابقهما ، انظر : دراسة بوستون بعنوان : A.F.L. Beeston, The "Men of the Tanglewood" in the Qura'an , in : Journal of Semitic Studies 13 (1968) S. 253-255.

(١٢) يوجد نقاش مفصل فى دراسة وات بعنوان : W.Montgomery Watt: Bell's Introduction to the Qur'an , completely revised and enlarged , Edinburg 1970, S. 127ff.

(١٣) فى سورة الشعراء تدور الروايات عن موسى (١٠-٦٨) وإبراهيم (٦٩-١٠٤) ، فهذه الروايات والروايات التالية تتسم بصياغة ختامية متناظرة .

(١٤) ذكر هنا " قوم إبراهيم " وكانوا غير مؤمنين ولم يرد الحديث عن أى عقوبة .

(١٥) يتذكر المرء هنا ما ورد فى الرسالة الثانية لأهل كورنثوس ٣: ١٥ " لكن حتى اليوم حين يقرأ موسى البرقع موضوع على قلبهم " .

(١٦) هيرنيموس الجدل اللاهوتى حول التكوين ١١ : ٢٨ وتفسير أشعيا ٦٥ : ٨ ، والاقتباس عند سباير فى : Die biblischen Erzaehlungen im Qoran , S. 143.

(١٧) ارتبط فى المأثور الإسلامى هذا الملك مع نمرود ، ونمرود هذا كان أول جائر فى الأرض وذكر بأنه حفيد حام (التكوين ١٠ : ٨) .

(١٨) قارن سباير : ص: ١٤٣ .

(١٩) سباير : ص ١٦٣ . حيث لا يعرف لهذه الصياغة أى نموذج يهودى أو مسيحى .

(٢٠) قارن : بارت ، التفسير ، سورة البقرة : ١٢٤ .

(٢١) الكلمة فى هذا السياق فى القرآن عن المؤمنين (اليهود فى مصر ، القصص : ٥) ، وغير المؤمنين (أصحاب الحجر ، الحجر : ٧٩) ، لكن استعملت كذلك فيما يتعلق بالكتاب (هود : ١٧ ، الأحقاف : ١٢) أو الكتاب الأصلى عند العقاب (الإسراء ٧١، يس : ١٢) .

(٢٢) هكذا عند الطبرى (أوائل القرن العاشر) فى تفسيره لهذا الموضع .

(٢٣) يستشهد الطبرى على ذلك بالسلطان من ناحية ، والذكاء من ناحية أخرى .

(٢٤) بكة اسم آخر لمكة ، ويسود الافتراض أن تبديل الحرفين الأولين له وظيفة دفع الأذى، وخداع الروح الشريرة .

(٢٥) قارن : F. Wuestenfeld : Die Chroniken der Stadt Mekka, S. 2 .

(٢٦) تفصيل مسهب لهذه الرواية نجده فى دراسة : Anthony H. Johns بعنوان : Joseph in the Qur'an: Dramatic Dialogue, Human Emotion and Prophetic Wisdom ، وقد نشرت هذه الدراسة فى : Islamochristiana 7 (1981) S. 29-55 ، وفى النهاية ترجمة كاملة لسورة يوسف) .

(٢٧) طبقا للعهد القديم صعد يوسف لاستقبال أبيه (سفر التكوين ٤٦: ٢٨ - ٣٠) ، الذى لم يذكر فى القرآن مطلقا ، قارن بارت : التفسير ، سورة يوسف : ٩٩) .

(٢٨) قارن : Herbert Donner : Die Literarische Gestalt der alttestamentlichen Josephsgeschichte, Heidelberg 1976, S.84.

(٢٩) G. von Rad اقتباس عند A.H. Johns : Joseph in Qur'an S. 39

(٣٠) A.H. Johns : S. 44f.

(٣١) Watt : Bell's Introduction to the Qur'an S. 110 .

(٣٢) معنى الاسم غير معروف ، قارن أيضا : .Horovitz : Koranische Untersuchungen , S. 125 .

(٣٣) عندما يقترب المرء من الكنيسة الصغيرة للعليقة المحترقة فى دير الكتدرائية "من لطريق المعد" الذى يمثل المخرج الوحيد للدير توضع الكنيسة الصغيرة فى الواقع فى الجانب الأيمن . والواقع فإن تحديد العليقة المحروقة فى هذا الموضع كان معروفا بالفعل منذ القرن الرابع الميلادى . قارن : Herbert Donner Pilgerfahrt ins Heilige Land, Stuttgart 1979, S. 83 , 89.

(٣٤) بالطبع هامان وزير الملك الفارسى (قارن أستير ٣: ١) وصار نموذجا للعدو المؤمن ، وأن الاسم لم يوضع لشخص بعينه ، ولكن نموذجا .

(٣٥) قارن تاريخ الرسل ٥: ٣٤ ـ ٤٠ .

(٣٦) يبقى تابوت نوح بمثابة علامة ، عن إنذار الأجيال التالية ، قارن سورة القمر : ١٥ .

(٣٧) انظر : الحديث عن آثام اليهود .

(٣٨) ربما يقصد القاص صور الأوثان فى المعبد المصرى فى بيت الخادم فى شبه جزيرة سيناء ، التى تبعد حوالى مائة كم جنوب شرقى السويس .

(٣٩) يلفظ "حطة" ، عن ذلك قارن بارت ، التفسير لسورة البقرة : ٥٨ ، بالإضافة إلى عرض مسهب لمحاولات توضيح وشرح من جانب العلماء الغربيين . يستشهد المأثور الإسلامى بهذه الإشارة الغامضة بأورشليم ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (يعنى أورشليم) فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ . يستنتج من هذا الشرح أنه يدعى أحد أبواب السور الغربى للحرم الشريف فى أورشليم اسم باب حطة ، قارن : Guy Le Strange " Palestine under the Moslems, Beirut (Neudruck) 1965 , S. 173 ff .

(٤٠) حوار مسهب عند بارت : التفسير ، سورة (طه : ٨٥) (مع برهان من عند هوروفيتس وسباير ، وغير ذلك) .

(٤١) انظر : مقارنة سورة (الإسراء ٦٢: ٢٢ ـ ٢٥) مع المواضع المماثلة من سفر الخروج ٢٠ ، وكذلك انظر M.S. Seale : Qur'an and Bible . Studies in Interpretation and Dialogue , London : 1987, S. 74f.

(٤٢) الموضع الوحيد عن ذلك فى سورة الجمعة ٩ ـ ١١ .

(٤٣) بركة قارون ، بحيرة فى الفيوم ، تشير إلى مكان محدد فى تاريخ مصر .

(٤٤) قارن ، أيضا " السندباد البحار " و " السندباد الحمال " حيث يتطابق اسماهما ، فكلاهما خلق الرب ، لكنهما يعيشان فى سياق اجتماعى مختلف .

(٤٥) Speyer : Die biblischen Erzaehlungen im Qoran , S. 367 f.

(٤٦) قارن : Louis Ginzberg : The Legends of the Jews , Philadelphia 5728 -1968 , IV 101-104 .

(٤٧) عن ذلك قارن : . Herbert Donner : Pilgerfahrt ins Heilige Land : S. 281

روايات العهد الجديد

أولا ـ رؤية عامة

تقل روايات العهد الجديد كما إلى حد ما عن روايات العهد القديم . وتنحصر فى ثلاثة تراكيب كبرى، بغض النظر عن الآيات المتفرقة، الموجودة فى سور آل عمران (٣٣-٥٧)، والمائدة (١١٠ -١٢٠)، ومريم (١-٣٣)، ويذكر علاوة على ذلك فى سورة النساء (١٥٧-١٥٨) حيث يشار إلى صلب المسيح ، وإنكار ذلك. وعرف " محمد "، كما قيل سابقا ، الإنجيل وضم تحت هذا الاسم كتابات النصارى المقدسة بصورة عامة . وهو لا يعرف شيئا بوضوح عن الأناجيل الأربعة، ورسائل بولس الرسول، وخطابات بولس ، والأدب الأبوكاليسى ليوحنا (رؤيا يوحنا). وهذا لا يتعارض مع وجود مواضع فى القرآن ترجع إلى هذه الكتابات مباشرة أو عن طريق غير مباشر أو توجد سمات لهذه الكتابات. وجمع سباير "Speyer" فى كتابه " روايات الكتاب المقدس فى القرآن " قائمة لمثل هذه الموضوعات. وعرف " محمد" من شخصيات العهد الجديد زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ومريم والمسيح ، ويُشار إلى الرسل والحواريين بصفة عامة ولم تذكر أسماؤهم .

وقد امتد منحنى الروايات فى سورة آل عمران حول يسوع منذ آدم، الذى يبدأ به النسب ، وحتى الحساب. وتحتل رسالة التوبيخ مكان الصدارة. وتسرد معجزات المسيح بإيجاز ، وينوه إلى اختيار الحواريين، وتبع ذلك ، الحديث عن مطاردة اليهود للمسيح وخلاص يسوع بصعوده إلى السماء . ويعترف اليهود عند الحساب بأن المسيح

نبى حقيقى . وتشترك سورة مريم مع سورة آلِ عمران فى بعض الأشياء، مع أن قصة الميلاد تُسرد بإسهاب. وتعرض سورة المائدة روايات تشمل سمات معجزة تزايد الخبز أو وجبة العشاء وخوف المسيح البالغ من العذاب الروحى . وهى تمثل بقايا قصة الآلام التى تعد فى الأناجيل القصة الوحيدة عن حياة المسيح والتى تسرد متصلة ، وأما الصلب فى القرآن فاختصر إلى إشارة غامضة فى سورة النساء (١٥٧). وعلى العكس من ذلك يُذكر الرفع إلى السماء مرتين (آل عمران ٥٥، النساء ١٥٨). ويظهر المسيح عند الحساب ، مثل " محمد" والأنبياء الآخرين، شاهدا لأمته، ويصبح هذا رفضا صريحا للصيغة النصرانية ، فهو سيبعث " لحساب الأحياء والموتى" وأيضا لم يعرف "محمد" شيئا عن وجود المسيح ، فالإعجاب بالتعاليم الأخلاقية (بتعاليم الحكمة) كان ظاهريا خالصا .

وقد أُضيف إلى صورة المسيح فى القرآن كثير من صور أنبياء العهد القديم. ومع ذلك حددت وظيفته، عندما ينظر إلى أعمال الأنبياء الآخرين السابقين: فقد بشر بالكلمة، أيد سابقيه بوظيفة النبوة، وبشر بتابعه أى " محمد". وقدم معجزات، يؤمن عن طريقها برسالته، ووجد أتباعا ، وصادف أيضا خصوما فشكى الظلم وعرض نفسه للخطر لكن الرب خلصه.

وتقترب الصورة التى يرسمها القرآن عن مريم من التصور النصرانى عن صورة يسوع القرآنية. فهى العذراء التى وُهِبت المسيح دون أن يمسها بشر، وفيها سمات قالب الأم كثيرة الآلام كما توصف فى إنجيل يوحنا ، مع أنها لم تعان من الصلب، بل عانت كأم افترى عليها اليهود.

ثانيا : المسيح (عيسى) فى التاريخ المقدس (آل عمران ٣٣-٥٧)

تسرد رواية المسيح وأمه وزكريا ويوحنا بإسهاب فى سورة آل عمران (٣٣-٥٧) . وتقسم إلى قسمين : الجزء الأول يصل حتى البشارة بميلاد المسيح (٣٣-٤٤)، والجزء

الثانى من البشارة وحتى الصعود إلى السماء (٤٥-٥٧). ويفصل القسمان عن بعضهما جملة زمنية موجزة فى (٤٥) [١].

يبدأ القسم الأول، مشابها لما ورد فى إنجيل متى (متى ١:١٧)، بشجرة نسب. وتسرد شجرة النسب فى الإنجيل نسب يوسف (كذلك أيضا شجرة النسب فى لوقا ٣:٢٣-٢٨)، بينما تكون شجرة نسب مريم فى القرآن. ويذكر يسوع فى القرآن دائما بالاسم المألوف "ابن مريم". ولم ترد الإشارة إلى يوسف (النجار) فى القرآن. ولأن شجرة النسب تبدأ بآدم ، بينما تبدأ عند متى من إبراهيم ، فيساهم ذلك قليلا فى الموضوع، وأما عند لوقا فتصل على أية حال فى خط تصاعدى حتى آدم (لوقا٣:٢٣ حتى النهاية). ويذكر القرآن الشخصيات المهمة فقط: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾ (آل عمران ٣٣-٣٤) وعمران فى القرآن هو عمرام فى الكتاب المقدس، أبو موسى . ويظهر آدم ونوح على أنهما أفراد فقط، أما إبراهيم وعمران فهما أبوان أصليان لعشائر كبيرة . وهما يمثلان البطاركة وعشائرهم "يشكلون وحدة واحدة "، وكما يضيف بارت على أساس فهم النص الاسلامى: إنهم يمتلكون العقيدة الصحيحة ويبلغوها من جيل إلى جيل.

وكان لعمرام المذكور فى العهد القديم ابنان وبنت هما موسى وهارون ومريم/ مريا (أخبار الأيام الأول ٥: ٢٩). مريا هذه دمجت فى القرآن مع مريم أم المسيح لتصبح شخصية واحدة. وربما يبين هذا "الخطأ على أساس تفسير نمطى وضعه "محمد (ﷺ)" . ووجد علماء الكنيسة القديمة ، فى روايات موسى، وخروج الإسرائيليين من مصر ورحلة الصحراء نماذج لسرية العقيدة النصرانية . فالعليقة ، التى تلقى موسى عليها الرسالة ، والتى أضاءت ولم تحترق ، تفهم بأنها نموذج لمريم العذراء دائما ، وموسى الذى خلص الشعب نموذج للمسيح الذى ينقذ البشرية، والرحلة عبر البحر نموذج للتعميد، والمن فى الصحراء نموذج أولى نمطى للقربان المقدس. والقائمة طويلة [٢].

والرواية التالية لشجرة النسب بها سمات عديدة من سمات رؤيا يعقوب [٣]. فطبقا لهذه الرواية، يرد خط امتداد لأسطورة ماريا، أحضرت مريم إلى الهيكل وهى طفلة،

ونشأت تحت رعاية الكاهن لأنها عذراء الهيكل. وهذه البشرى لها تأثير قوى فى الكنيسة الشرقيه فى قصة طفولة المسيح. وقد أهمل القرآن كثيرا من التفاصيل : حملت امرأة عمران (لم يذكر اسمها) ونذرت الطفل المنتظر ، بشرط أن يكون صبيا، لخدمة الرب (٣٥). وفيما بعد ولد الطفل، وكان بنتا، وأطلقت الأم على الطفلة اسم مريم (ماريا) وجعلتها وذريتها هناك - ويمكن أن تكون هنا الإشارة ليسوع - تحت حماية الرب (من الشيطان) (٣٦). وقد أُجملت طفولة مريم وانضمامها إلى عذارى المعبد فى عبارة قرآنية واحدة ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧). وتغذت مريم بأسلوب خاص وهى طفلة صغيرة، كما يرد فى بشارة يعقوب : " جهزت أنا لأختها معبدا فى المخدع، ولم تسمح "بأن تقبل الطفلة" شيئا دنيويا أو غير طاهر" (١:٦). وظهر زكريا لأول مرة فى البشارة واضحا عندما كانت مريم ابنة اثنى عشر عاما وعقد زواجه (الإصحاح ٨). وفى القرآن لدينا ما يقال حول أسطورة مريم التى تطورت من بشارة يعقوب. وعندما لاحظ يوسف حمل مريم قال معاتبا إياها: بأن مريم تلقت فى الهيكل طعاما من يد ملاك. (١٣: ٢).

وعلى إثر قصة ميلاد مريم، وطفولتها ونذور أمها لها بأن تكون امرأة معبد، يعرض القرآن كيف أن زكريا، الذى كان يعرف من قبل أنه راع، قد صلى فى المعبد لذريته، وتلقى البشارة بميلاد يوحنا المعمدان وصمته لمدة ثلاثة أيام (٣٨ - ٤١). وهذه الرواية تتبع الرواية الواردة فى إنجيل لوقا (١:٥ - ٢٥)، وعلى زكريا، كما يدعى عند لوقا، أن يبقى صامتا حتى ميلاد يوحنا.

وقد تم تحديد بداية وحدة جديدة عن طريق عبارة الزمن المختصرة فى الآية (٤٢) وهذه الوحدة تظهر الاسترجاع من إنجيل لوقا إلى نبوءة يعقوب الأصلية: (ولما قالت الملائكة: يا مريم: الرب اختارك وجعلك طاهرة ! اختارك من نساء العالمين) . وفى الرؤية الأصلية نص التحية الإنجليزية توفيق من لوقا١ : ٢٨ ، ٤٢) "سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت" (الإصحاح ١١ :١). وأكثر من ذلك قالت الملائكة

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤٣) . وعن طريق هذه الصياغة فإن صياغة البشارة بميلاد المسيح توازى البشارة السابقة بميلاد يوحنا المعمدان، حيث أمر زكريا فى النهاية : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٤١) . ومع بعض الملاحظات الهامشية ، فيها يشير " محمد " إلى خاصية الوحى للرواية، يتم الجزء الأول من قصة يسوع - (الآية ٤٤). وتحدث بشىء من الغموض فى نهاية الآية (٤٤) عن أقلامهم التى ألقوها ليقرروا من يرعى مريم. وهذا إشارة إلى رؤية يعقوب الأصلية (الإصحاحان ٩،٨) حيث تستخدم أقلامهم لإيجاد زوج لمريم. ووقعت القرعة على يوسف.

ويبدأ الجزء الثانى بعبارة زمن مختصرة " إذ قالت الملائكة " (الآية ٤٥)، مع أن الرابطة "و" المتقدمة تحذف فى هذا الجزء، لأن هذا الجزء كان يمثل أساسا جزءا مستقلا " قالت الملائكة " (٤٥). و ترجع صورة البشارة، التى ينتهى بها الجزء الأول، إلى الإشارة الواضحة فى لوقا (١ :٣١ - ٣٥) . ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ [٤] اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤٥ -٤٦). ورد الملاك رفض مريم (الآن مفردا، كما فى الإنجيل) مع البرهان: ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤٧).

وهذا ، كما أشير سابقا، رفض حاد للاهوت المسيح الذى يظهر صداه فى تحية الملاك عندما بشر مريم " بكلمة الرب" وكما يقال هنا بوضوح، خلق عن طريق كلمة خلق الرب فى رحم مريم . وليس للملاك أى علاقة بكلمة الله فى إنجيل يوحنا عن وجود عيسى . فالمسيح ليس خلق الله، بل المادة التى يستخدمها عند الخلق. وانصب رفض " محمد " على تعاليم طبيعة المسيح الإلهية. و يظهر هذا من الاسم، الذى منحه الملاك لمريم، "ابن مريم" وهو ما لا يظهر مقبولا، عندما تخاطب مريم. والاسم "عيسى ابن مريم" قد صار مألوفا فى استخدام " محمد " اللغوى حيث يلفظ السياق فى موضع آخر [٥].

وبما أن يسوع يظهر فى الدنيا والآخرة ولها ، وبما أن مريم لها صلة بالرب فإن ذلك يبرهن على وظيفة المسيح النبوية . ولأنه تحدث رضيعا إلى الناس وإن كان ذلك افتراضا فى إنجيل الطفولة مشكوكا فى صحته [٦]. وقال الملاك فيما بعد فإن الرب علّم المسيح ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٤٨). وبصورة عامة فإن التوراة والإنجيل هما كتابا الوحى فى اليهودية والنصرانية. وهنا ينبغى القول إن المسيح لم يحصل على التوراة الموجودة فعلا عن طريق جهود بشرية، بل تلقاها من جديد عن طريق الوحى. ووجد " محمد " نفسه أيضا فى الموقف نفسه، فقد تلقى القرآن على أنه وحى "عربى" جديد. وبالأسلوب نفسه فإن " محمدا " لم يتعلمها من البشر، كما كان يؤكد دائما وأبدا بأن روايات الكتاب المقدس أُوحى بها إليه من الرب.

وعلى أثر ذلك تسرد معجزات تصديق المسيح التى أعلنها بنفسه (٤٩)، وذلك بدون تحول. وهى كما تبدو : الحديث فى المهد، كما تنبأ الملاك بالبشارة، وأول هذه المعجزات التى حققها وهو طفل : خلق الطير من الطين، كما فعل الرب عند خلق آدم، فنفخ فيه – عيسى فى الطير – فصارا طيراً. وهذه تم ذكرها فى الأناجيل المشكوك فى صحتها [٧]، والمعجزات الأخرى هى البشارات القانونية، يعنى إبصار الأعمى وشفاء الأبرص علاوة على بعث الموتى. والمعجزة المعلنة فى هذا الإحصاء والمذكورة فى الموضع الأخير تفسر ببساطة للغاية. فترجمة رودى بارت: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ (بدون رؤيته). إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم (غير) مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٤٩). والشروح الموضوعة بين الأقواس من رودى بارت تعكس الفهم الإسلامى الموروث. أما ترجمة هيننج: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [٨]. ونلحظ أنه وفقًا لترجمة بارت يتصور مقدرة المسيح التنبؤية فى حين نرى ترجمة هيننج تدور حول قول مألوف بحسب قانون الطعام اليهودى . رغم أن هذا لا يستقرأ فعلاً من النص. والحديث صراحة عن معجزة. وترك بارت فى تفسير آل عمران (٤٩) الفرصة واضحة بأن "بيوتكم" تعود فقط على "ما تدخرون"، أى "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم". إلا أن هذا يؤدى إلى حل غير مرض. وربما تكون إشارة إلى التزايد

المدهش للخبز . فالأناجيل تتحدث عن تزايد الخبز مرة (متى ١٤: ١٣ - ١٢) أو مرتين (متى ١٥: ٣٢ - ٣٩؛ مرقص ١١٨ ١٠). وفى المرة الأولى ، وبعد أن أكل الجميع، وقد بقى بعد تزايد الخبز اثنتا عشرة قفة مملوءة خبزا ، وفى المرة الثانية وجدت سبع سلال منه - هكذا كان يلزم الواضع لتسلسل الأفكار - ليُحتفظ بها لمرة أخرى. ويرتبط التزايد المدهش للخبز نمطيا ارتباطًا وثيقًا بحادثة المن فى الصحراء (وإضافة احتفال وجبة العشاء المقدسة كبؤرة اهتمام فى صلاة العبادة المسيحية. أما الإسرائيليون فقد التقطوا ، طبقًا لأمر موسى، فى اليوم السادس المقدار المزدوج وادخروا قدرا من التزايد المدهش للخبز ليوم السبت، لأن السبت كان يوم راحة لا يسمح فيه بالالتقاط (الخروج ١٦: ٢٢ - ٣١). وربما كان لدى " محمد" نموذج يُفسر به التزايد المدهش للخبز من قبل المسيح مثل الوفاء بالطعام فى الصحراء عن طريق المن الذى أرسل من السماء. فكما أن معظمه أكل على الفور وجزء منه ادخر، أغوى الناس بتوجيه المسيح للخبز ، فقد استُهلك منه جزء على الفور (فقد كانوا جوعى، كما قيل صراحة) وحمل جزء آخر إلى البيوت وادخر لاستهلاكه فيما بعد.

وعلى أثر إعلان المعجزات ترد أخبار عن وعظ المسيح (٥٠ - ٥١): تصديق التوراة ، تخفيف قانون الطقوس اليهودية. وهذه إشارة إلى موضوعات تدور حول موعظة الجبل، وكذلك حول النقاش عن مدى الصلاحية ، والالتزام بالقانون الذى كان بين مبادئ قانون المسيح ومبادئ القانون اليهودى وبين الحواريين، ووجد لها انعكاس فى كتابات العهد الجديد. وفى نهاية الآية (٥٠) إشارة إلى تصديق نبوءة المسيح يعنى "آية من الله " التى جاء بها، وربما يعنى الإنجيل بوصفه كتاب وحى، تمامًا كما يتحدث عن القرآن على أنه "آية" والكلمة العربية آية لها معنيان: "معجزة" ، "وآية فى القرآن" (٩) وبما أن المسيح يمتلك "آية" فوجبت طاعته ولذلك " فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ " ، وكما حددها النص فى النهاية تشمل مضمون تعاليم الرب مرة أخرى والطبيعة البشرية للمسيح باستثناء ادعاء النصارى ببنوة الرب: " إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ " (٥١) وسوف نعود مرة ثانية لهذا الخبر.

وصادف يسوع، مثل كل الأنبياء، كفارا وبحث عن أنصار، أى مؤمنين وأتباع (٥٢ - ٥٣). وهذه إشارة إلى اختيار الرسل (متى ١٠: ١ - ٤) أو بعث الاثنين وسبعين حواريا (لوقا ١٠: ١ - ١٢). ويعترف الحواريون بأنهم أنصار الله والمؤمنون به؛ وطلبوا من المسيح شهادة بأنهم مسلمون. وتحول هذا الطلب إلى صلاة مباشرة اعترفوا فيها بعقيدتهم وتمنوا الثواب يوم الحساب: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ويدور القسم التالى حول مكر اليهود (٥٤) وبشرى الرب بالرفع إلى السماء أى رفع عيسى إلى السماء: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٥٥) - ورتبت حياة يسوع فى نموذج السيرة الذاتية للأنبياء؛ كما اعتنقها " محمد" ، فالنبى أعلن رسالة، ووهب معجزات الإيمان؛ ووجد أنصارا وأتباعا، ولكنه وجد أيضًا أعداءً كثيرين طمعوا فى الحياة بعده، وفى النهاية خُلِّص عن طريق تدخل الرب. وبينما خلاص نوح نشأ من إغراق أعدائه بالطوفان؛ وخُلص إبراهيم من كومة الحطب أى عن طريق تدخل الرب، وحصل خلاص موسى وبنى إسرائيل عن طريق إبادة المصريين، فخُلِّص المسيح برفعه إلى السماء. وطبقًا للتعاليم القرآنية حول طبيعة المسيح يمكن أن تدور حول الرفع الجسدى وليس حول "Ascensia" الصعود ، يتضح لنا ذلك فى القرآن فى استخدام الفعل رفع. يقول الرب للمسيح: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (٥٥).

ويُعنى النص القرآنى أيضًا بأتباع المسيح الذين يبقون فى الدنيا. فيبشر الرب عيسى فى أثناء رفعه للسماء ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٥٥). فالمؤمنون هم النصارى ، والكفار هم اليهود الرافضون لتعاليم المسيح ، والذين طمعوا فى الحياة من بعده. وقد رأينا فعلاً أنه قد جلبت عليهم "الذلة والمسكنة" فالمعبد قد دمر (١٠)، وتشتتوا فى العالم واضطروا للعيش تحت سلطان النصارى. وسوف يستمر هذا الوضع إلى نهاية العالم. وفى يوم الحساب يُحكم بين الديانتين ، فيعاقب الكفار ويثاب المؤمنون (نهاية الآية ٥٥ حتى الآية ٥٧).

ثالثا : المسيح ينقذ أمه (سورة مريم ١-٣٣)

تُسرد قصة ميلاد وطفولة المسيح أيضًا فى سورة مريم (١ - ٣٢). وتحمل السورة عنوان مريم وهى مكونة من جزءين: زكريا ويوحنا المعمدان (١- ١٥)، مريم والمسيح (١٦-٣٣)

يبدأ القسم الأول بصلاة زكريا للرب من أجل أن يهبه ولدا، فالبشارة بميلاد يوحنا وصمت زكريا لمدة ثلاثة أيام (١ - ١١). والنص مشابه للغاية النص فى سورة آل عمران (٣٨ - ٤١). وما قد نقص هناك، يعنى ميلاد يوحنا، يرد فى هذا الجزء. والحديث ليس عن قصة الميلاد نفسها ؛ والراجح أن هذا الجزء قد حُذِفَ أو تركه " محمد " لعدم الأهمية. وأدرجت القصة فقط بعد قصة ميلاد يوحنا. فقصة ميلاد يوحنا تتضمن الأمر: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ يؤيد ذلك المأثور بأن الكهنة كانوا مهمتين بوضع لفائف التوراة فى المعبد [١١]. وطلب أيضًا من يوحنا باعتبار أنه ابن زكريا الكاهن اقتفاء أثر والده. إذ إنه عندما كان طفلاً : "امتلك الحُكم"، (الآية ١٢)، ويمكن أن تطابق رواية بقاء المسيح فى المعبد لمدة اثنى عشر عامًا: "لأنه جلس فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم" (لوقا ٢: ٤١- ٥٠). وكما كان يسوع فى الناصرة (مطيعًا) والديه (لوقا ٢: ٥١) كان يوحنا بارا بوالديه (١٣ - ١٤) وينتهى القسم الموجز بدعاء ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١٥).

وتنطبق بشارة يوحنا لزكريا على بشارة المسيح لمريم (١٦ - ١٩) بكلمات مشابهة كما فى سورة آل عمران (٤٢ - ٤٣، ٤٥ - ٤٨). ورغم أن المكان والموضع مختلفان ، فبينما نفهم من الوصف فى سورة آل عمران بأن البشارة قد جرت فى المعبد ، حيث مريم - كانت تحت رعاية زكريا - قد مارست الحياة ، فيعنىْ هذا هنا أن مريم اتخذت من قومها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (١٦). حيث تلقت البشارة بميلاد المسيح . إلا أن هناك تخمينات عديدة تتعلق بـ ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ . فالمأثور الإسلامى يقول : وجدها شرقًا فى المعبد (الممرات)، فبلغت مريم سن الزواج ولذلك اضطر أن يغادر المعبد [١٢].

ويشير " ف. رودلف " (W. Rudolph) متأثرا بدعوى "م. ديتنجر" (Dettinger) إلى أصل نصرانى لهذه الرواية : ففى حزقيال ٤٤: ١، حيث يفتح الباب الشرقى فقط من قبل الرب، فالكنيسة القديمة تقصد منه نمطيا بأنه يعود على مريم ودخول الألوهية فى رحمها [١٣]. وعلى كل حال فإن المقصود من "مكانا شرقيا " مكانا غير المعبد (وأيضا ربما غير القدس). وسوف نرى فيما بعد أن مريم تركت "المكان الشرقى" واتخذت مكانا قصيا . ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (١٧) فطبقا لـ:" ريتشارد بل" فإن "الحجاب" يمثل ذكرى واهنة لعمل مريم فى المعبد ، حيث ساهمت فى إقامة الحجاب ، كما يسرد فى بشارة رؤية يعقوب [١٤]. أما " محمد" فيقصد أنها فكرت فى حماية نفسها تماما ، لأنها لم تستمر فى المعبد كثيرا. وبدلا من الملاك المبشر يظهر هنا الروح . أما رودى بارت فيحيل إلى (الأنبياء ٩١) حيث يقال : إن مريم التزمت العفة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (وأيضا التحريم ١٢). ورأى " هـ. ريزنن "Raisonen" أن الروح ليس لها وظيفة أخرى أكثر من ملاك [١٥]. وبما أن مريم اعتقدت، أن الأمر يدور حول روح شريرة، تحدثت بصيغة مشكوك فيها (١٨). وبذلك يختم الحوار بين مريم والروح (١٩ – ٢١) والذى يشبه بعضه الحوار بين زكريا والملاك.

ويتبع ذلك الحديث عن ميلاد المسيح (الذى لم يرد عنه شىء فى سورة آل عمران): ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ (٢١– ٢٦).

يتعرف فى القصة على عناصر سهلة من رواية إبعاد هاجر وإسماعيل، فقد تاهت هاجر، وصارت قريبة من الموت جوعا وعطشا، وهى فى الصحراء، فأظهر الملاك من السماء الينابيع والنخيل (التكوين ٢١ : ٩ – ١٩) وتسرد فى إنجيل متى المنحول ، الذى تم التعرف عليه فى القرنين (الثامن والتاسع) فى الغرب وربما يحمل طليعة

شرقية، قصة مشابهة عن هروب المسيح ومريم إلى مصر [١٦]. ومن الصعب أن نقول إذا ما كان " محمد" قد اعتمد على متى المنحول أو على مصدر آخر يعتمد بصورة مباشرة أو غير مباشرة على التكوين (٢١). وبما أن مريم ويوسف لم يجدا فى بيت لحم مأوى واضطرا إلى أن يتجنبا المحيط الخطر (لوقا ٢: ٧) يمكن أن يرتبط ذلك بعلاقة نمطية بطرد هاجر، حقا قد كان إسماعيل يافعا عندما طردت هاجر، بينما مريم وصلت إلى النخلة عندما بدأت الآلام "مكانا قصيا" المذكور فى سورة (مريم ٢٣) ربما يكون مشابها لـ: ﴿ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون ٥٠). وهذا الوصف يناسب مصر أكثر من بيت لحم (التى لم تذكر فى القرآن بالاسم فى أى موضع).

وقد دل المسيح أمه على النخل ومنابع الماء وقدم لها، كما يزعم النص، براهين لسلوكها عند العودة: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ (٢٦) . وهددت الأخطار مريم العذراء لأنها عادت بطفل من الصحراء. وقُذفتْ: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ (٢٧–٢٨). ولأنها تدعى " أخت هارون" فإن ذلك يعد نتيجة حتمية لما قيل فى سورة آل عمران (٣٥) بأن أمها هى زوجة عمرام [١٧]. وبالنسبة للزنا فيكون الموت عن طريق الرجم طبقا لقانون العقوبة اليهودى (التثنية ٢٢: ٢٠) أو الحرق (التكوين ٣٨: ٢٤). ولمنع هذا الخطر الشديد يتدخل المسيح لأجل أمه. فيتكلم وسط دهشة الناس لأنه كان طفلا فى المهد (٢٩) ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ (٣٠). ويجعل هنا المسيح نفسه بشرا عن طريق الإشارة "عبد الله" ويمكن ، إذا ربط اللقب "عبد الله" بوظيفة النبى وتلقى الكتاب، أن يتصور شخصية موسى حيث يشار إليه " عبد يهوه" (التثنية ٣٤: ٥ ، نحميا ١٠: ٢٩ ، رؤيا يوحنا ١٥: ٣). ويذكر بطرس فى بشارته لعيد الفصح يسوع بأنه "عبد" الرب (أعمال الرسل ٣: ١٣).

وعلى العكس من " محمد (ﷺ)"، الذى تلقى دعوته – كما يقول المأثور – فى عمر الأربعين، فقد كان المسيح منذ الميلاد نبيا. ولأنه كان لمريم مثل هذا الطفل

فإنه لا يسمح كثيرا بإثارة القضية حول أصل الطفل، وأكثر من ذلك فمن الضرورى أن تقدر الأم كما فى البشارة: "طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما" وأجاب المسيح على ذلك فى الواقع قائلا : "طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه " (لوقا١١ : ٢٧ –٢٨). وهذا يظهر أن " محمدا" قد طاف بمخيلته فأخذ يتحدث لاحقا عن هبة الهدية التى حازها المسيح وسرد الوصايا المهمة وهى: الصلاة والزكاة وطاعة الوالدين وتجنب البطش (ربما يقصد تحريم القتل، الوصية التى تتبع فى الوصايا العشر وصية بر الوالدين) (٣١ –٣٢). ويتحدث المسيح فى النهاية عن عطفه ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٣).

وبالدعاء الختامى تبرز بوضوح المقارنة بالرواية الموضوعة عن زكريا ويوحنا المعمدان والتى تنتهى بدعاء متشابه (أيضا وإن تحدث هناك شخص ثالث بالدعاء). ولم يتحدث المسيح عن ميلاده بل عن موته وبعثه أيضا. وكان موته مصلوبا غريبا بالنسبة لـ " محمد". وقد حل المأثور الإسلامى الصعوبات القائمة حول موت المسيح وقصد أنه سوف يكون فى نهاية الأيام. وهى تتبع تصورات أخروية نصرانية لأنه سوف يهبط المسيح من السماء، وينتصر على الدجال وفيما بعد يموت. و يحدث الحساب الأخير، وسوف يبعث المسيح مع الموتى [١٨].

رابعا : رفض المسيح وتكذيب الرسالة

تسرد أحداث مهمة عن حياة المسيح فى سورة المائدة (١١٠– ١٢٠). وتمثل أربعة نصوص ذات أبعاد مختلفة ، ويبدأ كل منها بعبارة زمن موجزة. والخطة العامة هى العقاب فى آخر الزمان عندما يسأل الرب الأنبياء عن الاستجابة لرسالتهم عند الشعوب الذين أُرْسِلوا إليهم (١٠٩). وتركيب القصة ككل، تشمل نشأة تحريرية معقدة وتستحق معالجة منفردة ، لذلك لا يلتفت إليها هنا.